A.U.B. LIBRARY

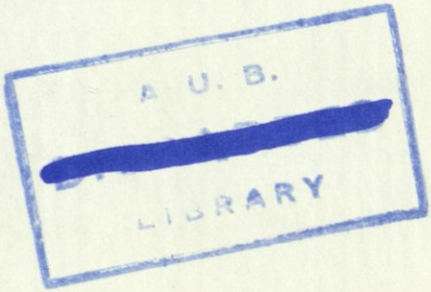

CA:953
B86gA
v.4
c.1

كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

٤

الإسلام
في القرن التاسع عشر

Cat. Oct. 1950
AUB faculty or AUB related publication

نقله الى العربية

الدكتور نبيه أمين فارس
رئيس دائرة التاريخ
في جامعة بيروت الاميركية

منير البعلبكي
استاذ الادب العربي
بكلية البنات الاهلية في بيروت

69653

دار العلم للملايين - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
كانون الثاني ١٩٥٠
بيروت

الامبراطورية العثمانية ومصر

●

لم يكد ينقضي القرن الثامن عشر ويبزغ فجر القرن التاسع عشر حتى كانت الامبراطورية العثمانية ، التي ما فتئت تتصدّر لمقام القيادة في العالم الاسلامي ، قد انتهت الى الدَرْك الأسفل من الضعف والانحطاط . فقد سبق لجارتَيْها الشماليتين ، النمسا والروسيا ، ان انتزعتا منها عدداً صالحاً من ممتلكاتها الهامّة . ففي آسية كانت امبراطورية القياصرة قد اندفعت الى الأمام حتى لبلغت حدودَ [الدولة العثمانية] بعد تنازل الملك هِرَقْل صاحب بلاد الكُرْج (جورجيا) عن العرش سنة ١٧٨٤ . وكانت سورية ومصر قد انتهتا إلى ما يقارب الاستقلال في ظل [احمد] باشا الجزار والمماليك . وفي أوروبة ، أطلعت النزعة الاستقلالية رأسها بين « الرعايا » ، على اختلاف الشعوب والأوطان . وكان الجيش قد انتهى الى غاية من الفساد والتفسّخ بعيدة ، بعد أن انهارت ، منذ زمن طويل ، تلك المؤسساتُ التي قام على آساسها ، مجدُهُ القديم .

عهد « التنظيمات »

وكان طلب الاصلاح « تنظيمات » يطغى - بصرف النظر عن عدد

من حركات الارتداد – على السياسة الداخلية في الامبراطورية . فقد كان ثمة رغبة في ان تفيد الامبراطورية من تلك المؤسسات التي كانت تُعتَبَرُ أساساً لتقدّم الشعوب الأوروبية وامتيازها ، من غير أن يكون في هذه الأفادة ما يطغى على صفة الامبراطورية الاساسية . والحقّ ان الاصلاحات بدأت ، اولَ ما بدأت ، في الجيش الذي كان يؤلّف – على أية حال – آساس الدولة برمتها . وهكذا انتقل طغيان العسكرية والعسكريين – ذلك الطغيان الذي قُيض له ان يقرر مصير جميع التطورات التالية – الى الطريقة التي كيّف بها العثمانيون انفسهم للمدنية الاوروبية وطغى عليها . وكان الاصلاح العسكريّ يستهدف ، في المحل الاول ، إنشاء جيشٍ جديد ذي فعاليّة صحيحة يحلّ محل الانكشارية الذين انتهوا ، منذ زمن بعيد ، إلى أن يكونوا بلاء العاصمة ، بعد أن كانوا ، في سالفات الايام ، درعها الواقي . والواقع أن السلطان سليم الثالث حاول قبل ذلك إنشاء جيش جديد . وإذ كانت الديبلوماسية الفرنسية لا تزال ، حتى بعد الثورة ، واسعة النفوذ في بلاطه فقد اتخذ المؤسسات الفرنسية نموذجاً يحتذيه بأرشاد من سفير نابوليون [في الآستانة] الجنرال سباستياني * . ولكنّ الانكشارية ما لبثوا أن تآمروا مع حاميات قلاع البوسفور – حتى قبل ان يتمّ تدريب هذا الجيش ، وقبل ان يكون في الامكان الافادة منه في اخضاع احدى الثورات الناشبة في البلقان – واكرهوا السلطان على التنازل عن العرش ، في ٢٩

* Sébastiani

نوار سنة ١٨٠٧ ، بعد ان استاقوا جميع انصار الاصلاح الى ميدان السباق (آت ميدان) حيث أعملوا السيف في رقابهم .

الثورة في بلاد الصرب واليونان

ولم يوفّق ابن عمه مصطفى الرابع – وكان يستمدّ التأييد من العناصر الرجعية في الجيش طبعاً – الى ان يحتفظ بالعرش اكثر من عام واحد ، ليخلعه بعد ذلك حاكم سِلِسْتْرَه مصطفى بَيْراقدار . ولما كان سليم قد أُورد قبل ذلك مورد الردى ، فقد خلفه على العرش اخوه محمود الثاني . ولكن الرجعية كانت على جانب عظيم من القوة ، ما تزال ، حتى لقد اضطرّ بيراقدار الى أن يرضخ امامها ؛ كذلك اضطر محمود ، بسبب من إخفاقه المتعاقب في السياسة الخارجية ، الى ان يرجيء إنفاذ خططه الاصلاحية التي جعلته منشيء تركية الحديثة . فقد خسر ، في حرب خاضها ضد الروسيا ، كلاً من نيقوبوليس وسِلِسْتره وزُوسْچَق ؛ ولم يحمل القيصرَ على توقيع صلح بخارست (٢٨ نوار سنة ١٨١٢) – وهو الصلح الذي اعترف فيه بنهر البروت حداً فاصلاً بين الروسيا والدولة ، والذي اعلن فيه رغبته عن ايّما توسّع جديد في المستقبل – إلا خوفه من حرب يشنها نابوليون على بلاده . ليس هذا فحسب . بل لقد كان ثمة خطر يتهدّد الدولة العثمانية بأكثر مما تهدّدها ذلك كله ، أعني ثورات « الشعوب الرعايا » [في أوروبة] . فمنذ سنة ١٨٠٤ كان الصّرب قد أعلنوا الثورة على الدولة بقيادة قَرَه جورج * (قره يوركي) . ولقد استطاعوا ، في الحملة الأخيرة ،

* Karageorgios

ان يقدّموا الى الروس مساعدةً فعّالة فأ ثابهم القيصر على ذلك بأن اشترط منحَهُم شبه استقلال داخلي ، وحق التقاضي أمام محاكمهم الخاصة ، في معاهدة الصلح . وإذْ لم يحرّروا من ربقة الجزية الالزامية — وكانت أثقل ما يُنقض ظهورهم — فقد واصلوا النضال ضدّ الدولة ، حتى اذا فرّ قره جورج الى النمسا قام مقامه ميلوش اوبرنوويچ * . وفي سنة ١٨٢٠ اندلعت نار الثورة اليونانية التي اذكتها الحماسة الاوروبية للهلينية ، والتي لم تحرم البابَ العالي مقاطعة لم يكن لها بالنسبة اليه اهمية عظمى ، فحسب ، بل قادت بخاصة الى مشكلات ديبلوماسية لا حد اليها ، أيضاً . ومهما يكن من شيء فقد وفق السلطان الى القضاء على استقلال « الاعيان » في الروم إيلي والزعماء** في الاناضول ، والى توطيد هيبة الحكومة المركزية في الولايات .

محمود الثاني يقضي على الانكشارية

وفي هذه المعارك جميعاً اقام الانكشارية الدليل على انهم لا يقدرون على شيء . ولكن السلطان محموداً احسن الافادة من فترة الانتظار التي فرضتها عليه العناصر الرجعية فأسند معظم المناصب الرئيسية ، شيئاً بعد شيء ، الى رجال مخلصين له شخصياً . حتى اذا وافى ربيع سنة ١٨٢٦ استطاع آخر الامر استئناف العمل لانفاذ خطط السلطان سليم [الثالث] وهكذا اصدر أمره — في ظلٍ من حماية الجيوش الاناضولية التي كان حاكم بِيْقُوز

* Milosh Obrenovich

** وكان الواحد منهم يعرف بلقب «دربك» أي «أمير الوادي» . [المعربان]

(بِكقُوز) قد حشدها على الضفة الشرقية من البوسفور – بانشاء جيش نظاميّ جديد أُطلق عليه اسم « مُعَلَّم أَشْكِينْجِي » (الحرس المدرَّب) . وانما بعث اليه بالمدربين الذين اقتضاهم انشاء هذا الجيش محمد علي والي مصر . ولقد استطاع ان يكتسب الى جانبه ضباط الانكشارية فأقروا خططه الاصلاحية ، في حين ازدادت معارضة من دونهم من الجند، لهذا الاصلاح، شدة وحدة. وحُدد يوم ١٨ حزيران موعداً لعرض الجيش الجديد في كآغد خانه قرب استانبول. ولكي يحول الانكشارية دون هذا العرض، فقد شقوا عصا الطاعة قبل ميقاته الموعود بثلاثة أيام ، واكتفوا بادىء الأمر بالمطالبة بالغاء قوانين التدريب المستحدثة للجيش الجديد. ولكن السلطان أمر ، بموافقة « العلماء »، بان تُنشر الراية النبوية، وكأنه يبغي قتال فئة من الكفار ، وأوعز الى الجيش ، بعد ان حُشد على وجه السرعة، بتطويق الانكشارية في ساحة آت ميدان القائمة تجاه ثكناتهم . ولفظ المفتي اللعنة عليهم ، ومن ثم دارت رحى مجزرة لم يسلم من هولها احد منهم . وقُتل نحو الف من الانكشارية في الاقسام الاخرى من المدينة . وأُلقيت رايتهم ، ولباسهم الفارق الخاص ، اي القلنسوة ، في الوحول ، وهُدّمت مساجدهم ومقاهيهم التي ألِفوا غشيانها . ليس هذا فحسب ، بل حُلت الطريقة البَكْتاشيّة المتصلة بالانكشارية ، كما حُلت فِرق الاطفاء والحمالين ذات الصلة الوثيقة بها . والواقع ان الدولة لم تُغفل رجال المدفعية وحرس البوسفور ، الذين تعلقوا هذه المرة بأهداب الولاء على الرغم من انهم كثيراً ما أيدوا الانكشارية

وتضامنوا معهم ، فقضت على كل امريء منهم آنست فيه ميولاً رجعية او ظنت به ذلك .

ولكن الدول الغربية لم تدع للسلطان وقتاً يجني فيه ثمرات هذا الاصلاح الدامي . ففي ٧ تموز سنة ١٨٢٧ عقدت فرنسة وانكلترة والروسيا الحلف الثلاثي ، الذي انضمت اليه بروسيا بعدُ ، ابتغاء اكراهه على تحرير الشعب اليوناني بعد ان حمل ابراهيم باشا بقواته المصرية الاضافية ، حملة ثقيلة على الثوار في الموره . وكانت آخر حصونهم ، مِيسُولُونكِي ، قد اضطرت الى الاستسلام في ٢٣ نيسان سنة ١٨٢٦ بعد حصار دام ستة اشهر. وبرز اسطول السلطان في ساحل الموره حاملاً الى ابراهيم نجدات تتألف من اربعة آلاف جندي من المشاة، وخمسمائة من الفرسان، وألقى مراسيه امام ثغر ناوارين . ولكن وحدات من اساطيل البحر المتوسط التابعة للدول المتحالفة تصدت له هناك ، وحظرت على ابراهيم ، وكان قد تولى قيادته ، القيامَ بأي عمل عسكري جديد على الساحل اليوناني . حتى اذا أبى ابراهيم ان ينصاع لهذا التدخل المتعارض مع سيادة سلطانه العسكرية العليا ، وقعت في ٢٠ تشرين الاول تلك المعركة البحرية الفاجعة التي حُطم فيها الاسطول العثماني ، المؤلف من اكثر من مائة قطعة ، تحطيماً كاملاً، خلال اشتباك استغرق ست ساعات .

واستجاب الباب العالي لهذا الهجوم الوحشي الذي تم في رابعة السلم فاستولى على جميع القطع البحرية الاجنبية الراسية في القرن الذهبي ؛ وبعد مفاوضات مخفقة غادر ممثلو الحلف الثلاثي استانبول

في منتصف كانون الاول . ولكن الحرب على الباب العالي لم تعلن – وقد افتتحتها الروسيا بعد استعداد ضخم – الا في نوار من السنة التالية . والواقع ان جيوشها عجزت ، خلال السنة الاولى، عن احراز تقدم ما سواء في البلقان او في القبق (القوقاز) . فلما كان ربيع سنة ١٨٢٩ تولى الامير دِيبِيتْش* قيادة الجيوش الروسية في اوروبة . فحاصر شُمْلا، التي وقفت تقدمه من قبل، وتابع تقدمه حتى أَدْرَنة ، حيث أملى شروط معاهدة الصلح على السلطان في ١٤ ايلول . وقنعت الروسيا، في هذه المعاهدة، بتخلي العثمانيين عن جزر الطونه (الدانوب) والمقاطعات التركية الواقعة في القبق (القوقاز) بين ولايتي إيمَرَتْيا وجورجيا (بلاد الكرج) . ولكن السلطان أكره على الاشتراك في معاهدة لندن، وبكلمة أخرى ، أُجبر على الاعتراف باستقلال اليونان .

محمد علي والي مصر

بينا كان محمود لا يزال منهمكاً في العمل على زيادة فعالية الدولة من طريق الاصلاحات، ولكن على غير طائل، كان تابعه المصري، محمد علي ، قد سبقه في هذه السبيل سَبقاً بعيداً . وانما وُلد هذا الرجل ، وهو اعظم الشخصيات التي عرفها الاسلام الحديث شأناً، في كانون الثاني سنة ١٧٦٩ ، في قَوالَه على الساحل المقدوني ، حيث كان عمه يشغل منصب « مُتسلم » (نائب الوالي) . وفي « ديوان » عمه هذا تمرس محمد علي بالاعمال والمعاملات من غير ان يحظى بتربية مدرسية صحيحة ؛ حتى اذا بلغ سن العشرين كان قد

* Diebitch

نجح في تجارة التبغ وعقد الصفقات فيها ،والتبغ مادة التجارة الرئيسية في بلده الأم. ومهما يكن من شيء فقد كانت تلك المقاطعة النائية أضيق من ان تسع طموحه البعيد .

وفي مصر ، كان المماليك قد احتفظوا بقوتهم حتى بعد الفتح العثماني ، عهد السلطان سليم ، سنة ١٥١٧ . وكانت الامبراطورية العثمانية لا تعلق ، في الجملة ، ايما اهمية على هذه البلاد الا من حيث كونها قاعدة عسكرية تساعدها على الاحتفاظ بسيطرتها على سورية وبلاد العرب، هذا بالاضافة الى ما كانت تقدمه الى الباب العالي من جزية . ولم تُجذب مصر الى دائرة التاريخ العالمي الا عندما تطلّع اليها نابوليون بثاقب نظره ، كمركز للوثوب على الحكم الانكليزي في الهند . وفي سنة ١٧٧٨ عقدت بريطانية معاهدة تجارية مع زعيم المماليك علي بك الذي سبق ان احتفظ باستقلاله عن الباب العالي فترة قصيرة من الزمان،صيانة لملاحتها في البحر الاحمر . وفي تموز سنة ١٧٩٨ جرد نابوليون حملته على مصر بحجة ان سوء ادارة المماليك كان يعرّض ممتلكات المواطنين الفرنسيين للخطر ، فقضى بما تم له من نصر قرب الاهرام فضاء موقتاً على سلطتهم ، بالرغم من ان انتصار نلسون عند ابي قير ، غرة شهر آب ، كان قد جعل مركز الفرنسيين في الديار المصرية حرجاً يتعذر الدفاع عنه . ولم يكن في استطاعة السلطان سليم الثالث — على قلة ما ابداه من اهتمام بشؤون مصر في الماضي — ان يمر بهذا الاعتداء على سيادته مراً كريماً . وهكذا وجّه ، صيف سنة ١٧٩٩ ، بضع سفن حاملة جنوداً الى مصر . وكان على عم محمد علي

ان يبعث الى مصر ايضاً بكتيبة مؤلفة من ثلاثمائة رجل ، فعهد في قيادتها الى ابنه الصغير وعيّن محمداً علياً مستشاراً له . ولم تكد الكتيبة تبلغ ارض مصر حتى تولى محمد علي القيادة الرسمية ايضاً . ثم انه ابدى من المقدرة – في المعارك التي تلت والتي اكرهت الفرنسيين على الجلاء عن مصر في آب سنة ١٨٠١ – ما ساعده على الوثوب دفعة واحدة الى مقام القيادة العامة . وكان خُسْرَو ، وهو في الاصل من الأرقاء الأبخازيين ، قد عُين « باشا » بعد انسحاب الفرنسيين من مصر . واذ قد انغمس وشيكاً انغماساً كلياً في مؤامرات البلاط [العثماني] فقد انتهت مصر الى ان تعني بالنسبة اليه مجرد درجة دنيا في سلم مطامحه ، ومن هنا جعل همه السعي لمغادرة البلاد في وقت قريب حاملاً معه اضخم ما يستطيع جمعه من ثروة . ولما كان محمد علي يأخذ جنوده الالبانيين [الأرناؤط] بنظام اشد مما كان الوالي يفرض على جنوده ، فقد وفق شيئاً بعد شيء الى اخضاع مصر السفلى برمتها لسلطته ، وذلك من طريق إثارة المماليك ، في كثير من البراعة ، على خسرو . وفي سنة ١٨٠٣ دعي هذا الاخير الى ترك منصبه ، وكان قد امسى شحيح الموارد ، قليل العائدة . ولم تطل ولاية خلفه غير بضعة اشهر ، اذ ما لبث محمد علي ان اعلن نفسه ، بواسطة علماء الازهر في القاهرة ، صاحب السلطان الشرعي ، وكان الازهر قد انتهى منذ قرون ، الى ان يصبح مثابة الشرع والفقه ، في نظر العالم الاسلامي . وفي تشرين الثاني سنة ١٨٠٥ امسى محمد علي سيد البلاد الفعلي ، من اقصاها الى اقصاها . فلما كان شهر نيسان سنة ١٨٠٦ تعين على الباب العالي

ان يعـــترف به ويُقره والياً . ولقد ترك المماليك يحكمون مصر العليا، فترة من الزمان، لقاء جزية ضخمة يدفعونها اليه . حتى اذا شرعوا في مفاوضة بريطانية – وكان قد هزم جيوشها التي حاولت النزول الى البر عند رشيد في نيسان سنة ١٨٠٧ – دعا زعماءهم الى القاهرة (آذار ١٨١١) زاعماً انه يبتغي استشارتهم في امر حملة يعتزم شنها على الوهابيين في بلاد العرب ، وهناك اعمل السيف في رؤوسهم ، في ١١ من الشهر نفسه ، وكانت عدتهم ثلاثمائة رجل .

وهكذا دانت مصر لمحمد علي كما لم تدن لحاكم آخر من قبله. بيد ان جنوده الألبانيين [الأرناؤط] الذين كانوا لا يزالون خاضعين خضوعاً بعيداً لتأثير الروح العثمانية ، لم يبرهنوا عن كفاءتهم في الحملات التي شنها ضد الوهابيين ، والتي شغلته حتى سنة ١٨١٥ . حتى اذا سعى الى اخذهم بأشد النظام واصرمه ، نشبت في القاهرة سنة ١٨١٦ ، فتنة ما لبثت ان أخمدت ، في سهولة ويسر . ثم ان محمداً علياً سرح القوات الالبانية بالكلية ، واستعاض عنها بالفلاحين الذين دعاهم الى الخدمة العسكرية . وبهذا الجيش الجديد المزوّد بالسلاح الاوروبي والمدرب على الاسلوب الفرنسي باشراف الكابتن سيف* ، الذي نال فيما بعد لقب « باشا » ، استطاع محمـــد علي اخضاع النوبة ، وسنّار ، ودُنقُلة** ، ودارفور في سلسلة من الحملات التي لم تكن في حقيقتها شيئاً اكثر من غزوات تهدف الى استرقاق العبيد .

---

* Sève

** وجاءت ايضاً على دمقلة ودنكلة . [المعربان]

ووجّه محمد علي همته ، في الوقت نفسه ، الى النهوض بالبلاد من الوجهة الاقتصادية. فلم يكتفِ بتجميل القاهرة والاسكندرية بعدد كبير من المباني المشيدة على الطراز العثماني ، بل اتم فوق ذلك انشاء مرفأ الاسكندرية ووصله بالفرع الغربي من النيل بواسطة قناة امر بشقها. ولكنه نظر الى البلاد نظرته الى ملك خاص كان همه الأوحد السعي الى ان يجني منه اعظم محصول مستطاع . وفي سنة ١٨١٥ وضع يده على كامل محاصيل القطن والقنب والكتان، ليضعها بعد سنتين على محاصيل النيلة والسمسم والنباتات الزيتية الاخرى . ولكن هذه الموارد لم تستطع ، على غناها ، ان تشبع مطامعه . وكان قد صادر منذ سنة ١٨١٢ جميع الاوقاف الدينية والاقطاعات كافة . ثم الف لجنة للتحقيق في صحة « كواشين » العقارات . وقد تعيّن على كل من لا يملك « كوشاناً » صحيحاً — وكانت كثرة الفلاحين الذين توارثوا العقارات جيلاً بعد جيل مفتقرة الى ذلك — ان يحرث ارضه منذ اليوم بوصفه مزارعاً لا مالكاً . اما الارض فأصبحت ملكاً للباشا . ليس هذا فحسب ، بل لقد سخّر ، وفقاً للعادة الشرقية القديمة ، جميع النجارين والبنائين لينشئوا له اسطولاً ، واشترى جميع الخشب المستورد باسعار محددة. والحق ان سياسته الجمركية الخاطئة التي استشعر جمهور الاهلين شدة وطأتها بسببٍ من انصبابها على السلع المستوردة من البلدان الاسلامية الاخرى بأكثر واثقل من انصبابها على السلع الاوروبية ، ما لبثت ان ادت الى ارتفاع لا يُطاق في نفقات المعيشة .

اما نِعَمُ الحضارة الاوروبية وبركاتها فقد ابدى محمد علي اعجاباً

شديداً بها ، ما دامت تساعده على الارتفاع بقدرة بلاده على الانتاج . وكان اول ما انشأ من معاهد التعليم ، على الاسلوب الاوروبي، مدرسة لتعليم الرياضيات اصطنعت فيها اللغة الانكليزية أداة للتدريس . اما فيما عدا ذلك فقد كانت اللغة الفرنسية هي المعتمدة . والواقع انه استعان بعدد من الرجال الذين انصرفت همتهم ، في تفانٍ واخلاص ، الى خدمة البلاد وتحسينها ، ولكن كان عليه ، الى جانب ذلك، ان يتخلص لقاء ثمن باهظ من جمهرة من الدجالين المخادعين قبل ان يقع على رجل كفء يستطيع ان يعهد اليه في تنظيم مصانعه . وعلى الرغم من جميع الاخطاء التي حفلت بها سياسة محمد علي الانانية ، فليس من شك في ان الفضل يرجع اليه ، دون غيره ، في فتح ابواب مصر لمؤثرات الحضارة الاوروبية .

واستثارت قوة محمد علي المتعاظمة جزع استانبول ، وخوفها من ان يتخطى ، عاجلًا او آجلًا ، حدود مركزه كحاكم إقليمي ، حتى في علاقاته مع البلدان الاجنبية ايضاً . والحق انه سعى الى ان يجتنب ، بادىء الأمر ، كل ما قد يدل على إهمالٍ لواجبه نحو السلطان أو تضاؤلٍ في احترامه له . وهكذا قدم اليه ، عن طيب خاطر ، مساعدة عسكرية على الثوار اليونان . وقاد ابنه ابراهيم بقايا الاسطول الامبراطوري المحطم في ناوارين الى الاسكندرية ، مع السفن المصرية ، ليُصار الى تجديدها هناك . حتى اذا امره الباب العالي بأن يبعث بكلٍ من الاسطولين التركي والمصري الى استانبول سارع الى تهدئة السلطان واسترضائه بمبلغ من المال

ارسله اليه ، وهو ما كان دائماً موضع ترحيب من السلطان . ولقد أقطعه هذا الأخير جزيرة إقريطش (كريت) نفسها لقاء تحمّله تسعة قسم من الديون التي جرتها على السلطان الحرب العثمانية الروسية .

ابراهيم يفتح سورية

ولكن جميع الدول الكبرى التي نبعت من قبل في مصر لم تجد بداً من ان تبسط سلطانها نحو سورية . وكان السلطان قد وعد محمداً علياً بأن يمنحه تلك البلاد ايضاً جزاء مساعدته له في الحرب اليونانية ؛ ولكنه اخلف الميعاد . ومهما يكن من شيء فلم يخطر لمحمد علي قط ان يتخلى عن سورية ؛ وما هي الا فترة حتى وجد ذريعة للاشتباك مع باشا عكا . ذلك ان فلاحي مصر ، الذين كانوا ينوءون تحت عبء سياسة محمد علي الريفية ، اخذوا يهاجرون زرافات زرافات الى البلاد الشامية . ولم يكن في ميسور محمد علي ، طبعاً ، ان يقرّ بأن لرعايا السلطان حرية التنقل في انحاء الامبراطورية .

وفي خريف سنة ١٨٣١ سيّر محمد علي جيشاً بقيادة ابنه الى سورية فطوق عبدالله باشا في عكا . ولكن حصار القلعة تطاول حتى نوّار من السنة التالية على الرغم من المساعدة التي أسداها الاسطول الى القوات المصرية المحاصرة . وطالب محمد علي ـ جواباً على أمر ، معتدل اللهجة ، وجّهه اليه الباب العالي بسحب جيوشه ـ بان تقطعه الدولة ولايتي عكا ودمشق . وفي الوقت نفسه وفق ابراهيم ، بمساعدة امير لبنان بشير الشهابي الذي انضم اليه بعد تردد طويل ، الى ان يخضع فلسطين بكاملها . حتى اذا سقطت عكا

بدورها ، في ٢٦ نوار سنة ١٨٣٢ ، صار في مقـــدور ابراهيم ان يتقدم حتى أَطنه عاصمة قِيليقِيَة من غير ان يلقى مقاومة ما . وكان السلطان قد استعد ، في هذه الأثناء ، لمناجزة تابعه الثائر ، فوجّه نحو الجنوب جيشاً مؤلفاً من خمسين الف رجل بقيادة حسين باشا ، وهو انكشاري سابق . وكان حسين على خلاف مع وزير الحرب ، خسرو باشا ، وقد تمكن خسرو هذا من ان يضمن تعيين محمد باشا ، ولده بالتبني ، رئيساً لأركان الحرب في جيش حسين باشا . ولكي يسبق محمد هـــذا رئيسه الى اكاليل النصر المنتظرة تقدم بسرعة الى حمص ، حتى اذا تصدى له المصريون هناك خاض غمار المعركة ، في الحـــال ، بجيشه المتعب الجائع . وما هي الا سُويعات حتى ضَمن ابراهيم النصر . وبعد ان التحق محمد برئيسه دارت معركة ثانية عنـــد مجاز بَيْلان الذي يخترق الأمانوس ، فكتب النصر هنا ايضاً للمصريين بفضل خطط ابراهيم المتفوقة . وانقلب حسين الى قَرَمان ، حيث تعين عليه ان يتخلى عن إمرة الجيش للقائد الجركسي رشيد باشا . وما كان ابراهيم ليتباطأ في تقدمه بسببٍ من قسوة الشتاء التي لم تعتد قواته الصبر على مثلها ، فهزم الاتراك ، للمرة الثالثة ، عند قُونية ، في ٢١ كانون الأول ، فانفتحت امامه الطريق الى البوسفور . ولكن الدول الاوروبية ما كانت لتسمح بذلك . فبعثت الروسيا عمارتين من اسطولها لمساعدة السلطان ، وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٣٣ عُقدت في كوتاهيه ، في مقر قيادة ابراهيم ، وبوساطة الديبلوماسيين الروس والفرنسيين ، معاهدة صلح ضمنت لمحمد علي ضم سورية الى ولايته . حـــتى اذا

طالب بأن يُمنح مقاطعة أَطنه في قيليقية ، علاوة على ذلك، أجابه السلطان الى ما طلب . ولكن الديبلوماسية القيصرية استطاعت ، قبل ان يبرح الاسطول الروسي البوسفور ، ان تحمل الباب العالي على توقيع معاهدة « خونكيار أسكلسي » ، في تموز سنة ١٨٣٣ ، وبمقتضاها أخذت كل من الدولتين عهداً على نفسها بتبادل المساعدة في حالة الاعتداء على إحداهما . وإذ كانت هذه المعاهدة تتضمن ملحقاً سرياً أعفى الباب العالي من أيّما التزام آخر مقابل وعده باغلاق الدردنيل اذا قضت الحاجة [في وجه جميع الدول ما عدا الروسيا] فقد انحدرت الدولة العثمانية ، في الواقع ، الى نوع من التابعية للروسيا .

وفي سورية ، استُقبلت قوات ابراهيم استقبال المحرر المنقذ ، تقريباً ، من قبل الاهلين الرازحين تحت نير الادارة العثمانية الفاسدة . ولكن الاستياء المرير ما لبث ان اتخذ سبيله الى نفوس السوريين . صحيح ان الادارة المصرية السديدة قد وضعت حداً للضرائب الاضافية العديدة التي اعتاد الموظفون الاتراك ان يملأوا بها جيوبهم ، ولكن السوريين خسروا ، لقاء ذلك ، البقية الباقية من حريتهم الشخصية . وكان الحكم المصري في سورية قد استُهل بتجريد السكان من سلاحهم تجريداً عاماً شمل دروز لبنان ايضاً نتيجة خيانة امرائهم انفسهم . وفُرضت الخدمة العسكرية العامة في قسوة بالغة ، وشعر السكان بعبء الضرائب الفادحة اكثر فأكثر ، لاسيما وان هذه الضرائب كانت تفيض الى مصر دون ما انقطاع او نقصان . وما هي إلاّ اشهر معدودة حتى انقلب الرأي العام

انقلاباً تاماً على ابراهيم ، وأخذه الحنين الى الحكم العثماني ، على الرغم من انه انقضت سنتان تقريباً قبل ان يجرأ الاهالون الراسفون في أغلال العبودية ، على ان يعلنوا الثورة في وجه القوة العسكرية المنظمة التي يملكها سيدهم الجديد . وفي نوار سنة ١٨٣٤ اندلعت بين الفلاحين في جبال نابلس وحبرون ، نار ثورة أورثت ابراهيم عنتاً كبيراً بسبب من وعورة البلاد وصعوبتها . والواقع انه لم يوفق ، آخر الامر ، الى اخماد هذه الثورة الخطرة الا من طريق الخيانة .

الحركة الوهابية في بلاد العرب

ولم يحالف التوفيق محمداً علياً في شبه الجزيرة العربية بقدر ما حالفه في مصر وسورية . فهناك اصطدمت سلطته بحركة انبعاث وطنية كبرى . وتفصيل ذلك انه وُلد في نجد ، المرتفعة في قلب الجزيرة ، محمد بن عبدالوهاب من قبيلة تميم ، ما بين اواخر القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر ؛ فنشأ محباً للعلم ، واقفاً نفسه على دراسة الفقه والشريعة ، وقصد وفقاً للعادة القديمة ، الى عواصم الشرق الاسلامي طلباً للعلم في مدارسها . وفي بغداد درس محمد فقه احمد بن حنبل ، مؤسس آخر المذاهب السنية الاربعة ، الذي دافع ، في شدة وثبات عن مبدأ الاخذ بالحديث والاعتماد عليه اعتماداً كلياً ضد نزعة الفقهاء السابقين الى الاخذ بالرأي . ثم إنه درس مؤلفات احمد بن تيميّة الذي كان قد أحيا ، في القرن الرابع عشر ، تعاليم ابن حنبل . والواقع ان دراسته لآراء هذين الامامين انتهت به الى الايقان من ان الاسلام ،

في شكله السائد في عصره – وبخاصة بين الاتراك – مُشرب بالمساوىء [التي لا تمت الى الدين الصحيح بنسب] . فلما آبَ الى بلده الاول سعى ، اول ما سعى ، الى ان يعيد الى العقيدة والحياة الاسلاميتين صفاءهما الاصلي ، في محيطه الضيق . ولكنه لم يكد يشجب مظاهر التقديس التي كان يحاط بها سعد ، وهو الولي الخاص بمسقط رأسه عُيَيْنَة ، ويفرض بين اتباعه القصاص المفروض على الزانية – اي الرجم – (وكان هذا القصاص قد أُهمل على الرغم من نص الشارع عليه) حتى نُفيَ من البلاد . وفي سنة ١٧٤٠ التجأ الى محمد بن سعود ، وكان خصماً لشيخ عيينة يقيم في بلدة محصنة هي الدّرْعيّة ، الباعدة ست ساعات فحسب عن عيينة ، بوصفه شيخاً لعشيرة عَنَزَة . وهناك لقي محمد حفاوة وترحيباً ، حتى اذا انقضت فترة قصيرة اكتسبت تعاليمه انصاراً ومريدين . ولقد شجب تقديس الرسول والاولياء على اختلاف صوره وكان ذلك قد شاع بين المسلمين منذ قرون ، تقليداً للنصرانية وبعض الطقوس الدينية الاكثر بدائية – رامياً بالشرك اولئك المسلمين الذين يشاركون في هذا التقديس ، والذين يقضي القرآن بحربهم حتى يرجعوا عن غيهم او يُبادوا . واخذ محمدٌ اتباعه بأداء صلاة الجمعة ، في صرامة لا تعرف الرحمة ؛ ونهى عن كل زينة في اللباس ، وعن لبس الحرير بخاصة ، وحرّم أيّما تزيين او زخرفة للمساجد والأضرحة . ليس هذا فحسب ، بل لقد توسع في فهم التحريم الاسلامي لمختلف ضروب المسكر ، فحرم تدخين التبغ الذي اعلن جميع الفقهاء تقريباً ، من الحنابلة وغير الحنابلة ، معارضتهم له اول

دخوله الى بلاد الشرق. والواقع ان هذا المصلح لم يكن يتمتع من خصب الافكار ، او الابتكار ، بأكثر مما كان يتمتع به الرسول نفسه* بيد انه كان كالرسول قادراً على إلهاب نار الحماسة في قلوب اصحابه وعلى استثمار محبتهم العارمة للحرب في سبيل قضيته . وفي مدى عشر سنوات وفق محمد بن سَعود الى ان يُخضع ، لسلطته وللمذهب الجديد ، رقعة من الارض مساحتها نحو من ثلاثين ميلاً مربعاً . ولم يحشد خليفة امير الأحساء ، الذي أخرج المصلح يوماً من عُيينة ، قواته للنضال ضده الا في سنة ١٧٥٧ ، ولكنه هُزم فاستولى الوهابيون على إمارته ، وانتشروا منذ ذلك اليوم في اتجاه الغرب ايضاً . حتى اذا توفي محمد بن سَعود سنة ١٧٦٥ خلفه ابنه عبد العزيز ، وكان قد لمع نجمه في الحروب التي دارت على عهد ابيه . فواصل سياسة الفتح التي بدأها والده ، حتى اذا وافت سنة ١٧٨٨ انتهى في تقدمه الى الكويت ، وهي الثغر الوحيد على الساحل الشمالي الشرقي من بلاد العرب . وكان قبل ذلك بعام قد جعل حق الخلافة في بيته بأن ثبّت ابنه سَعوداً خليفة له في حشد عظيم من الناس ترأسه محمد بن عبدالوهاب . حتى اذا توفي هذا الاخير سنة ١٧٩٢ خلفه ابنه ايضاً في منصبه الديني ، اعني الافتاء.

ومع الايام انتهى تعاقب الوهابيين الى ان يكون مدعاة قلق وإزعاج لجيرانهم . والواقع ان الشريف غالب الذي حكم هو واسلافه العلويون المدينة المقدسة ، مكة ، منذ القرن العاشر —

* سبق ان علقنا على كثير من آراء المؤلف في السيرة النبوية والعقيدة الاسلامية ... [المعربان]

حسبَ باديء الامر ان في استطاعته ان يقضي وحده عليهم، ولكن الجيش الذي سيره الى نجد سنة ١٧٩٠ لم يقدر على شيء، حتى إذا ارتد خائباً انزل به سعود هزيمة شنعاء. وفي السنوات التوالي واصل الوهابيون تقدمهم نحو الشمال، حتى لقد اضطر باشا بغداد، آخر الأمر، الى اتخاذ إجراءات دفاعية ضدهم. وفي سنة ١٧٩٧ هاجم وسبعة آلاف جندي تركي وضعف هذا العدد من العرب منطقة الأحساء، وهي اغنى ممتلكات الوهابيين واخصبها. ولكنه لم يزحف على عاصمتهم الدَرْعية، في الحال، بل تمهل شهراً ضرب في خلاله الحصار على قلعة الأحساء. حتى اذا تقدم سعود بنفسه لقتاله لم يجرؤ على مهاجمته بل عقد معه صلحاً مدته ستة اعوام. بيد ان الوهابيين شرعوا منذ اليوم يستخفون بقوته، ليهاجموا بلاده سنة ١٨٠١، وإنما كان هدفهم الاستيلاء على كربلاء وعلى قبر الحسين، حفيد الرسول، الذي يقدسه الشيعة جميعاً. وفي ٢٨ نيسان، يوم عيد الفطر، سقطت البلدة في ايديهم. ثم انهم هدموا القبة التي تظلل ضريح الحسين، وغنموا غنائم ضخمة.

وبعد ان انضمت جميع قبائل نجد، تقريباً، الى الوهابيين خلال السنوات التالية، شنوا هجوماً على مكة، سنة ١٨٠٣، في ايام الحج من شهر نيسان. وعلى الرغم من ان البلدة كانت تغص بالحجاج الاجانب فقد استسلمت بعد مقاومة قصيرة. وفر الشريف غالب الى ثغر جُدّة، وتعيّن على امير الحج السوري، عبد الله باشا والي دمشق، ان يغادر مكة بعد ثلاثة ايام. ومهما يكن من شيء، ففي السنة نفسها ثأر الشيعة لكربلاء من عبد العزيز نفسه

فصرعه رجل شيعي متقد حماسة ، في مسجد الدّرْعية .

ورفع ابنه سعود ، حفيد المصلح من جهة امه ، الحصار عن جُدّة وسمح للشريف غالب بالعودة الى مكة كتابع له؛ ولقد كان على الشريف ، بسبب من تابعيته هذه ، ان يتنـــازل عن اخصب موارده اعني عائدات جُدّة الجمركية ، إذ كانت هـذه العائدات تعتبر دائماً ابتزازاً غير مشروع ، في حكم النظرية الاسلاميـــة القانونية ، الصارمـــة . وفي ربيع سنة ١٨٠٤ سقطت المدينة في ايدي الوهابيين . ولقد قُدّر للمدينة ، حيث مسخ المسلمون شعائر الحج الى قبر الرسول الى شبه وثنية ، أن تعاني من نقمة الفاتحين الجامحة اكثر مما عانت مكة . فطردوا الاتراك ، وكان كثير منهم قد استقروا هناك ، الى خارج البلاد ، وخربوا القباب الضخمة التي تظلل قبر الرسول وجردوهـــا من جميع النفائس التي تزينها . وهكذا انتهى الحجاز كله الى ان يخضع لسلطان الوهابيين .

السلطان يعهد الى محمد علي في قتال الوهابيين

وكان على السلطان، بوصفه خليفة المسلمين ، ان يحرر الاماكن المقدسة المستظلة بحمايته من سلطان اهل البدع ، فعهد الى محمد علي والي مصر ، في هذه المهمة . ولكن محمداً علياً لم يفرغ لشيء من ذلك حتى سنة ١٨١١ ، بعد القضاء على المماليك . وفي هذه الاثناء كان الوهابيون قد هاجموا النجف ودمشق كرة اخرى ، ومع ان المدينة الاخيرة وفقت الى ان تدافع عن نفسها دفاعاً ناجحاً فقد بسطوا سلطانهم في الشمال حتى حلب . وبعد ان أعد محمد علي ما استطاع لحربهم من قوة ، وجّه ابنه طوسون على رأس جيش من

الفرسان ، بطريق البر ، الى بلاد العرب ، في حين أقلّ اسطوله جيش المشاة الى ثغر يَنْبُع . وفي تشرين الاول زحف الجيش المصري الى المدينة ، ولكنه هوجم على غرة قرب بَدْر - حيث دارت رحى المعركة الشهيرة التي [انتصر] فيها الرسول [على قريش] - وكاد ان يُفنى عن بكرة ابيه رغم ما ابداه من مقاومة باسلة . ولم ينج طوسون من الموت الا بفضل شجاعة توماس كيت* وهو اسكتلندي اعتنق الاسلام فعرفه القوم باسمه الجديد : ابراهيم آغا . ولكن بينا كان سعود و كثرة قواته يندفعون نحو الشمال غازين مخربين ، اغتنم طوسون هذه الفرصة لتقوية جيشه ، في ينبع ، بامدادات جديدة . وفي تشرين الثاني سنة ١٨١٢ وفق الى فتح المدينة ، وفي كانون الثاني التالي سلّم الشريف مكة الى المصريين . وفي الصيف استطاع هؤلاء ان يحتلوا الطائف ايضاً .

ولكن لما كانت قوة الوهابيين لا تزال ، في موطنهم الاصلي ، سليمة لم تُمس فقد وطّن محمد علي نفسه على ان يتولى قيادة الجيش شخصياً . حتى اذا بلغ بلادَ العرب قبض ، باديء الامر ، على الشريف غالب الذي ساءه ان يوضع تحت الوصاية المصرية فحازب الوهابيين سراً . وحمل المصريون الشريف الى سالونيك حيث توفي ، بعد ثلاث سنوات ، إثر وباء اجتاح البلد . وفي تشرين الثاني هُزم طوسون هزيمة اخرى قاصمة ، عند تَرَبَة ** كلفته مدفعيته برمتها . واخيراً أدرك محمد علي ان حرب الوهابيين لا تنطوي الا على

---

* Thomas Keith

** وجاءت ايضاً على تربة (بضم التاء) [المعربان]

خسائر جديدة ، فحوّل انظاره عن نجـــد – التي تكشفت له عن عائدة ضئيلة – ليتطلع الى ثروات بلاد العرب الجنوبية .

الادارة الوهابية في عهد سعود

وتوفي سعود في ٢٧ نيسان سنة ١٨١٤ . وهو يُعتبر مثـال الحاكم العربي . فقد كان يختلط بشيوخ البدو على قـدم المساواة المطلقة ، ولكنه كان قادراً ، دائمـاً ، على ان يفرض نفسه عليهم بمزاياه الشخصية ، وبخاصة الفصاحة التي لا تزال الى اليوم محل تقدير عظيم ، في بلاد العرب . وقد عاش مع اسرته في الدّرعيـة ، في بيت مرتفع عن المدينة ، بعض الشيء . وكانت الخيل هي وجـه الترف الوحيد في حياته ، وكان يملك منها ، في ما يُقال ، نحواً من الفين . والواقع ان اداة الادارة التي انشأها استطاعت ، عـلى بساطتها ، ان توطد دعائم السلامة العامة ، وكانت مفقودة في بلاد العرب منذ قرون . فلم تعد المنازعات القضائية تُحل من طريق اللجوء الى الوسائل الشخصية ، ولكن من طريق قضاة يتناولون رواتبهم من الدّرعية ، ولا يُسمح لهم بان يكلفوا المتقاضين رسوماً مهما تكن . وكانت تبعة العدوان المسلح تلقى على عاتق القبيلة التي يقع الحادث في منطقتهـــا . وبدلاً من طلب الثأر ، أشار سعود بقبول الدية ، التي كانت تُعتبر حتى ذلك الحين شيئاً معيباً ، وكثيراً ما فرضها بالقوة . ليس هذا فحسب . بل إنه ألغى حق القبيـــلة القديم في ان تحول بين المجرم والعقوبة بان تسبغ حمايتها عليـه . ولقد أمر بتطبيق قانون العقوبات تطبيقاً كاملاً ، وفقاً للأحكام القرآنية . كذلك أخـــذ الناسَ بأداء الفروض الدينية في قسوة

بالغة ، وكان الموت جزاء من يُفطر في رمضان ، بعض الاحيان . ولم تعرف إدارته أيما نوع من الابتزاز التحكمي ، فهي تكتفي بجمع الزكاة من المكلفين ، وفقاً للمباديء التي نصّ عليها القرآن . وليس من شك في ان الحملات العسكرية كانت وزراً ثقيلاً يُنقض ظهور المؤمنين ، إذ قد تعيّن على كل منهم ان يتسلح وان يُعدّ مَطيته وزاده من غير ما مقابل غير الأمل في ان يصيب حظاً من الغنيمة . وكانت موارد الدولة تتألف من خُمس الغنائم ، والصدقات (الزكاة) ، وعائدات الممتلكات المصادرة من القبائل والمدن التي ثارت ، من جديد ، بعد إخضاعها . وكانت الصدقات ، المستوفاة من اهل المدن والفلاحين ، تصب في بيت المال وتنفق ، بالاضافة الى اغراضها التي فُرضت لها ، على القضاة والمعلمين ، وفي سبيل انشاء المساجد وحفر الآبار العامة والاشراف عليها . اما الضرائب المستوفاة من البدو فكانت تصب في خزانة الامير الخاصة ، فهو يفيد منها في تغطية نفقاته المنزلية ، وفي سد حاجات حرسه الخاص ايضاً . ولقد قُدرت موارد هذين المصدرين الاجمالية بمليون ونصف طالير من عهد ماري تيريز .

وخلف سعوداً ابنه عبدالله ، وكان هو ايضاً مقاتلا شجاعاً مجرباً ، ولكنه لم يكن برغم ذلك كفؤاً لدفع الخطر المصري الماثل أمامه . والحق ان محمداً علياً انتقم لهزيمة ابنه الاخيرة بما انزله بالوهابيين من هزيمة ، عند بَسَل . بيد أنه غادر ، بعد ذلك ، بلاد العرب الشمالية وهاجم قبائل عَسير في المنطقة الجبلية الموحشة الواقعة في جنوبي تِهامة . فلما تسامع بعض شيوخ البدو ، في

شمالي نجد ، بانتصاراته عرضوا على ابنـــه طوسون ، المرابط في المدينة ، ان يساعدوه على الوهابيين . وعندئذ تقـــدم طوسون لغزو مقاطعة القَصيم ولكن الامير عبدالله فرض عليه ، هناك ، صلحاً تنازل هذا الاخير بموجبه عن المدينتين المقدستين ، ولكنه اشترط ان يجلو المصريون عن نجد ، وان يسلموا اليه الشيوخ الذين خانوه . وأبى محمد علي ان يوافق على هذه المعاهدة ؛ وكان قـــد غادر هو نفسه ، في اثناء ذلك ، بلاد العرب تاركاً متابعة القتال لابنه بالتبني ، إبراهيم [باشا] .

ابراهيم يخضع الوهابيين

وفي آب ، سنة ١٨١٦ ، فَصَلَ ابراهيم من القاهرة ؛ حتى اذا بلغ بلاد العرب هاجم القَصيم من جديد. وتراجع الأمير الوهابي ، في وجـــه خصمه العنيد ، الى عاصمته الدِّرْعِيّة حيث حاصره ابراهيم في نيسان سنة ١٨١٨ . وعلى الرغم من الحصون البدائية المحيطة بالعاصمة فقد اضطر المصريون الى ان يلقوا الحصار عليهـــا طوال الصيف ، بسبب من المسافة الشاسعة التي كانت تفصلهم عن قاعدة عملياتهم العسكرية ، وتجعل أمر تموينهم عسيراً جداً . وفي ٩ ايلول سنة ١٨١٨ استسلم عبدالله ، بعد أن لم يبق حوله غـــير أربعمئة نفر من حرسه الاسْوَد . ولقد لقي حتفه في استانبول على يدي الجلاد . أما مدينة الدرعية فدكت دكاً . ثم ان ابراهيم عين احد الموظفين الاتراك حاكماً على نجد ، وانسحب الى المدينة .

وكان محمد علي أبعد عن التوفيق من مشروعاته الخاصة ببلاد العرب الجنوبية . ذلك أن جميع ما بذل من جهد للاستيلاء على

منطقة عسير ذهب ادراج الرياح ، بعد ان صمد سكان هذه المنطقة للهجمات المصرية ونجحوا في صدها طوال اثني عشر عاماً. (١٨٢٥ – ١٨٣٧). ومع الايام تضاءلت رغبة محمد علي في تلك البلاد بسبب من انهماكه العظيم بأمر علاقاته مع الباب العالي . وفي سنة ١٨٣٩ ، عندما احتل البريطانيون عدن ، اطرح نهائياً جميع خططه في بلاد العرب ، متنازلاً عن المدينتين المقدستين اللتين كلفه احتلالهما ثمناً باهظاً ، للباب العالي ايضاً .

وحتى في نجد لم يعمر الحكم المصري زمناً طويلاً . فقد اجتمع شمل الوهابيين ، من جديد ، حول رجل من أسرتهم كان قد نجا بنفسه في الدرعية ، اعني « تركي » ابن عم عبدالله . وفي الرياض ، غيرَ بعيد من الدرعية ، أسس تركي دولة جديدة ما لبثت ان أزعجت المصريين ازعاجاً كبيراً . صحيح ان تركي صُرع سنة ١٨٣٢ بيد احد المغتصبين ، ولكن ابنه فيصلاً وفق ، بمساعدة قائده عبدالله ابن رشيد ، الى ان يضمن لنفسه خلافة ابيه . وكوفيء عبدالله على صنيعه هذا بأن مُنح الحكم الوراثي على قبيلة شَمّر . وفي سنة ١٨٣٨ وقع فيصل اسيراً في يد القوات المصرية ، فحمل الى مصر . ومهما يكن من أمر ، فقد ساعده خَلَفه ، عباس ، على الهرب ؛ فقاد الوهابيين كرة أخرى ، واكره آخر حاكم مصري على مغادرة البلاد سنة ١٨٤٩ . وبعد وفاة فيصل ، في آخر العقد السابع من القرن التاسع عشر ، نشب النزاع على الأمارة بين اولاده . وهكذا استطاع تابعُهم ، امير شمّر ، ان يتقدمهم ويعلو عليهم . والواقع انه كان على عبدالله بن رشيد ، باديء الأمر ، ان

بوطد دعائم السلطة التي منحه اياها فيصل . حتى إذا تخلص من شيخ شمر وفق الى التمكين لنفسه بفضل تنكبه جادة التعصب الوهابي وجنوحه الى الاعتدال الحكيم ، وبفضل علاقاته الحسنة مع حاكم المدينة التركي . وما لبثت حاضرته حايل ان فاقت الرياض شأناً ، إذ استطاع ان يجذب اليها الحركة التجارية ؛ وما آذن القرن التاسع عشر بالانتهاء حتى كانت هي وحدها الحاضرة الاميرية الهامة في بلاد العرب . وفي سنة ١٨٤٧ خلفه طلال ، ثم خلف هذا الاخير محمد بن رشيد سنة ١٨٧٦ ؛ وفي عهدهما ران الهدوء على المذهب الوهابي . اما في الهند ، حيث كان سيّد احمد « الراي باريلائي » قد سعى الى نشره عقب ادائه فريضة الحج سنة ١٨٢٢ - ١٨٢٣ ، فقد احدث في العقود التالية كثيراً من الاضطراب بسبب من أن أتباعه في مقاطعة الفنجاب واصلوا اعلان الجهاد ضد غير المسلمين . وسنعرض في ما بعد لانبعاث الحركة الوهابية كرة أخرى ، في الجزيرة العربية ، خلال الحرب العالمية الأولى .

إعادة تنظيم الجيش العثماني

منذ حملة ابراهيم المظفرة على سورية ، والسلطان محمود معني في الدرجة الاولى باستعادة هذه الولاية المفقودة . ولم يكن بدٌ ، تحقيقاً لهذا المطلب ، من اعادة تنظيم الجيش العثماني تنظيماً أبعد وأعمق من ذلك الذي جرى عقب نكبة الانكشارية . وكان قد اخفق ، حتى ذلك الحين ، في اكتساب المدربين الاوروبيين بسبب من تنافس الدول العظمى وتحاسدها . حتى اذا كان صيف

سنة ١٨٣٦ وفدَ على استانبول ، في رحلة خاصة ، قائدان بروسيان ، هما فون مولتكه * وفون بَرْج ** فقدّما الى السلطان . وبناء على اقتراح القائد العام (سَر عسكر) الذي فهم منهما أشياء كثيرة منذ الاجتماع الاول ، رغب السلطان الى ملك بروسيا ان يمنح مولتكه اجازة تساعده على الأقامة المديدة في امبراطوريته ؛ ثم ان السلطان اصطحب مولتكه في رحلة قام بها في الروم إيلي . والواقع ان مقترحات مولتكه ، وبخاصة في ما يتصل بنظام التحصينات ، وقعت من نفس السلطان موقعاً حسناً جداً ، حتى لقد رغب الى فردريك وليم الثالث في ان يبعث اليه باربعة مدربين آخرين من ضباط الجيش البيرومي . والحق ان اعادة تنظيم الجيش التي بدأها مولتكه وتابعَها عدد من الضباط البروسيين من بعده ، زادت في قدرة الامبراطورية العثمانية على المقاومة شيئاً كثيراً . فقد أُخضع رئيس الحرس وقائد المدفعية لسلطة وزير الحرب ، وكانا حتى ذلك الحين يتمتعان بمقام مثل مقامه . وقد رافق هذا التنظيم الجديد في الجيش تعديلات مماثلة في مناصب الدولة العليا . ففي سنة ١٨٣٧ ألغي لقب « الصدر الاعظم » موقتاً وأسندت سلطاته الى الـ « باش وكيل » ، الوزير الاول ، الذي كانت اليه ، في الوقت نفسه ، وزارة الداخلية . وفي نوار سنة ١٨٣٨ اتخذ اجراء آخر أبعد مدى : فقد مُنح موظفو الدولة جميعاً رواتب محددة ، بعد ان كانوا من قبل يحصلون على تعويضاتهم من الجمهور مباشرة — في الوظائف الدنيا — ومن مرؤوسيهم ، في

* von Moltke

** von Berg

الوظائف العليا .

هزيمة الاتراك في نصيبين

وعلى الرغم من تحذير الديبلوماسيين الروس والمدربين البروسيين للسلطان محمود فقد التمس ، في غير ما انقطاع ، ذريعة لأعلان الحرب على محمد علي . وكان هذا الاخير قد رفض في شباط سنة ١٨٣٧ ما عرضه السلطان عليه من الولاية الوراثية على مصر وحكم الساحل السوري مدى الحياة مقابل تخليه للدولة عن سورية الداخلية . فلما وافى شهر آب سنة ١٨٣٨ كان الجيش التركي ، بقيادة حافظ باشا ، قد ضرب خيامه في مَلَطْيَة حيث تفشت الحمى وتفشى الزّحار (الديزنطاريا) في الجنود . ومع ذلك فقد وجد السلطان ذريعته المنشودة في مقاطعة قرب مَرْعَش كان المصريون يحتلونها ، في حين كان الباب العالي يعتبرها إحدى ممتلكاته الخاصة . وفي كانون الثاني سنة ١٨٣٩ اصدر السلطان الى قواته أمراً بالزحف ، ولكنه سارع الى الغائه في الحال إثر احتجاج الديبلوماسيين الاوروبيين . بيد ان هذا الالغاء لم يكن نهائياً ، وإنما كان السلطان يترقب حلول الربيع ليجدد أمره بالهجوم في نيسان . وفي غمرة من المصاعب الهائلة اجتاز الجيش التركي طُورُس واحتشد في بِيرَه جِك ، على الضفة اليسرى من الفرات الاعلى . ولم يكد الاتراك يعبرون النهر حتى ثار السكان ، الساخطون منذ زمن طويل على الحكم المصري ، وانحازوا الى جانب السلطان . وكان ابراهيم ، حتى ذلك الحين ، ينتظر مترقباً بسبب من رغبة ابيه في اجتناب كل ما يُظهره بمظهر المعتدي في أعين الدول الاوروبية .

ولم يتلق أمراً بالتقدم إلا في منتصف حزيران ، فانقض على العدو في نَصِيبين ، في الرابع والعشرين من الشهر نفسه . والحق ان الاتراك ثبتوا ثباتاً غير متوقع في وجه الهجوم المباشر الجريء الذي شنه عليهم ابراهيم ولكن حرسهم الفرسان ما لبثوا ان انقضوا فجأة على المصريين ، وفي غير ما نظام ، فأكرهتهم المدفعية على الارتداد ، فوطئوا بسنابك خيلهم جيش المشاة التركي نفسه . وفي الحال فُقد النظام في صفوف الجيش التركي فقداناً كاملاً ، فأطلق الاكراد نيران بنادقهم على ضباطهم انفسهم ، ولم يستطع القائد العام (سر عسكر) ان يدفع عن نفسه غائلة هجوم الثائرين الا في مشقة وعسر . وهنا وقع شيء لم يُسمع مثله في تاريخ الحرب : فقد انضمت فرقٌ بكاملها من الجيش المنتصر الى جانب العدو والتحقت الجيوش المصرية بالفرسان الاتراك ، في جو من الهزيمة والفوضى اختلط فيه الحابل بالنابل . وهكذا كان من المتعذر على ابراهيم ان يفكر في تعقب الاتراك المتراجعين نحو مَرْعَش ومَلَطْية .

ولم يقدّر للسلطان محمود ان يسمع أنباء هذه الكارثة . فقد توفي في ٣٠ حزيران سنة ١٨٣٩ ، بعد حكم دام احدى وثلاثين سنة ، ولم يكن قد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره ولكن إدمان الخمر كان قد هدّ جسمه قبل ذلك بزمن طويل . وعلى الرغم من اخفاقه في السياسة الخارجية إخفاقاً حال أيضاً دون نضج خططه الاصلاحية - ولعلها كانت متسرعة طياشة - فالواقع ان السلطان محموداً سيعدّ دائماً واحداً من أفضل سلاطين بني عثمان . ولقد

اعتبره الاتراك مؤسساً لعهد جديد في تاريخ دولتهم – شأن بطرس الاكبر في الروسيا ، وكان السلطان محمود مولعاً بان يقارن نفسه به - وإن يكن النقـــاد من رجال تركية الفتاة قد أنكروا ذلك عليه .

ورقي العرش بعد محمود ابنه عبدالمجيد وليس له من العمر إلا ستة عشر ربيعاً . حتى اذا جاءت الانباء بهزيمة نصيبين قاد القبودان باشا ، فوزي باشا ، بمساعدة الاميرال الفرنسي لالاند* ، الاسطولَ العثماني الى الاسكندرية ، وذلك بسبب من كراهية فوزي باشا لخسرو ، الصـدر الأعظم (وكان هذا المنصب قد استُحدِث إثر وفاة السلطان محمود) . وكان محمد علي يعلل النفس ، منذ أمد طويل ، بأن ينهض بحكم الامبراطورية كلها بوصفه قهرمان السلطان ، فبدت له الفرصة سانحة الآن ، لانفاذ هذه الخطة . وهكذا اصدر امره بإقامة الأفراح ، في جميع الولايات الخاضعة له ، ابتهاجاً بارتقاء السلطان الشاب عرش الامبراطورية ، وشرع يسمي نفسه دائماً اخلص خدام السلطان . ليس هذا فحسب ، بل لقد دعا القواد الاتراك الى ان ينضموا اليه للعمل في خدمة السلطان ضد الصدر الاعظم والروس . ولكن مكائده لم تقترن بالنجاح ، بعد ان عارضت الدول الاوروبية ، خلا فرنسة ، سياسته هذه ، وبعد ان غلّت المصاعب الداخلية يديه . وكانت مصر قد عجزت عن مد جيشه بعناصر جديدة إثر تلك التعبئات العسكرية التي اصطُنعت فيها القسوة البالغة ، خلال السنوات السالفة ، في حين

---

* Lalande

كانت سورية بأسرها تترقب هزيمة تحل به لتشق عصا الطاعة عليه. وكانت خزانته تشكو تناقصاً ذا بال، ولقد شن غزوة على السودان ابتغاء مَلئها، ولكنها انتهت الى إخفاق ذريع.

عبد المجيد الأول يصدر «خطاً شريفاً»

وكان وزير الخارجية التركية، رشيد باشا، قد ترك - في هذه الاثناء - منصبه كسفير فوق العادة في لندن وعاد الى استانبول. وهناك، في لندن، أعجب رشيد باشا باسلوب الحكم الدستوري البرلماني وصار من اشد الدعاة له حماسة. فعزم على ان يرتفع بتركية الى مَصَفّ الدول المتقدمة، من طريق دستور ينص بلغة العصر على حقوق المواطنين الأساسية ويعلن الغاء المساوىء الاكثر بروزاً في ادارة الدولة، وهكذا يكتسب عطف انكلترة وفرنسة، ويأمن على تركية من عدوان الروسيا ذات الحكم المطلق، ويسمو - بصورة خاصة - على محمد علي، في نظر الرأي العام الاوروبي. وفي سهولة ويسر استطاع رشيد باشا ان يضمن لخطته هذه تأييد السلطان الشاب الذي اخذته سَورة من الخيلاء إذ شعر انه يستطيع ان يظهر بمظهر منقذ وطني في اعين الدول الاوروبية جميعاً؛ ومن ثم أعدت وثيقة الدستور في كتمان كلي. حتى اذا وافى اليوم الثالث من تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ دعي اقطاب الباب العالي جميعاً وممثلو اهالي استانبول العثمانيين وممثلو «رعايا» الدولة في اوروبة واعضاء السلك الديبلوماسي، الى الكشك القائم الى الجهة الجنوبية من السراية على بحر مرمرا ليسمعوا تلاوة الخط الشريف المشهور باسم «كُلْخانه».

والواقع ان هذه الوثيقة خلت من ايما فكرة جديدة لم يسعَ السلطان محمود جهده الى تطبيقها عملياً. ولقد كان للاعتبار المزدوج القاضي باسترضاء مشاعر الأمة الاسلامية واكتساب عطف النصارى أثره في ما انساق اليه واضع الوثيقة من تناقض يتمثل في تمجيده السنن الاسلامية القديمة بوصفها السبيل الصحيح الى انقاذ الدولة، ثم في إشارته — رغم ذلك - بضرورة الأخذ بالدساتير الحديثة ابتغاء القضاء على المساوىء الناشئة عن مخالفة تلك السنن والاخلال بها. ووعد السلطان، في هذه الوثيقة، جميع رعاياه، على اختلاف اجناسهم واديانهم، بصيانة أرواحهم، وشرفهم، وممتلكاتهم، وبتوزيع نزيه وعادل للضرائب؛ في حين وعد المسلمين على الخصوص بتعديل الخدمة العسكرية وبقصر مدة الخدمة على اربع سنوات او خمس. ليس هذا فحسب، بل لقد الغت الوثيقة الغاء تاماً ثلاثة من مساوىء العهد السابق كانت تُعتبر ظالمة بشكل خاص، وكانت لا تنفك تُطلع رأسها رغم اعلانها لاغية منذ طويل، وهي الاحتكارات والمصادرات وتضمين جباية الضرائب في الولايات لمن يمهرها بالثمن الأعلى. أما عقوبة الموت فقد جُعلت رهناً بالحكم الصادر بعد تحقيق قانوني.

ولم يقنع الوزير الطموح، رشيد باشا، بما اغدقته عليه الصحافة الاوروبية من مديح، اثر قيامه بضربته المسرحية هذه، كما نعتها السفير الروسي. لقد رأى انه يتعين عليه ان يُظهر للعالم أفكاره التحررية من طريق دعمها بتمثيل شعبي. غير انه لم يكن من الممكن، طبعاً، ان يُترك أمر انتخاب النواب الى الشعب

غير المستعد إطلاقاً لهذه المهمة . وإذاً فقد كان على الحكومة ان تختار هؤلاء الممثلين . والواقع ان هؤلاء النواب المعينين استجابوا لخطاب العرش الذي القاه السلطان ، على الطريقة البريطانية ، بخطاب شكر وعرفان للجميل ، ثم سُرحوا بإحسان .

والحق ان السخرية المريرة التي جناها الباب العالي من هذا الاستغلال السمج لسذاجة الرأي العام الاوروبي أوقعت في نفس السلطان وحكومته الخوف من أيما إعادة لتمثيل المهزلة .

التحالف الرباعي وخروج ابراهيم من سورية

وفي هذه الأثناء كانت الدول الاوروبية قد انقذت السلطان من القلق الذي كان يساوره من طموح تابعه المصري العنيد . فبينا كانت فرنسة تتطلع الى ان تفرض على مصر ضرباً من الحماية ابتغاء التمكين لنفسها في بلاد الجزائر الخاضعة لاستعمارها ، كان اللورد بالمرستون * يخشى على طريق الهند من أيّما دولة قد يتم لها توحيد سورية ومصر ، ومن هنا حمل الدول الاربع الكبرى على القيام بعمل مشترك ضد محمد علي . وبناء على اقتراح النمسا ، عُقد في لندن ، شباط سنة ١٨٤٠ ، مؤتمر لدرس المسألة المصرية . ولقد عارضت فرنسة الاقتراح البريطاني القاضي بان لا يُترك لمحمد علي غير فلسطين بالاضافة الى الحكم الوراثي على مصر . حتى اذا تدخلت وزارة تيير** ، التي تولت الاحكام بباريس ، في ٢ آذار سنة ١٨٤٠ ، لمصلحة محميها [محمد علي] ، وكأنّ مصير تركية كلها

* Palmerston

** Thiers

منوط بارادتها ، وُفق الديبلوماسيون الروس الى نسف التجانس الذي كان يسود، حتى ذلك الحين، العلاقات بين فرنسة وبريطانية. ففي غرة تموز سنة ١٨٤٠ عقدت بريطانية مع الروسيا واثنتين من الدول الالمانية ما يعرف بالتحالف الرباعي . وبموجبه تعهدت هذه الدول بان تدافع عن وحدة اراضي الدولة العثمانية ، وان تُكره محمداً علياً ، بقوة السلاح عند الحاجة ، على التخلي عن سورية ، على ان يحتفظ بفلسطين وحدها، ولكن باستثناء عكا. حتى اذا اخفقت المفاوضات التي حاول الباب العالي القيام بهـــا في الاسكندرية ، كرة اخرى ، أعلن السلطان محمداً علياً عدواً للدولة ؛ ولذا فقد خسر منصبه وفقد ما يلزم عن ذلك من حقوق واحترام. وهكذا اجتمعت على الشاطيء السوري وَحدات الاساطيل الحليفـة في البحر المتوسط ،وعدّتها اثنتان وعشرون سفينة حربية كبيرة ، ضم اليها الباب العالي بارجتين اثنتين وعدداً من بواخر النقل يُقل ستة آلاف من جيوش البر . وإنما كان الهدف من هـــذا الحشد البحري شن هجوم على ابراهيم . فلم يكد الاسطول الحليف يبلغ ثغر بيروت حتى اعلن موارنة لبنان الثورة من جـديد ، وكانوا قد ثاروا قبل ذلك فردّهم ابراهيم الى طاعته . فلما وطيء الحلفـاء اليابسة ، في جونية ، الباعدة بضع ساعات الى شمـــالي بيروت ، اندفع الموارنة زرافات زرافات نحو الشاطىء ليستولوا على البنادق التي حملها الحلفاء اليهم . ولكن القائد البريطاني، سميث * ، اكتفى بتطويق بيروت ؛ وهكذا وفّق سليمان باشا ، قائد الجـــامية في

* Smith

المدينة ، الى ان ينجو بنفسه ، في تشرين الأول ، بعد أن نفدت المؤن ، ليلتحق بجيش ابراهيم ، في بعلبك، وكانت معنويات جنوده قد انحطت ، على كل حال ، انحطاطاً تامّاً .

وفي تشرين الثاني القى السير تشارلز نابير * الحصار على عكا ، وهي الحصن الشهير الذي استطاع ان يثبت ، ببسالة ، في وجه نابليون إثر انسحابه من مصر سنة ١٧٩٩ ، وفي وجه حملة الباب العالي التأديبية سنة ١٨٢٢ ، وذلك على عهد عبد الله [باشا] ، ثم في وجه ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ ، والذي سبق لمحمد عليّ ان انفق اموالاً طائلة في سبيل إتمام تحصينه . وبعد اربع ساعات من إطلاق النار إطلاقاً لا يبقي ولا يذر انفجر خلاله مخزن البارود فقضى على حياة رُبع رجال الحامية ، التمس الباقون وسيلة الى النجاة بأنفسهم ، ولكنهم وقعوا في الأسر بعد معركة دامية سقطت على إثرها المدينة الحصينة في أيدي الفاتحين . ولم تكد هذه الأنباء تبلغ مسامع ابراهيم حتى انقلب الى دمشق حيث استولى على اربعين مليون غرش أخرى ثم لاذ بالفرار الى مصر، تاركاً للثائرين غنيمة باردة من الأسلحة والمؤن .

وفي النصف الثاني من تشرين الثاني بلغ السير تشارلز نابير واسطوله مياه الاسكندرية واكره محمداً علياً على توقيع اتفاق تعهّد فيه باعادة الاسطول العثماني الى الباب العالي وبالجلاء عن سورية . ولقد وعده الاميرال، مقابل ذلك، بان يضمن له حكم مصر حكماً وراثياً . وبعد ان أسلم محمد علي مصيره لرحمة السلطان، في رسالة

* Sir Charles Napier

بعث بها الى الصدر الأعظم ، وسلّم الاسطول العثماني الى الدولة ، حُـــدّد وضعه الدستوري في مصر ، من جديد ، بمساعدة الدول الاوروبية . فقـــد تعيّن عليه ان يدفع الى الدولة جزية سنوية مقدارها ثلاثون مليون غرش ، وان يَقصُر جيشه على ثمانية عشر الف رجل ، كما تعيّن عليه ان يترك للسلطان تعيين كبار موظفي حكومته ، وان يطبق في بلاده القوانين والضرائب نفسها المعمول بها في سائر اجزاء الامبراطورية ، وان يعترف بان المعاهدات التي عقدها الباب العالي مع الدول الاجنبية مُلزمة لمصر ايضاً . أما ما مُنحه السلطان ، اول الامر ، من حق اختيار خلفٍ لمحمد علي من بين ابنائه الباقين بعده على قيد الحياة فقد استعيض عنه ، في مؤتمر لندن ، بحق انتقال الحكم انتقالاً وراثياً الى اكبر ابناء محمد علي سناً .

اعادة تنظيم سورية : الموارنة والدروز

وهكذا وقع عبء اقرار الأمن والنظام في سورية على عاتق الباب العـالي ، وهو عبء زادته الحرب ثقلاً على ثقل . وتفصيل ذلك ان امراء وطنيين من أُسَر تَنُوخ ومَعْن وشِهاب كانوا قد استقروا في لبنان ، منذ قرون . وبالطريقة نفسها التي سبق لمحمود ان اصطنعها لكسر شوكة الزعماء (امراء الوادي) في آسية الصغرى حاول الباب العالي الآن ان يخضع لبنـــان ، مباشرة ، لسلطة الوالي العثماني في تلك المنطقة . وكان الأمير بشير ، الذي أسلمَ البلاد يوماً الى ابراهيم ، قد فرّ الى مالطة ، في تشرين الاول سنة ١٨٤٠ على متن سفينة حربية بريطانية ؛ وكان ابنه الاكبر ضعيف العقل ، في حين كان ابنه الاصغر غير كفءٍ لخلافته . ولكن فرنسة التي

كانت قد ادّعت ان لها حق الحماية على نصارى الشرق ، وبالتالي على الموارنة ، لم تكن مستعدة للموافقة على تلاشي إمارة مسيحية من غير ان تحرك ساكناً . ونزولاً عند ضغط الدول ، عين الباب العالي احد المتقدمين في السن من ابناء اخي الامير بشير حاكماً ، ولكنه حرّك الدروز في الوقت نفسه الى الثورة ، مما اقتضى احتلال لبنان كله احتلالاً عسكريا . حتى اذا رفع النصارى صوتهم بالشكوى عيّن الباب العالي لجنة اكرهت الاهلين على ان يرفعوا الى السلطان عريضة يلتمسون منه فيها انشاء إدارة تركية في البلاد . وفي آب سنة ١٨٤٢ قرّرت الدول تقسيم لبنان الى منطقتين اداريتين يحكم إحداهما عينٌ من اعيان الدروز ويحكم الاخرى عين من اعيان الموارنة ، يحمل كل منهما لقب «قائم مقام». اما في المناطق المختلطة ، من مثل منطقة المتن الهامة الواقعة على طريق دمشق ، حيث كانت اكثرية مارونية تعيش في ظل المشايخ الدروز ، فقد توجّب على كل قائم مقام ان يعين نائباً عنه . واذ كانت الدول ما تزال تُلح على ان يدفع الدروز التعويضات عن الخسائر الناشئة عن ثورة ١٨٤٢ فقد اندلعت نار الحرب الاهلية ، من جديد ، في نوار سنة ١٨٤٥ . عندئذ عمد الباب العالي الى نزع السلاح من الفريقين ، وأقام الى جانب كل قائم مقام مجلساً يتمتع بصلاحيات ادارية وقضائية ، ويتألف من ممثلين عن مختلف طبقات الشعب .

ومات محمد علي سنة ١٨٤٨ ؛ واذ كان ابراهيم قد توفي قبله بثمانية اشهر ، فقد خلفه ابنه عباس باشا ، وكان مسلماً متعصباً

يزدري التربية الاوروبية ازدراء بعيداً . ولم يكد يرتقي العرش حتى وُضع المشروع القاضي بشق قناة تصل ما بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . واذ كان اصحاب رؤوس الاموال الفرنسيون يبدون اهتماماً بهذا المشروع فقد عارضه البريطانيون وروّجوا لمشروع مضادّ يقضي بمد خط حديدي عبر برزخ السويس، وقد بدىء في انشائه فعلياً سنة ١٨٥١ .

مسألة الأماكن المقدسة النصرانية

ومهما يكن من شيء ، فالحق ان مسألة المواصلات هذه ، التي انتهت بعدُ الى ان تكون ذات أهمية عظمى بالنسبة الى العالم كله ، لم تكن هي التي قررت مصير الشرق في السنوات التالية . إنما الذي قرر مصيره مسألة أخرى كان الباب العالي يعتبرها تافهة ، ولكنها قدمت الى الدول الاوروبية ذريعة لفرض سيطرتها على الشرق ، أعني مسألة الأماكن المقدسة الشهيرة . وتفصيل ذلك ان منطقة القدس وما جاورها ، التي يقدسها النصارى لما تحفل به من ذكريات عن حياة يسوع والرسل ، كانت منذ الحروب الصليبية ملكاً مشتركاً للطوائف النصرانية الست : اللاتين (اتباع الكنيسة الرومانية) ، والروم الارثوذكس ، والارمن ، والسُريان ، والأقباط ، والأحباش . وكانت الكنائس الثلاث الاخيرة قد دخلت ، بسبب من ضعفها ، تحت حماية الارمن الذين لم يكن للباب العالي غنى عنهم بوصفهم القوة المالية في الشرق . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الكنيسة الارثوذكسية أسمى هذه الكنائس رتبة بوصفها ممثلة لعشرة ملايين من رعايا السلطان

الارثوذكس ، وبفضل حماية الروسيا لهـــا ايضاً . وكان رجال الاكليروس اللاتيني ، ومعظمهم من أصل اسباني وايطـــالي ، يتمتعون بامتيازات اجنبيـة وبحماية وزارة الخارجية الفرنسية . والواقع ان هذه الطوائف المختلفة قد توارثت حقوقها جيلاً بعـد جيل تبعاً للعرف والعادة لا استناداً الى وثائق مدونة ؛ ولم تكن هـــذه الحقوق ، على اية حال ، محددة بعضها بالنسبة الى بعضها الآخر ، تحديداً واضحاً ، ومن هنا فكثيراً ما احتكمت الطوائف النصرانية الى السلطات الاسلامية المحلية . وفي كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وكانت ملكاً مشتركاً بين جميع الطوائف ، لم يكن من النادر ان تنشب اعمال العنف والقتال بين رجال الدين ، وكان عددهم يتميز بالوفرة بقدر ما كانت مهامهم تتميز بالضآلة ، حتى لقد كان الحرس التركي يحفظ النظام والامن في القبر المقدس ، طوال ايام عيد الفصح .

وفي صيف سنة ١٨٤٧ فقدت في كنيسة المهد في بيت لحم نجمة مزخرفة بالنقوش الفضية كانت معلقـــة فوق مسقط رأس المخلص ؛ فاتهم الارثوذكس بنزعها ، ولكن السلطات التي كلفت التحقيق لم تستطع ان تقطع برأي ، في هـذا الحادث . وفي سنة ١٨٤٩ ، عندما تسرب النفوذ الاكليركي كرة أخرى الى الحكومة الفرنسية ، اتخذت هذه الحكومة من ذلك الحادث ذريعة لمقاومة النفوذ الروسي في الشرق . وهكذا أمر سفيرها في استانبول بان يطالب ، استناداً الى امتياز ممنوح سنة ١٧٤٠ ، بتوسيع حقوق اللاتين التقليدية توسيعاً كبيراً . ولكن الروسيا تهددت الباب

العالي بقطع العلاقات الديبلوماسية إذا ما ادخل أيما تعديل على الوضع الراهن في الاماكن المقدسة . وبعد مفاوضات واجتماعات لجان تطاولت نحواً من سنتين قرر السلطان إبقاء القديم على قدمه في القدس ، على ان يُعطى اللاتين المفاتيح الثلاثة الخاصة بالابواب الرئيسية لكنيسة العذراء وبالسراديب القائمة تحت كنيسة المهد ، في بيت لحم . ومهما يكن من شيء فقد ظل مفتاح المدخل الرئيسي الى كنيسة المهد من جهة الغرب في غير حوزة اللاتين ، ومع ذلك فقد اضطر السفير الفرنسي إلى ان يعلن ارتياحه لهذا الامتياز السخيف ، وهو الذي قام وقعد ، قبيل ذلك ، منذراً بالويل والثبور لأن كرامة امبراطوره قد امتهنت . ولكن الروسيا وطنت العزم على استغلال هذه الفرصة للقضاء على نفوذ عدوتها السياسي في الشرق . فاحتالت لحمل الباب العالي على ان يوعز الى متصرف القدس بأن يوضح للاتين ، لدن تسليمهم المفاتيح ، ان هذا الاجراء لا يُفيد أن لهم الحق في الدخول من الابواب . ليس هذا فحسب . بل لقد اصدر السلطان امره ايضاً بتدوين جميع حقوق الأرثوذكس في الاماكن المقدسة في سجلات محاكم المدينة واعتبار كل مطلب آخر من مطالب اللاتين باطلاً . حتى اذا مرت فرنسة بهذا التحدي ايضاً ، مرّاً هادئاً ، طالب القنصل الروسي العام في فلسطين بأن يُتلى فرمان الباب العالي الجديد ، في القدس ، علانيةً . ولقد احتج السفير الفرنسي على هذا ، وتهدد الدولة بالقاء الحصار على الدردنيل اذا ما نزلت بعد اليوم عند إرادة الروسيا . حتى اذا تجاهلت الدولة هذا الانذار واذعنت

لمطالب الروسيا لم تجرؤ فرنسة، هذه المرة ايضاً، على ان تصنع شيئاً.

ثم ان مشكلة جديدة نشأت عن قضية الجبل الاسود. وتفصيل ذلك ان الباب العالي كان يعتبر سكان الجبل الاسود جزءاً من الـ « روم مِلّتي »، على الرغم من انه لم يقم بأيّما جهد لاخضاعهم رسمياً. والواقع انهم كانوا يُحكمون، منذ القرن السابع عشر، من قِبل كهان يحملون لقب « متروبوليت » الاكليركي، وان كان افراد الشعب يدعونهم « ولاديكا » * فحسب، ومعناها الحاكم. حتى اذا توفي الولاديكا بطرس الثاني، في تشرين الاول سنة ١٨٥٢ اطرح ابن اخيه وخلفهُ، دانيلو **، الرئاسة الاكليركية وشرع يحكم البلاد كمؤسس لسلالة وراثية مستقلة. ولقد اعتبر الباب العالي هذا الصنيع، وكان على حق في ذلك، ثورة عليه، فوجه ابرع قواده، عمر باشا، لاخمادهـــا. ووقف رعايا النمسا من صقالبة الجنوب — وكانت حكومة فينّا مدينة لهم بمسلكهم خلال الثورة المجرية — الى جانب ابناء عمومتهم؛ ولقد وجـــه الامبراطور، نزولاً عند طلبهم، رسولاً فوق العادة الى استانبول ابتغاء حمل السلطان على التساهل. واستشعرت الروسيا انها ملزمة بان تتدخل في هذه المسألة. والواقع ان رسولها فوق العادة، مَنشيكوف ***، الذي لم يصل الى استانبول الا بعد حل قضيـــة الجبل الاسود، سلك في استانبول مسلكاً متهوراً حمل فؤاد باشا على الاستقالة من

---

* Vladika

** Danilo

*** Menshikoff

وزارة الخارجية . فطالب منشيكوف الباب العالي بتسوية مسألة الاماكن المقدسة من طريق معاهدة خاصة مع الروسيا ، وبأن يعترف بالبطريرك الارثوذكسي رئيساً روحياً مستقلا .

حرب القرم

ولكن الباب العالي أبى ان يقر هذه المطالب المتعذرة ، فلم يكن من السفير الا ان غادر استانبول . وفي ٢٦ حزيران وجه القيصر نيقولا الى شعبه البيان الشهير الذي أعلن فيه ان الرسالة التي تضطلع بها الروسيا منذ القدم ، وهي الدفاع عن العقيـــدة الارثوذكسية ، قد اضطرته – بعد ان تدخل الباب العالي في حقوق الكنائس الشرقية – الى ان يبعث بجيوشه الى امارات الدانوب ، لا لكي تشهر حرباً ، ولكن لكي تحصل على ضمانة لاعادة هـذه الحقوق السليبة . وبعد اسبوع عبرت الجيوش الروسية نهر البروت . وفي استانبول انبعثت الروح العسكرية القديمة ، في الحال . حتى اذا اخفقت محاولة التوسط من جانب الدول الكبرى ابحرت عمارة بحرية فرنسية واخرى بريطانية الى بحر مرمرا ، ليستقبل السكان المسلمون رجالها ، كحلفاء ، استقبالا حماسياً . وفي ٤ تشرين الاول اعلن الباب العالي الحرب على الروسيا ، وبعد اسبوعين عبرت جيوشه نهر الدانوب ، بقيـــادة عمر باشا ، ولكنها اضطرت وشيكا الى النكوص على اعقابها . واضطر الاتراك ، حتى في ما وراء القوقاز (القبق) ، الى ان يتراجعوا الى قَرْص * ، اعظم الحصون في إرمينية التركية ، على الرغم من انهم استولوا قبل ذلك على حصن

* وجاءت ايضاً : القارص (بكسر الراء). [المعربان]

روسي يقع على البحر الاسود . ولم تنقطع الدول الغربية ، خلال ذلك ، عن التوسط لحل الخلاف ، ولم تبعث باساطيلها الى البحر الاسود الا بعد ان دمر الروس عمارة تركية في مرسى سِينوب . وفي ربيع سنة ١٨٥٤ قام الروس بتقدم جديد عبر الدانوب ، ولكن قلعة سِلِسْتِرَه ما لبثت ان وضعت حداً لتقدمهم . حتى اذا طالبت پروسيا والنمسا نفسُها بالجلاء عن مقاطعات الدانوب ، وشرع الاتحاد الجرماني في حشد جيوشه على الحدود الغاليسية ، اضطرت الروسيا الى الاذعان والتراجع . وفي تلك الاثناء كانت الدول الغربية قد حشدت هي ايضاً ، قوىً برية في استانبول هاجمت بها الروسيا في شبه جزيرة القِرَم (ايلول سنة ١٨٥٤) . وفي العشرين من الشهر نفسه مُنيَ الروس بهزيمة قاصمة عند نهر ألْما . ومهما يكن من شيء فقد صمدت قلعة سِباسْتوپول حتى ٨ ايلول سنة ١٨٥٥ . اما في القبق (القوقاز) فقد كانت كفة الروس هي الراجحة ، على الرغم من ان رعاياهم من المسلمين ، اللاز (يقودهم بطلهم الوطني الشهير شامِل) والأبْخاز والجركس شقوا عصا الطاعة عليهم . وفي ٢٨ تشرين الثاني سقطت قَرْص في ايديهم ، بعد حصار متطاول .

محاولة جديدة في سبيل الاصلاح

ولكي تضمن الدول الغربية استمرار السلام في المستقبل – وكانت المفاوضة ما تزال قائمة لعقد معاهدة الصلح – ولكي تقطع على الروسيا في الوقت نفسه سبيل التدخل كرة اخرى في شؤون الباب العالي الداخلية ، فقد أصرت على ضرورة القيام

بأصلاح جديد في استانبول . وهكذا أصدر السلطان، تحت ضغط هذه الدول ، منشور اصلاح ثانياً عُرف باسم « خط همايون » (غرّة شباط) ؛ وقد اكد السلطان في هذا المنشور الحقوق التي مُنحها رعايا الدولة في الخط الشريف المعروف بـ « كلخانه » . وبموجب هذه الوثيقة لم تبق المسائل المدنية الخاصة بالشعوب النصرانية منوطة برجال الدين دون غيرهم ، شأنها من قبل ، بل عهد في إدارتها الى مجلس مختلط من المدنيين والاكليركيين ينتخبه الشعب بنفسه . واطّرحت نعوت التحقير التي كانت حتى ذلك الحين تُصطنع في خطب الجمعة ضد النصارى من رعايا السلطان . ليس هذا فحسب ، بل لم يعد من الممكن إكراه المسلمين الذين يعتنقون النصرانية على الارتداد ، كما كانت الحال من قبل . وفُتحت ابواب الانتساب الى معاهد التعليم الرسمية ، وبالتالي الى وظائف الدولة المدنية ، في وجه النصارى . وفرضت الخدمة العسكرية عليهم ايضاً ، وكانت من قبل امتيازاً خاصاً بالمسلمين ، ولكنهم مُنحوا حرية دفع البدل العسكري ، ووعدوا بان يمثلوا تمثيلاً اكثر فعالية من ذي قبل ، في مجالس الولايات والمجالس المحلية . وسمح للاجانب بامتلاك الاراضي ، على شروط معينة . واخيراً وعد السلطان بوضع نظام للضرائب يكون اقرب الى العدل ، وبوضع ميزانية سنوية ، وبقطع دابر الرشوة على اختلاف صورها .

ولم تتقبل الرعية هذا المنشور الجديد بمثل الحماسة التي تقبلت بها الخط الشريف الكلخاني في الماضي . فأما المسلمون فقد ساءهم

ان يفقدوا امتيازاتهم القديمة ؛ واما النصارى فلم يتوقعوا فوائد عملية من القوانين الجديدة ، بعد ان أفقدتهم التجارب المخزنة الثقةَ بوعود الحكام . أضف الى ذلك ان مضامين المنشور كانت محل ريبة عند المسلمين والنصارى على السواء لأن نسبتها الى الحكومات الاوروبية لم تكن لتخفى عليهم جميعاً .

معاهدة باريس

حتى إذا اعتبر الديبلوماسيون أنهم قاموا بواجبهم في استانبول انتقلوا الى المفاوضة الجدية في معاهدة الصلح التي عقدت بعد في مؤتمر باريس ، في آذار سنة ١٨٥٦ . وقضت هذه المعاهدة بان تنسحب جيوش كلٍّ من الفريقين من الاراضي التي احتلتها خلال حرب القرم . وضمنت الدول استقلال الامبراطورية العثمانية وأجازت لها ، بوصفها عضواً في مجموعة الدول الاوروبية ، ان تتمتع بجميع امتيازات القانون الدولي . ليس هذا فحسب بل لقد قضت المعاهدة بان يظل الدردنيل موصداً ، شأنه من قبل ، وبان يصبح البحر الاسود منطقة حياد . اما الملاحة في الدانوب فقد نصت المعاهدة على ان تنظم تنظيماً حراً بأشراف لجنة خاصة . وتعهد الباب العالي بأن يمنح كلًا من البُغْدان والأفلاق إدارة أهلية مستقلة وان يضمن لسكانهما حرية العبادة ، والتشريع ، والتجارة ، والملاحة كاملة غير منقوصة . وكان على السلطان ان يمنح الحريات نفسها بلادَ الصرب على ان تظل هذه خاضعة للباب العالي ، وعلى ان يحتفظ الباب العالي بحقه في وضع حاميات عسكرية في بعض القلاع الصربية .

وبعد اربع سنوات من صلح باريس وجدت الدول الاوروبية فرصة جديدة للتدخل في شؤون الامبراطورية العثمانية الداخلية . ذلك بأن نظام الحكم الثنائي الذي أُنشيء في لبنان ساعد على قيام حالة من الخلاف المتواصل بين الدروز والموارنة ، خاصة وان الأتراك المتعصبين الذين وجدوا انفسهم هناك في نجوة من رقابة الديبلوماسيين الاوروبيين الدائمة ، كانوا ينفسون عن بغضهم للنصارى من طريق إثارة الدروز عليهم . وفي نوار سنة ١٨٦٠ اندلعت نار الحرب الأهلية كرة اخرى ، وطغت على البلاد موجة من التقتيل والنهب دامت حتى شهر تموز ، بسببٍ من ان الجند الذين لم تُدفع لهم ارزاقهم منذ اشهر احجموا عن التدخل . وفقدَ ثلاثون الف نصراني ونيف حياتهم في هذه الفظائع ؛ وكان للمثل السيء الذي ضربه ابناء الجبل أثره في نفوس المتعصبين من ابناء السهول ، فبدأت في دمشق حركة اضطهاد ديني كادت تأتي على المسيحيين جميعاً لولا ان انبرى الامير عبدالقادر [الجزائري] الذي اشتهر في حروب التحرر الجزائرية من النير الفرنسي والذي كان منفياً في دمشق - الى انقاذ كثير منهم ، يساعده اولاده ونفر قليل من الرجال . وكان لهذه الوحشية صدى استنكار بالغ في اوروبة حتى لقد رأى الباب العالي أن من الخير ان يوجّه فؤاداً باشا ، مزوداً بسلطات مطلقة ، لمعاقبة الجناة . وأرسلت فرنسة ايضاً ستة آلاف جندي الى سورية ، في حين اكتفت الدول الاخرى بالقيام بمراجعات ديبلوماسية . وفي لبنان ودمشق اصدر القضاء أحكاماً

شديدة القسوة . ومهما يكن من شيء ، فقد وجد الدروز تأييداً عند الانكليز الذين كانوا في حاجة اليهم كقوة يلقونها في الكفة الاخرى من ميزان التنافس الدولي ، في لبنان ، بعد ان شملت فرنسة النصارى بحمايتها . والواقع ان الاحتجاج البريطاني حال دون مواصلة حملة الاعدام التي كانت قد شنت على زعماء الدروز . وأُبعد ٢٤٩١ درزياً الى طرابلس ولكنهم ما لبثوا ان أُمنحوا ، بعد خمس سنوات ، حرية العودة الى ديارهم .

السلطان عبد العزيز

وتوفي السلطان عبد المجيد في ٢٥ حزيران ، سنة ١٨٦١ . فخلفه اخوه عبدالعزيز وكان حتى ذلك الحين اسيراً في بيت أمه ، فهو لا يتصل الا بالدراويش ومفسري القرآن . وكان هؤلاء قد حشوا دماغه باحلام خيالية عن عظمة السلطان الدينية وقوته الدولية . والحق انه استهل حكمه بأحسن النيات ، فألغى «الحريم» الذي كان لسلفه واعلن رغبته في الاكتفاء بزوجة واحدة ، واختصر جميع النفقات في بلاطه . ولكن استانبول كلها كانت تفيد من النفقات الخاصة بالحريم . وهكذا كان من المتعذر عليه ان يعارض التيار ؛ وما هي الا فترة قصيرة حتى انقلب السلطان الجديد الى فاسق خالع العذار . أضف الى ذلك ان عبد العزيز وجد نفسه ، منذ توليه العرش ، في ضيق مالي عظيم ، فقد خلّف أسلافه وراءهم ديناً مقداره ١٥ مليون جنيه استرليني ؛ وفي سنة ١٨٦١ كان العجز قد بلغ ٤٥٠ مليون غرش ، اي ما يعادل ١٠٣ ملايين فرنك . وفي السنة التالية وفق الباب العالي الى عقد قرض مع

بريطانية قيمته ستة ملايين جنيه استرليني ، ولكنه اضطر ، مقابل ذلك، الى ان يوافق على تعيين مفوض بريطاني مهمته مراقبة الوجوه التي تُنفق فيها اموال القرض . وبعد برهة وجيزة ارتضى السلطان تعيين ممثلين ماليين لسائر الدول العظمى . وبناء على اقتراح هؤلاء الممثلين أُنشيء [في استانبول] ديوان للمحاسبة وبنـــك للدولة ، ولكن هاتين المؤسستين لم تستطيعا ، على أية حال ، إصلاح المالية العثمانية اصلاحاً كبيراً لافتقارهما الى الموظفين الاكفاء .

نشوء دولة رومانيا

وفي عهد عبد العزيز فقدت الامبراطورية العثمانيـة ، نهائياً ، مقاطعة من أهم مقاطعاتها واغلاها . وتفصيل ذلك ان الباب العالي كان قد عين ، في تموز سنة ١٨٥٦ ، وفقاً لمعاهدة باريس ، النبيل بالش * والنبيل غيكا ** قائم مقامين في البغدان والأفلاق . وما هي الا ثمانيـــة اشهر حتى توفي بالش ، فحل محله وزير ماليته ، ڤوكوريدِس *** ، نجل امير ساموس السابق . وقد أنيط درس الدستور الاساسي الخاص بالامارتين بجمعية تشريعية انتخبت لهذا الغرض . وفي آخر كانون الاول سنة ١٨٥٨ انتخبت هذه الجمعية الكولونيل كوزا **** رئيساً للبُغدان ليُعترف به بعد ذلك بقليل في الافلاق ايضاً . ولكن كوزا بدد موارد البلاد على بطانة من المقربين والحظايا لم يُسمع بمثلها حتى في الاخبار المروية

Balsh *

Ghika **

Vogorides ***

Cuza ****

عن ملوك الشرق القدماء. والواقع ان مستشاره ذا القدرة الكلية، واسمه لايبرخت * كان ساقياً في احد مقاهي أوسْتند، فاذا به يصبح مديراً لشؤون البريد والبرق في الحكومة الجديدة. وفي شباط سنة ١٨٦٦ أكره كوزا على الاستقالة اثر مؤامرة دبّرت ضده. ولقد وفقت الحكومة الموقتة الى ان تكسب للعرش الشاغر الامير الشاب كارول فون هُوهَنْزُلَّرْنْ **. وفي ١٣ نوار أعلن المجلس النيابي اتحاد الامارتين وملكية كارول الوراثية. ولقد قدر لرومانيا ان تخطو، في ظله، خطوات واسعة في سبيل التقدم والرقي.

قناة السويس

وفي مصر كان عباس باشا الذي تكشّف عن طاغية تنقصه الكفاية والمقدرة قد توفي، في تموز سنة ١٨٥٤، بسبب من سُم دُس له، في اغلب الظن. فخلفه سعيد، رابع ابناء محمد علي، وكان ذا ثقافة اوروبية. وفي كانون الاول سنة ١٨٥٦ اتخذ سعيد قراراً مثقلاً بالنتائج الخطيرة فيما يتصل بتطور مصر في المستقبل: فقد مَنح الكونت فرديناند دي ليسابس***، وكان بوصفه قنصلا فرنسياً صديقاً له منذ أمد بعيد، حق انشاء قناة عبر برزخ السويس. وعلى الرغم من المساعي التي بذلتها وزارة الخارجية البريطانية للقضاء على المشروع فان الباب العالي لم يرفض، مباشرة، طلب

---

* Liebrecht

** Carol von Hohenzollern

*** Ferdinend de Lesseps

الموافقة عليه . ولكنه لم يعلن نهائياً عدم معارضته لشق الترعة الا في سنة ١٨٦٠ . ومهما يكن من امر فقد كان ليسابس قد شرع في عمله قبل ذلك . وفي ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٦٣ توفي سعيد ، حامي ليسابس ونصيره ، ولم يكد يخلفه اسماعيل حتى واجهته ازمة مالية نشأت عن نزعتـــه الشديدة الى تبديد المال . والواقع ان البريطانيين استغلوا هـــذا الوضع لشن هجوم جديد على المشروع الذي كانوا يعارضون . واذ كانت اسعار القطن قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً بسبب من الحرب الاهلية الاميركية فقد سعوا الى اقناع اسماعيل بان في مقدوره ان يجني ثروة طائلة اذا ما استخدم الفلاحين الستين الفاً المسخرين لشق الترعة في زرع القطن في الاراضي التي تركها سلفه لشركة انشاء القناة . حتى اذا طلب الى مجلس ادارة الشركة ان يعيد اليه ارضه وعماله أعلن ليسابس اول الامر ان هذا العمل يعني خراب المشروع كله . وتوسط نابوليون الثالث في الخلاف فرفعت القضية الى هيئة تحكيم تنظر فيها . وقـد قضت هذه الهيئة بمنح الشركة ، مقابل تنازلها عن ستين الف هكتار من الارض وعن اربعة اخماس العمال ، تعويضاً مقداره ثلاثون مليون فرنك مقابل الارض وثمانية وثلاثون مليوناً مقابل العمال .

وقد كان لاعتزام اسماعيل التحول الى زراعة القطن – هـذه الزراعة التي ما لبث ان حذا حذوه فيها معظم اصحاب الأراضي الكبار – نتائج تكاد تكون أبعد أثراً في تطور مصر الاقتصادي من حفر ترعة السويس نفسه . فبينما كانت مصر قادرة حتى ذلك الحين لا على إعاشة نفسها من محاصيل قمحها الوافرة فقط بل على

تموين جاراتها ايضاً بهذه المادة الغذائية فقد أفحمتها زراعة القطن منذ اليوم في غمار الاقتصاد العالمي بأزماته ومشكلاته ، وما هي الا فترة وجيزة حتى خسرت استقلالهـــا . واستعاض ليسابس بالآلات عن الايدي العاملة التي انتُزعت منه . حتى اذا كان الخريف من سنة ١٨٦٩ تمت القناة - وتبلغ ٩٣ ميـــلاً ونصف طولاً ، ومن ٩٦ الى ١١٠ يردات عرضاً و٣٥ قدماً عمقاً - بعـد ان استغرق حفرها اثنتي عشرة سنة . وهي تبدأ من بور سعيد على البحر الابيض المتوسط ، متجهة في خط مستقيم عبر بحيرتي المَـنْزَلة والبَلاح ، ثم تخترق تل الجسر البالغ ارتفاعه ١٦ متراً وبحيرة التمساح و« السرابيوم » والبحيرتين المرّتين (البحيرة المرة الكبرى والبحيرة المرة الصغرى) ثم تصب في البحر الاحمر ، عند السويس وبور توفيق (سعيد) وفي ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ دشنت القناة في احتفال بالغ الروعة أطلق اسماعيل فيه العنان لنزعته الى البذخ والاسراف ، واستطاع ان يخطر على قـــدم المساواة ، مع الامراء الاوروبيين الذين شهدوا الاحتفال : فقـد حضر امبراطور النمسا بنفسه الى مصر ، في حين أناب نابوليون الثالث عنه الامبراطورة أوجيني ، وارسل ولهلم ملك پروسيا ولي عهده بالنيابة عنه .

مصر في ظل الخديوي اسماعيل

ولقد اعتبر اسماعيل نفسه ، وكان له بعض الحق في ذلك ، المنفـذ الكفء لوصية جده الكبير السياسية . فمنـذ سنة ١٨٦٦ وفق الى حمـــل استانبول على ان تمنح اسرته حق الاستخلاف

المباشر ، الذي ينتقل معه العرش من الأب الى الابن على الطريقة الاوروبية * ، بدلاً من طريقة الاستخلاف التركية التي تقضي بان يتولى العرش في حال خلوّه اكبر افراد الاسرة سناً ** . وإنما تم له ذلك لقاء مساعدة عسكرية قدمها الى الباب العالي - وكان آنـــذاك في حرج شديد من ثورة نشبت في إقريطش (كريت) - ولقاء زيادته قيمة الجزية التي يدفعهـــا الى الدولة من ٣٠٧,٠٠٠ الى ٧٢٠,٠٠٠ ليرة تركية . وفي السنة التاليـة انتزع من الباب العالي حق الاستقلال التام في اصدار القرارات المتصلة بجميع الاجراءات الحكومية، باستثناء المعاهدات الدولية. ولقد خُلع عليـه ، في الوقت نفسه ، لقب « الخديوي » الفارسي القديم (ومعناه « الحاكم » او « السيد ») الذي سما بـــه سمواً كبيراً فوق مرتبة الوالي او الحاكم العام ، والذي كاد ينطوي على الاعتراف بسيادته واستقلاله . ولكن السلطان طلب اليه ، في ما بعد - بتحريض من بريطانية والامراء المصريين المتقدمين في السن - ان يتخلى عن اسطوله المسلح وان يختصر جيشه البري ، وان يقدم ميزانية سنوية الى الباب العالي ، وألاّ يقبل اي قرض او يعقد اي اتفاق سياسي من غير موافقة السلطان . واذ لم تعد فرنسة ، بعد إتمام قناة السويس ، في حاجـــة ماسة الى مساعدة الخديوي - شأنها من قبل - فقد عدم هذا الاخير ايما سند من جانب نابوليون الثالث وسفرائه يعتمده في دفع هذه الاهانة . ولكن

---

* نظام البنوة الكبرى . [المعربان]

** نظام السن الكبرى . [المعربان]

الدّ اعدائه العثمانيين ، الصدر الأعظم عالي باشا ، ما لبث ان توفي في ايلول سنة ١٨٧١ ليخلفه محمود [باشا] الذي بدا اكثر استعداداً لخدمة اسماعيل ومطامحه الواسعة . وفي حزيران سنة ١٨٧٣ اصدر السلطان فرماناً عدّل فيه الوضع الدستوري الخاص بالخديوي . فازدادت قوته الاقليمية بعد ان مُنح قائم مقاميتي سَوَاكن ومَصَوّع . وثُبّتت حقه في الاستخلاف المباشر ؛ ومُنح الاستقلال التام في الادارة والتشريع بعد ان وافق السلطان ، قبل ذلك بعام ، على الدستور القضائي الجديد وفقاً لمقترحات اللجنة الدولية المنعقدة سنة ١٨٦٩ . كذلك أجيز له ان يزيد جيشه الى الحد الذي يراه ضرورياً ، واعترف بحقه في عقد المعاهدات غير السياسية مع الدول الاجنبية ، وقبول القروض المالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد اكتسب مركزاً اكثر حرية في معاملاته مع البلدان الاجنبية عندما أُبطل نظر القضايا المدنية امام المحاكم القنصلية ، سنة ١٨٧٥ ، وحُوّلت صلاحية الحكم فيها الى المحاكم المختلطة .

النهضة المصرية عهد اسماعيل

والواقع ان جهود اسماعيل لرفع شأن بلاده في مضمار الحضارة كانت موفقة ايضاً . فقد خدم الزراعة بانشاء قنوات جديدة للري متفرعة من النيل ، وبانشاء صناعة السكر . وخدم التجارة بما بنى من احواض السفن والمرافىء ، وما مد من سكك حديدية وخطوط تلغرافية جديدة ، وما ادخل من التحسين على جهاز البريد . وفي عهده نعمت القاهرة والاسكندرية والسويس ، لأول مرة ، بمصالح

لتوزيع الماء والغاز . ورفع اسماعيل مستوى التربية الوطنيـــة بمضاعفة المدارس الاميرية إذ ارتفع عددها في عهده من ١٨٥ الى ٤٨١٧ . وإنما تدين له مصر ايضاً بأول مدرسة أنشئت فيها للبنات، وبمدرسة للطب ، وبمعهد عسكري فني .

اخفاق الحملة على الحبشة

ورغب اسماعيل في ان يبسط سلطانه في اتجاه الجنوب ايضاً ، فِعلَ مؤسس اسرته [محمد علي] . والواقع انه انتهى ، بعد ان ضمّ سلطنة دارْفور ومَصوّع ،الى ان يحتك بامبراطورية الحبشة النصرانية، وكانت ما تزال تعيش ، بالكلية ، تحت وطأة حكومة اقطاعية من طراز حكومات العصر الوسيط ، ولكنها كانت تملك برغم ذلك جيشاً باسلاً ، وإن يكن غير مدرب . وبعد ان اخضع المصريون هَرَر سنة ١٨٧٥ حسبوا ان في استطاعتهم ان ينفذوا الى المناطق الجبلية في قلب بلاد الحبشة . ولكن اول حملة تجرّأوا على تسييرها الى الداخل هُزمت عند قُنْدُت على يد الامبراطور يوحنا . حتى اذا وجّه المصريون، سنة ١٨٧٦ ، جيشاً ثانياً الى تلك الديار ، بقيادة حسن باشا ، احد اولاد الخديوي ، وقع برمّته في أسر الأحباش . وفي معركة ثالثة دارت رحاها عند قُرَع * خسر المصريون مدفعيتهم كلها . وقـــد كان من حسن طالعهم ان ثار عدد من تابعي الامبراطور يوحنا عليه ، وهكذا أعلن استعداده سنة ١٨٧٧ لعقد معاهدة صلح مع المصريين تاركاً لهم مَصوّع ، وكانت مهددة بالسقوط في ايدي العدو .

* Gura

وليس من شك في ان هذه الحملات المشؤومة ، مضافاً اليها ما اعتاده الخديوي من تبذير هو اقرب شيء الى الجنون ، قضت على مالية بلاده الغنية ، التي سبق لسعيد أن انقضَ ظهرها بقرض تبلغ قيمته ثلاثة ملايين جنيه انكليزي . وعبثاً حاول اسماعيل ان يزيد محصول ممتلكاته الواسعة جداً من طريق الافادة من أحدث مخترعات الصناعة الاوروبية ، فالمحاريث البخارية وغيرها من الآلات التي اشتراها بثمن غال لم تخدمه الا فترة قصيرة ، هذا اذا كانت قد استعملت اطلاقاً . فلما كان شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧٥ اضطر اسماعيل – في غمرة ازمة مالية – الى ان يبيع اسهمه في قناة السويس لبريطانية العظمى لقاء اربعة ملايين جنيه استرليني . وفي سنة ١٨٧٦ كان الدين الاجنبي قد ارتفع الى مئة مليون جنيه تقريباً . عندئذ حاول اسماعيل ان يقتدي بالسلطان الذي كان قد تخلص ، في عام ١٨٧٥ ، من وطأة الدين بإعلان الافلاس والتوقف عن الدفع . وفي نيسان سنة ١٨٧٦ انقطع ، طوال ثلاثة اشهر ، عن دفع فائدة ديونه العامة والخاصة . ليس هذا فحسب ، بل لقد توقف عن دفع الرواتب لموظفي الدولة وضاعف الضريبة السنوية المفروضة على الفلاحين . ولكن هيئة القضاء المختلطة في الاسكندرية ، وهي التي حلت محل المحاكم القنصلية وفقاً للتنظيم القضائي الجديد الذي أقره السلطان ، قضت على الخديوي بأداء ديونه واصدرت حكمها بالقاء الحجز على منقولات سراي الرمل الخديوية . وعينت بريطانية وفرنسة لجنة (مندوبية) للتحقيق في

مالية مصر . وفي سنة ١٨٧٨ اكرهت هذه اللجنة الخديوي واسرته على التنازل للدولة عن معظم ممتلكاتهم ، وعلى الامتناع عن فرض أيّما ضريبة جديدة من غير موافقة برلمان مؤلف من أعضاء وطنيين وأجانب . وفي الوزارة التي أُلفت حديثاً والتي رئسها الارمني نوبار باشا عُهد الى ولسن البريطاني في نظارة (وزارة) المالية والى « دي بلينيير »* الفرنسي في نظارة الاشغال العامة . ولكن الخديوي المحتدم غيظاً لم يستطع صبراً على هذه الوصاية ، خاصة بعد ان اقترح عليه تخفيض عدد قواته ايضاً . ولقد وفق الى ان يضرم نار ثورة عسكرية على النصارى ، ابتغاء حمل الاجانب على التراجع . ولكن نوبار باشا وحده استقال من منصبه ، في حين اشترك ولسن ودي بلينيير في الوزارة الجديدة برئاسة ولي العهد الامير توفيق . وهنا أعلن الخديوي تسريح الوزراء الاجانب ، وذلك بتحريض من مجلس مؤلف من بعض الاعيان الوطنيين ، في ما يبدو ، محاولاً في الوقت نفسه ان يخفف من التزاماته تجاه دائنيه برسوم أصدره بنفسه . فكان من نتائج ذلك ان قدّمت اليه الحكومة الامبراطورية الالمانية ، في نوّار سنة ١٨٨٠ ، مذكرة احتجاج أقرّتها الدول الأخرى أيضاً . وبناءً على تدخل هذه الدول أعلن السلطان خلع اسماعيل ، في ٢٦ حزيران ، وعيّن ابنه الاكبر ، توفيق ، خديوياً .

الباب العالي يعلن افلاسه ايضاً

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ – ١٨٨٠)

* de Blignières

عانت الامبراطورية العثمانية ايضاً مصاعب مالية متصلة الحلقات . وانما بلغت هذه المصاعب المالية اوجها سنة ١٨٧٥ . وعبثاً حاول الباب العالي ان يعقد قرضاً جديداً في باريس وان يجعل من البنك العثماني جابياً وخازناً ، في آن واحد ، في الامبراطورية كلها . ولو قد استطاع السلطان عبد العزيز ان يوطن نفسه في ذلك الوقت على التضحية بجزء من ثروته الضخمة الخاصة او اختصار نفقات بلاطه على الاقل اذاً لكان من الميسور تلافي ما هو اسوأ من ذلك جميعاً . ولكن مثل هذه التضحية ما كانت لتُنتظر منه ، وهكذا لم يبق امام الباب العالي الا ان يعلن افلاس الدولة، بصرف النظر عن ان السفير الروسي كان قد اشار عليه بذلك ايضاً . وفي تشرين الاول اعلن الصدر الاعظم ان العجز في ميزانية الدولة سيضطر الباب العالي ، خلال السنوات الخمس التالية ، الى ان يدفع نصف قيمة الفائدة نقداً ، والنصف الآخر سندات بفائدة ٥ في المئة . ولم يُستثن من ذلك الا القرضان الاولان اللذان عقدا بسبب حرب القرم واللذان ضمنتهما بريطانية وفرنسة ، والسندات المالية التي يملكها السلطان وتبلغ قيمتها نحواً من ١٤٤ مليون فرنك . والواقع ان الباب العالي كان قد عقد في العشرين السنة السابقة عشرة قروض ، آخرها ذاك الذي عقد بابخس ما يمكن من اثمان الاصدار وبفائدة يبلغ معدلها ٩ ١/٢ في المئة . وعند اعلان الافلاس قُدّر الدين القديم ، مضافاً اليه الديون الجارية الناشئة عن شراء السفن الحربية ومدافع « كروب » * وبنادق « مارتن » ** ،

* Krupp ** Martin

بما يزيد على ستة ملايين وربع مليون فرنك .

الثورات في الهرسك وبلغارية

وكان الاضطراب عاماً في أرجاء ولايات الروم إيلي الصقلبية [السلافية] كلها ؛ وقد اتهمت القنصليات الروسية – ولم يكن ذلك بهتاناً كله من غير شك - بالمساهمة في إذكاء الثورة ضد العثمانيين . ففي الهرسك - حيث كان النصارى يُستغلون وتبتز اموالهم ابتزازاً ليس له نظير من قبل نبلاء بلادهم انفسهم الذين دخلوا في الاسلام ، عقب الفتح - نشبت الاضطرابات منذ شهر تموز سنة ١٨٧٥ . وحشد الباب العالي جيشاً لأخماد الثورة، ولكنه حاول بادىء الامر القيام ببعض الاعمال الاصلاحية ، فعين مجلساً ادارياً انتظم في عداد اعضائه بعضَ الموظفين النصارى، ايضاً . حتى اذا حاول هذا المجلس ممارسة صلاحياته في المناطق الثائرة صده المسلمون عن ذلك . وفي كانون الثاني سنة ١٨٧٦ اندلعت الثورة في بلغارية ايضاً بعد ان اصدر الباب العالي – المتخبط في دياجير ضيقه المالي امراً بجباية جميع الضرائب المتأخرة ، في مدى اربعة اسابيع . وفي ٦ نوار نشب نزاع في سالونيك بين النصارى والمسلمين ، بسبب من فتاة بلغارية ، ذهب ضحيته القنصلان الالماني والفرنسي . حتى اذا ظهرت ، بسبب من ذلك ، عمارة بحرية اوروبية أمام شاطيء سالونيك ثار « الصوفته » (وهم طلاب الفقه والقانون) في استانبول فخلعوا الصدر الأعظم وشيخ الاسلام . واقترحت الدول الثلاث الامبراطورية عقد هدنة مدتها شهران ، بين النصارى والمسلمين . أما اذا لم يتوصل الفريقان

خلال هذه المهلة الى اتفاق سلمي فعندئذ تعمد هـــذه الدول الى اتخاذ اجراءات اكثر فعالية .

مدحت يرفع مراداً الخامس الى العرش

والحق ان تبـــذير السلطان الجنوني وعجزه الكلي ادّيا الى تدبير مؤامرة ضده كان الموحي بها مِدحت [باشا] الذي سبق له ان أسدى لبلاده خدمات جليلة اثناء ولايته اولاً على بلغارية ، ثم اثناء ولايته - بعد سنة ١٨٦٩ - على بغداد ؛ والذي كان فترة قصيرة من الزمان عضواً في وزارة محمـــد رشدي باشا ، الصدر الاعظم ، بوصفه وزيراً بلا وزارة (وزير دولة) . وتفصيل ذلك ان مِدحت باشا بعث ، في الاشهر الأولى من سنة [١٨٧٦] مذكرة مغفـلة الى الدول الاجنبية - باستثناء الروسيا - اعلن فيها ان خلـــع السلطان بات امراً يحتمه الشرع الاسلامي الذي يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكاً لكامل قواه العقلية . وفي مساء ٣٠ ايار انطلق المتآمرون - وكان بينهم حسين عوني باشا وزير الحربية - الى قصر « طُولمَه بَاغْچِه » حيث فاجأوا السلطان وتلوا عليه فتوى بخلعه صادرة عن شيخ الاسلام . وفي تلك الليلة نفسها رُفع مراد الخامس الى العرش . ثم ان عبد العزيز وُجـــد ميتاً في قصره چِراغان ، في ٥ حزيران ؛ والمعتقد انه انتحر بان قطع أوردة معصميه بالمقص . وكان السلطان الجديد قد نُشّيء على الطريقة الاوروبية ، واشتهر بانه رجل مستنير . ولكن صحته كانت قد تحطمت ، قبل ذلك بزمن طويل ، بسبب من ادمانـه الخمر . أضف الى ذلك ان المشاهـد المريعة الـتي رافقت ارتقاءه

العرش هدمت اعصابه ، وزادت الطين بلة .

وفي بلغارية ، رأى الباب العالي ان يقمع الثورة بما استطاع من قوة . وكان قد اسكن في تلك البلاد المهاجرين الجركس الذين برحوا القوقاز (القبق) الرومي بعد حرب القرم ، فاذا هو الآن يطلق لهم عنان الوثوب على النصارى ، فيخربون بالاشتراك مع الفرسان غير النظاميين المعروفين بالباش بُوزق – وكانوا نصف متوحشين – مناطق بكاملها . والواقع ان هذه الفظائع البلغارية اثارت عاصفة قوية من السخط في بريطانية العظمى حتى لقد طالب غلادستون * ، زعيم المعارضة ، بطرد العثمانيين عن بكرة أبيهم من اوروبة .

وفي بلاد الصرب انتهى حزب الحرب الى ان يكون الآن هو صاحب الكلمة العليا ، ايضاً . وفي ٢٧ حزيران وجهت حكومة بلغراد الى الباب العالي انذاراً طلبت فيه سحب الحاميات التركية والعصابات غير النظامية من الحدود الصربية ، وتعيين الامير ميلان ** نائباً للسلطان على البوسنه . حتى اذا كان اليوم الثاني من تموز اعلن ميلان الحرب على الباب العالي من مقر قيادته في دَليجراد . ودخل الجبل الاسود ايضاً في هذه الحرب علانية ، واشترك فيها اشتراكا مباشراً . وفي صيف سنة ١٨٧٦ ، بينا كان الصّرب يلقون من الاتراك مقاومة تحول دون تقدّمهم ، احرز جنود الجبل الأسود في ٢٨ تموز ، نصراً مؤزّراً على العدوّ .

---

* Gladstone

** Milan

وكان اختلاط مراد العقلي قد شاع – في هذه الاثناء – وذاع ، حتى لقد أعلن شيخ الاسلام خلعه في ٣١ آب . وفي غرّة أيلول رقيَ العرش أخوه عبد الحميد الثاني. وما هي إلا فترة قصيرة حتى تولى مِدْحت باشا مقاليد الصدارة العظمى . ثمّ إن القيصر الكسندر الثاني اتفق معه على عقد هدنة شهرين في البلقان ، فلم يكن من الباب العالي إلا أن اتخذها وسيلةً إلى الاستعداد واعادة التسلح .وهنا اقترحت بريطانية عَقد مؤتمر للسفراء في استانبول ، ابتغاءَ توطيد السلم كرة اخرى ، من طريق مُقترحات جديدة لأجراء الاصلاح . والواقع ان الدول الكبرى طالبت بأن تحتفظ هي بحق الموافقة على تعيين حاكم بلغارية خلال السنوات الخمس الأولى ، وان تعيّن لجنة دولية للمراقبة !! وسعى مدحت باشا الى اجتناب هذا العدوان على سيادة السلطان بأجراء اصلاحات داخلية . فألّف لجنةً من ستة عشر موظفاً مَدَنيّا ، وعشرة « علماء » ، وقائدين كبيرين وعَهِدَ اليها في وضع مشروع دستور للدولة .وبعد مصاعب بالغة اقرّت اللجنة هذه المقرّرات المستوحاة من الدستور البلجيكي والتي نُشرت تحت اسم « قانون اساسي » في ٢٣ كانون الأول : الغاء امتيازات استانبول التي كان لها* حتى ذلك الحين ادارة خاصة والتي كان سكّانها مُعْفَيْن من الخدمة العسكرية وضريبة الدخل ؛ واطلاق لفظ « العثمانيين » على جميع رعايا الدولة والاعتراف بحريتهم الشخصية ؛ واعتبار الاسلام دين

* اي لاستانبول

الدولة ، على أن تتولى الدولة حماية جميع المذاهب الدينية المعترف بها أيضاً ؛ واطلاق حرية الصحافة ضمن نطاق القانون ؛ وافساح المجال امام جميع العثمانيين المتمكّنين من اللغة التركية لاحتلال أيّما منصب في الدولة وَفقاً لكفاياتهم ؛ واقامة التمثيل الشعبي من طريق مجلسين ، احدهما للنواب (المبعوثان) والآخر للشيوخ (الأعيان) على ان يتمتع اعضاؤهما بحصانة تُنجيهم من الاضطهاد بسبب من آرائهم أو أصواتهم ؛ كذلك قررت اللجنة أن ينعقد المجلسان في غرّة تشرين الثاني من كل سنة ، وان يُفتتحا بخطاب عرش ؛ وأن تُوضع القوانين التي يقترحها المجلسان معاً موضع التنفيذ بعد أن يقرّها كلٌ منهما ويوافق عليها السلطان ؛ وأن يُعيّن السلطان أعضاء مجلس الاعيان ورئيسهم مدى الحياة ؛ وأن يُنتخب نائب واحد لكلّ خمسين الف مواطن على أن لا يشغل النائب ايّ منصب عام غير الوزارة ؛ وان يُنتخب النوّاب لأربع سنوات ، يتمتعون من بعدها بحقّ خوض الانتخابات كرة اخرى ، على ان يمثّل كلٌ منهم العثمانيين جميعاً لا منطقةً او جماعةً بعينها ؛ وأن ينتخب الناخبون نائبهم من بين سكّان منطقتهم ؛ وأن يختار السلطان رئيس مجلس النوّاب ونائبيه من بين النواب الذين يرشحهم المجلس لتولّي هذه المناصب . ليس هذا فحسب . بل لقد قرّرت اللجنة ان يُناط وضع الميزانية بمجلس النواب ، وان تكون جلساته علنية يشهدها الجمهور ، وأن تُنشأ محكمةٌ عليا مؤلفة من عشرة أعضاء في مجلس الأعيان ، وعشرة مستشاري دولة ، وعشرة مستشارين في

محكمة الاستئناف يكون من صلاحيتها مقاضاة الوزراء والرؤساء وأعضاء محكمة الاستئناف والمتهمين بالعصيان والخيانة العظمى ؛ وان تقوم ادارة الولايات على اساس اللامركزية ؛ وأن يكون التعليم الابتدائي الزامياً بالنسبة الى جميع العثمانيين .

وحاول الباب العالي ، باديء الامر ، التهرب من تنفيذ مطالب الدول الكبرى بان اعلن عجزه عن القيام باي تنازل جديد من غير موافقة مجلسي الاعيان والمبعوثان . وإذ كان هذان المجلسان لم يُنتخبا بعد فقد عمد الباب العالي ، شأنه في مواقف مماثلة من قبل ، الى دعوة مجلس كبير مؤلف من مئتي عضو ونيّف ، اشترك فيه كبار رجال الدولة الحاليين والسابقين ومندوبون عن الجاليات النصرانية واليهودية . وفي ١٨ كانون الثاني رفض هذا المجلس ، بالاجماع ، مطالب الدول ، فلم يكن من ممثليها الا ان غادروا استانبول . ولكن مدحت باشا ما لبث ان وفق ، بحنكته الديبلوماسية ، الى إيقاع الشقاق ، كرة اخرى ، بين خصومه . وفي ٢٨ شباط عقد مع الصرب معاهدة صلح على اساس الوضع الراهن . واذ قد طالب الجبل الاسود بتوسع اقليمي ابى ان يقرّه البرلمان العثماني ، الذي انتظم عقده في ١٩ آذار ، فان أجلَ الهدنة لم يُمدّد .

الحرب الروسية التركية في البلقان : مؤتمر برلين

وفي ٢٤ نيسان أحاطت الروسيا الدول الكبرى علماً بان الاضطرابات في الشرق تعوق تطورها السلمي ، فهي مضطرة — من جراء ذلك — الى ان تتدخل تدخلاً فعلياً . فلم يكن من هذه

الدول التي ضمنت في معاهدة باريس استقلال الامبراطورية العثمانية ووحدة اراضيها الا ان اعلنت حيادها . ولم يكن في طاقة رومانيا ان تحول دون تسلل عدد غفير من الضباط الروس ومن المتطوعين ، عبر اراضيها ، الى بلاد الصرب ؛ ليس هذا فحسب ، بل لقد اضطرت بعدُ الى ان تسمح للجيوش الروسية بالمرور، وما كانت هذه الجيوش لتستطيع الاشتباك بالقوات العثمانية من غير هذه السبيل . ولما انتهك العثمانيون ، بعد ذلك ، حرمة حدود رومانيا ايضاً وقّعت ميثاقاً عسكريا مع الروسيا وضعت بموجبه جميع مواردها وطرق مواصلاتها تحت تصرف الحكومة القيصرية . وفي ١٣ نوار اعلنت رومانيا الحرب على الباب العالي ؛ وفي ٢١ نوار أعلن مجلسا البرلمان استقلال البلاد .

وعبَرَ القائد الروسي جوركو * نهر الطونه (الدانوب) ، في اواخر حزيران سنة ١٨٧٧ ، وتقدم الى البلقان – على الرغم من ان بعض القوات التركية كانت لا تزال مرابطة على جانبَي الطريق التي سلكها – واحتل ممرّ شِيْبْكا الذي يسيطر على الطريق المؤدية الى أدرنه . وتقدّم عثمان باشا من معسكره [في وَدِين] الى مدينة بْلِفْنَه خلف الجيوش الروسية ، وكانت على ملتقى الطرق العمومية الموصلة الى شمال بلغارية ، ولكن سليمان باشا قائد القوات العثمانية في جنوبي البلقان لم يفكر في أمر الاتصال به ، بل قام بمحاولة يائسة لانتزاع ممرّ شيبكا من ايدي العدو . عندئذ دخل كارول ، امير رومانيا ، الحرب ، ولكنه لم يوفق الى اكراه

* Gurko

عثمان باشا على الاستسلام الا في العاشر من كانون الاول ، بعد حصار طويل . وفي كانون الثاني ، سنة ١٨٧٨ ، اجتاز الروس البلقان واحتلوا أدرنه . وهناك عقدوا ، في ٣١ كانون الثاني ، هدنة مع الاتراك . والواقع ان الروسيا اضطرت الى ان تتخلى عن الهدف الذي رمت اليه سياستها الشرقية منذ القديم ، أعني الزحف على استانبول ، بعد ان أبحر الاسطول البريطاني الى خليج بَزِيكا ، وبعد ان أقر البرلمان البريطاني مشروعاً بزيادة التسلح . وفي ٣ آذار وُقعت معاهدة صلح موقت في سان ستيفانو . وبموجبها تنازل الباب العالي عن قلعة قرص (وكان الروس قد احتلوها) في إرمينية ، وعن ثغر باطوم الهامّ ، ووافق على ان تُنشأ امارة بلغارية مستقلة تمتد حدودها حتى بحر إيجه ، ولا يربطها بالدولة غير اعترافها بسيادة السلطان عليها . بيد ان هذه المعاهدة لم تقترن باعتراف بريطانية العظمى وهي التي كان الباب العالي قد تخلى لها عن جزيرة قبرس جزاء ما أسدته اليه من معونة عسكرية . واذ كانت النمسا ماضية ، هي ايضاً ، في التسلح فقد اضطرت الروسيا الى ان توافق على اعادة النظر في معاهدة الصلح ، في مؤتمر اُتفق على ان يُعقد في برلين . وفي ١٣ حزيران سنة ١٨٧٨ التأم مؤتمر برلين فاستغرقت اجتماعاته اربعة اسابيع . وبمساعدة بسمارك استنقذ الباب العالي بلغارية الجنوبية ، على الاقل ، التي جُعلت ولاية ذات استقلال داخلي على رأسها حاكم مسيحي وعُرفت بالروم ايلي الشرقية ؛ في حين رُفعت بلغارية الشمالية الى مرتبة امارة مستقلة . اما رومانيا ، والجبل الاسود ، وبلاد الصرب فقد

منحت استقلالها التام ؛ بينا قنعت اليونان ايضاً بترضية اقليمية . وقضى المؤتمر كذلك بان تتخلى رومانيا عن بسارابيا للروسيا لتحصل لقاء ذلك على دُوبرُيْجَه وهو تعويض لا يتكافأ ، على الاطلاق ، مع ما فقدته . ولكن القرار الذي انتهى الى ان يصبح اعظم القرارات خطراً واسوأها نتائج هو ذلك الذي منح النمسا حق احتلال البوسنه والهرسك وسنجق يني بازار (يكي بازار)* .

الاستبداد الحميدي

وكان الاستياء قد استولى على السلطان عبد الحميد لتخلّف بريطانية عن تقديم المساعدة المنتظرة ، فأقال مدحت باشا من منصبه كصدر أعظم ، في ٥ شباط سنة ١٨٧٧ ، ونفاه بتهمة الخيانة العظمى ، وكان مدحت هو الذي اوصى باتباع سياسة الاعتماد على الدول الغربية . والحق ان الدستور الذي وضعه هذا السياسي الكبير لم يصبح في يوم من الايام ذا فعالية . ولقد صرف عبد الحميد همته ، الآن ، الى تدريب جيشه تدريباً جديداً على ايدي خبراء من الالمان ، ولكنه ابى القيام باي اصلاح آخر على النمط الاوروبي . والواقع انه سعى لتوطيد سلطانه من طريق الاخذ بارداً اساليب الطغيان الشرقي . فقد قضى على كل حركة فكرية حرة نشأت في الامبراطورية ، وهي في المهد . فاضطر ممثلو فكرة الاصلاح ، المعروفون برجال تركية الفتاة ، الى مغادرة البلاد لينشئوا في باريس وجنيف مراكز جديدة للحياة الفكرية . ليس هذا فحسب . بل انه استغرق استغراقاً متعاظماً ، يوماً

* Novibazar اي « بازار الجديدة » . [المعربان]

بعد يوم، في جوٍّ من احلام اليقظة الوهمية مؤكداً في المحل الاول على مقامه الديني كخليفة، رجاة ان يبسط سلطانه، من هذه الطريق، على جميع المسلمين؛ وانما كان السلطان عبد الحميد متأثراً في ذلك كله بعصبة البلاط التي ما انفكت تُلقي في قلبه خوف المؤامرات، والتي وفقت الى ان تسيطر عليه، فكرياً، في شخص ابي الهدى الصَّيّادي، فقيه البلاط السوري الاصل. وليس من شك في ان فكرة عبد الحميد هذه، القاضية بتدعيم مركزه كخليفة، لقيت هوىً في قلوب فئة كبيرة من المثقفين، وعند رجال الدين «العلماء» بخاصة. ذلك ان الاسلام كان يقوم، في نظرهم، مقام الوعي القومي المفقود، وكانوا يحلمون بان يُثيروا في وجه التفوق الاوروبي ردَّ فعل دينياً ينتظم ديار الاسلام جميعاً.

ومهما يكن من أمر فقد كان ضعف الامبراطورية العثمانية متفاقماً الى درجة بعيدة، حتى لقد تابعت طريقها المخوف نحو التفكك وتقطع الاوصال في سرعة متزايدة. وفي افريقية الشمالية التي لم تكن في الواقع مرتبطة يوماً بالباب العالي، باكثر من رباط ضعيف، فقدَ العثمانيون تونس بعد ان احتلها الفرنسيون، سنة ١٨٨١.

الثورة العرابية واحتلال الانكليز مصر

وفي مصر كانت اللجنة الأوروبية المكلّفة تسويةَ الديون تحدّ شيئاً بعد شيء من سيادة الخديوي توفيق المالية. حتى اذا اكرهت هذه اللجنة الخديوي — وكان مستضعفاً — على أن ينقص عددَ جيشه عصفت ريح المعارضة بين الضباط. ولكن العمل

الموحّد تعذّر على هؤلاء الضباط، اول الامر، بسبب من انقسامهم الى حزبين : حزب تركيّ وحزب مصري . فمنذ عهد محمد علي وكثيرٌ من الاتراك يحتفظون بالمناصب الرئيسية في الجيش ، فهم يعطفون على أبناء جنسهم . بيد أن زعيماً وطنياً مصرياً ما لبث ان برز في شخص أحمد عرابي — وكان ابن فلاّح — الذي شق طريقه في الجيش حتى انتهى الى رتبة اميرالاي (كولونيل) وتولى قيادة الفرقة الرابعة . وفي كانون الثاني ، سنة ١٨٨١ ، اعلن احتجاجه ، هو وعليّ فهمي قائد الفرقة الأولى ، على الاجراءات التي اتخذتها حكومة عثمان باشا رفقي ؛ وهكذا أمسى رئيساً للحزب الوطني الذي ناضل في الوقت نفسه عن مصالح الفلاّحين ضدّ اصحاب الأطيان الواسعة من ذوي الأصول التركية . ثم وقعت حوادث عدة عُيّن على اثرها وزيراً للحرب، في شباط سنة ١٨٨٢ . ولكنّ الضباط الاتراك دبّروا ضدّه مؤامرةً انتهت الى نشوب الخلاف بينه وبين الخديوي. وهنا دعا مجلس النظّار الى عقد مجلس من الأعيان رغم ارادة الخديوي . فاعتبرت بريطانية ان سلامة الأوروبيين في مصر قد أمست في خطر واوعزت الى اسطولها بالقيام بمظاهرة حربية في مياه الاسكندرية اشترك فيها الاسطول الفرنسي أيضاً . والواقع ان هذه المظاهرة زادت في حدّة التوتّر بمصر ؛ فوقعت في الاسكندرية حوادث ضد الاجانب ، في ١١ حزيران . واذ كان عرابي يخشى تدخّل الدول الكبرى ، فقد انبرى الى تحصين الأسكندرية . وكانت حكومة غلادستون خالية الذهن من فكرة احتلال مصر . واذ كانت فرنسة تعاني مصاعب

كثيرة في تونس ، وفي الهند الصينية أيضاً ، وتعاني على الأخص ازمةً في علاقاتها بالرايخ الألماني ، فقد استدعت اسطولها من الاسكندرية . وهكذا استشعرت بريطانية انها وحدها المسؤولة عن سلامة الأوروبيين ، فما كان من اسطولها الا أن ضرب الاسكندرية في ١١ تموز ، بعد أن رفض عرابي وَقْفَ أعمال التحصين . وكان الخديوي قد التمس ، قبل ذلك ، حماية بريطانية وضمّ جيوشه الى الوحدات البريطانية التي نزلت الى البر . فلم يكن من عرابي الاّ ان أعلن نفسه نائباً للسلطان ، ولكنّ هذا الأخير اعلنه متمرداً خارجاً على طاعته . ثم ان عرابي سار بقواته المسلحة تسليحاً رديئاً لمقاتلة قوات الجنرال وولزلي * التي نزلت الى البر في التلّ الكبير (١٣ ايلول) فهُزِم ثم أُسِر بعد يومين في القاهرة . وصدر الحكم عليه ، اول الامر ، بالموت ، ثم استعيض من هذه العقوبة بالنفي الى سيلان ، ليُسْمَح له بعدُ بأن يؤوب الى القاهرة سنة ١٩٠١ .

والحق ان هزيمة التل الكبير قررت تاريخ مصر طوال نصف قرن . ففرضت بريطانية رقابتها على المالية المصرية وقيادة الجيش المصري العليا ، هذا الجيش الذي اقامت الى جانبه حامية بريطانية دائمة في الديار المصرية . ليس هذا فحسب ، بل لقد اقامت القنصل العام ، اللورد كرومر ، الى جانب الخديوي ليكون هو الحاكم الفعلي للبلاد ، شأن المقيمين البريطانيين الذين جرت عادتها على تعيينهم مستشارين للحكام الوطنيين في الهند . واذاً فقد أمسى

* Wolseley

تاريخ مصر ، في هذه المـــدة ، جزءاً من تاريخ الامبراطورية البريطانية ، وانتهت مصر الى ان تصبح مركزاً للمحافظة عـــلى طريق الهند وفرض السيطرة البريطانية عليها. ولم يُوفق المصريون الى استرداد استقلالهم الا عقب الحرب العالمية الاولى ، بعد ان سلخوا عشرين عاماً من النضال المستحرّ العنيف .

سكة حديد بغداد والحجاز

وبينا كان عبد الحميد منهمكاً – من قصره « يلدز » حيث اعتزل الجمهور اعتزالاً متزايداً يوماً بعد يوم – في كَبْت كل نزعة الى الحرية في الامبراطورية العثمانية بواسطة جهاز من الجاسوسية معقد واسع التشعب ، نقول بينا كان عبد الحميد منهمكاً في ذلك اذا به يسعى ، الى ان يمكّن لسلطانه ، في الوقت نفسه ، من طريق انعاش الحركة التجارية ايضاً . والواقع ان سكة الحديد الشرقية التي بدأها البارون هِيرش* من طريق ارباح هائلة مشوبة بالغش كانت لا تزال غير جاهزة ، ولم يصبح في الامكان مدّها في همة ونشاط لا سنة ١٨٨١ بعد فسخ العقد معه. وفي آخر سنة ١٨٨٨ تمّ الخط الحديدي الذي يربط ما بين بلغراد والآستانة مع امتداد على الارض الآسيوية من حيدر باشا الى إزْميد . ثم ان مصرف الدولة الالماني استصدر – لقاء ضمان لحدّ ادنى من الموارد طوال تسع وتسعين سنة – اجازةً بتمديد الخط الحديدي حتى انقره التي تمّ ربطها بالسكة سنة ١٨٩٢ . وفي الحال انبثق المشروع الرامي الى مدّ الخط عبر الاناضول والعراق حتى الخليج الفارسي. وبذلك

* Hirsch

يتيسر ربط اهمّ بلدان الامبراطورية بالعاصمة، وتُفتح ابواب مواردها الطبيعية الغنية في وجه التجارة العالمية ايضاً. ولكن هذا المشروع تهدد بالخطر، في الوقت نفسه، مركز بريطانية في الشرق ومطامع الروسيا في فارس. ومع ان رجال السياسية الالمان البعيدي النظر حذّروا من مخاطر هذا المشروع فقد ايدته الشخصيات المسيطرة التي كانت معنيّة، في المحل الاول، بخدمة مصالحها الاقتصادية، ووفقت الى ان تُقنع القيصر وهلم الثاني بضرورة الاهتمام به. حتى اذا كانت سنة ١٨٩٨ وزار القيصر الآستانة في طريق عودته من بيت المقدس سأل السلطانَ الذي كان يعدّه صديقاً له والذي كان مديناً له بتدريب جيشه على ايدي ضباط المان برئاسة فون در غولتز باشا *، ان يمنح امتياز انشاء مرفأ حيدر باشا الى مصرف الدولة الالماني، على الرغم من الجهود التي ما انفكت بريطانية والروسيا تبذلانها للحيلولة دون تمديد الخط الحديدي. وفي سنة ١٩٠٢ أجاز السلطان انشاء خط بغداد الحديدي. وكان التدبير ان يمتد من بروسّه، حيث ينفصل الخط الفرعي القاصد الى انقره، عبرَ أفيون قره حصار وقونيه، وأرْكَلي وبُولْغُورْلو حتى بغداد من طريق نَصِيبِين والمَوْصل. ولقد بدأت المواصلات على القسم الممتدّ حتى بُولغورلو، في ٢٥ تشرين الاول سنة ١٩٠٤. ولئن خدمت سكة حديد الاناضول اغراضاً اقتصادية وعسكرية، لقد كان الهدف الذي رمى اليه السلطان من ابرز اعماله على الاطلاق — سكة

* von der Goltz Pacha

حديد الحجاز – هو تعزيز مكانته كخليفة في طول العالم الاسلامي وعرضه . وبينا كان الحجّ الى المدينتين المقدستين غير ممكن – حتى ذلك الحين – الا عن طريق القوافل المُضنية ، من دمشق عبر الصحراء او عن طريق الماء عبر البحر الاحمر ، اذا بهاتين المدينتين تُربطان الآن بمركز الامبراطورية بقضبان السكة الحديدية . والواقع ان هذا الخط الذي أشرف على انشائه في الدرجة الاولى سكرتير السلطان الخاص ، عزت باشا [العابد] وهو عربيّ من سورية ، انتهى مَدُّهُ حتى المدينة على ايدي مهندسين المان في ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٨ . وانما تبرّع المسلمون في مختلف أقطار العالم بثلث نفقات الخط البالغة ثلاثة ملايين ليرة تركية . [١]

الأرمن والأكراد

واعتقد عبد الحميد ان عليه ان يخشى الأرمن وحدهم من دون سائر رعايا الامبراطورية الذين افادوا من سكة الحديد الاناضولية ، وكانت النزعة الى الحياة القومية المستقلة قد اخذت تراود نفوس هؤلاء الأرمن منذ زمن بعيد . وكان ابناء جلدتهم المنتشرون في منطقة البحر الابيض المتوسط كلها حتى الهند قد انتهوا الى ان يجمعوا في كثير من الأحيان ثروات ضخمة ، فهم يغذّون هذه النزعة الاستقلالية ويذكون جذوتها . وكان الشعب الارمني المقيم في السلسلة الوسطى العليا من الجبال القائمة بين الاناضول

(١) انظر اولر باشا Auler Pasha, *Die Hidschasbahn*, *Petermanns Mitteilungen, Erganzungshefte* 154 (1906) and 161 (1908) .

وآذربيجان وبحر قزوين [الخزر] — وهو اكثر الشعوب الشرقية بؤساً واقلّها حظاً — قد حفظ خلال الاجيال خصائص الشعب الاناضولي العِرقية الاصلية في اصفى حالاتها ، ولكنه استعار لغته من احدى موجات المهاجرين الهنود الاوروبيين وكيّفها بما يتفق مع لغة اجداده الأولين . وكان النظام الأقطاعي قد نشأ ، في بلادهم الحافلة بالسهول الواسعة القائمة ما بين الجبال الشاهقة ، منذ عهد باكر جداً ؛ ولقد ساعدهم هذا النظام على ان يتمتعوا بسلطة مركزية مرةً واحدة ليس غير ، وذلك في العصور القديمة ، في حين انهم وقعوا في جميع العهود الأخرى ، تقريباً ، فريسةً سهلةً للدول المجاورة . فلم يكادوا يخضعون للحكم التركي حتى تعاظم نفوذ جيرانهم الجنوبيين ، الأكراد ، في بلادهم تعاظماً متصلاً . والواقع ان عبد الحميد كان يعتقد — على الرغم من ان امّه ارمنية * — بأن في استطاعته ان يثق بالأكراد ويتخذهم دعامةً ليس اضمن منها ولا أثبت لسلطته وقوته . ومن هنا كان حرسه الخاص ، في استانبول ، « الفرقة الحميدية » يتألف في الدرجة الاولى من فئات كردية . ليس هذا فحسب بل لقد اطلق يدهم في بلادهم نفسها وان كان حريصاً على ان يحد من قوة بكواتهم ، ويقضي على كل توثب وطني عندهم . والحق ان الارمن ، بوصفهم صُناعاً أولي جَلد ورجال عمل ذوي نشاط ، ولكن من غير ما دقة او ضبط ، كانوا اكثر تقدماً من الوجهة

---

* وهو امر لا يقره احد حفدته الداماد عمر نامي بك نجل الداماد احمد نامي بك . [المعربان]

الاقتصادية من جيرانهم. وكان اخوانهم المقيمون خارج البلاد منذ زمن طويل قد جمعوا في كثير من الاحيان ثروات كبيرة، وكانوا ينزعون الى اصطناع نفوذهم لدى الدول الاجنبية لصالح مواطنيهم في الوطن. كذلك كان لنضال الشعوب البلقانية اثره في تحريك الارمن - على الرغم من الاختلاف المطلق بين مركز هؤلاء ومركز اولئك - للمطالبة بدرجة ما من الاستقلال شبيهة بتلك التي منحها مؤتمر برلين للروم ايلي الشرقية. بيد ان هذه النزعة استثارت شكوك السلطان؛ ومن الثابت انه لم يعارض، سنة ١٩٠٥، في المذبحة الوحشية التي قام بها الاكراد، بالاشتراك مع الاتراك، ضد الارمن في مدن البلاد الكبرى كلها تقريباً، وفي طرابزون والرُّهاء بل وفي استانبول ايضاً. والحق ان هذه الفظائع التي تكررت في السنة التالية في ولايتي بتْليس ووَان لم تحطّ من قدر الامبراطورية العثمانية واعتبارها في العالم المتمدن فحسب بل زعزعت آساس الدولة نفسها ايضاً.

الحرب مع اليونان

ولم يكن اليونان راضين، بدَوْرهم، عن تعديلات الحدود كما قضى بها مؤتمر برلين. وكانت الرغبة في ضم جزيرة اقريطش (كريت)، ومعظم سكانها من مواطنيهم، الى المملكة اليونانية تلهب، على الخصوص، المشاعر الشعبية الهاباً ما ينقطع. وفي سنة ١٨٩٦ اندلعت في الجزيرة نار الثورة بقيادة الامير جورج اليوناني. وما لبثت هذه النار ان امتدت الى تَساليَه ايضاً، ربيع سنة ١٨٩٧. ولكن ضعف المملكة العسكري كان فاضحاً

الى درجة اضطرت الدول الكبرى الى صيانتهـــا من الانهيار الكامل . والواقع ان معاهـــدة الصلح التي أملتها هذه الدول ، نتيجة لذلك ، لم تحمل الى اليونان في الارض الأم الا تعـديلا في الحدود لا يكاد يذكر ، ولكنها رفعت اقريطش الى ولاية مستقلة استقلالاً داخلياً وجعلت على رأسها حاكماً نصرانياً .

الثورة في مقدونية

وفي مَقدونيـة ، حيث يقطن الاتراك واليونان والارنأوط والافلاقيون والبلغـار والصرب جنباً الى جنب ويختلط بعضهم ببعض، كانت متاعب الامبراطورية العثمانية أدهى وامرّ. من اجل ذلك طمعت كل من الدول النصرانية الثلاث المجاورة في انتزاع هذه الولاية الخصبة ، الغنية بزراعـــة التبغ على الخصوص . ففي خريف سنة ١٩٠٢ تشكلت هناك عصابات بلغارية عاثت في انحاء البلاد فساداً ، مروّعة العناصر السلافية الاخرى . حتى اذا عجزت القوات العثمانية عن الضرب على ايديها طلبت الروسيا والنمسا الى الباب العـالي ان يسيّر اليها مفتشاً عاماً اوروبياً وقوة بوليسية يقودها ضباط اوروبيون . ولكن القائد الايطالي الذي عـيّن على رأس هـــذه القوة البوليسية اخفق ؛ هو ايضاً ، في توطيد دعائم النظام . ليس هـذا فحسب بل ان العناصر الاخرى ما لبثت ان شاركت في حرب العصابات ، اسوة بالبلغار . وعجزت الدول الكبرى عن وضع حد للثورة ، بعـــد ان اكرهت السلطان على اخضاع مالية البلاد لمراقبتها . وحاولت النمسا ان تستغلّ هذه الحال فمدّت خطّ سيراجيفو الحديدي الى سالونيك ، عبر سنجق يني

بازار ، الخاضع للادارة النمسوية . ولقد استثار هذا الصنيع حسد الروسيا وغيرها من الدول الكبرى التي طالبت ، منذ اليوم ، بتعيين حاكم عام خاضع لمراقبتها هي .

تركية الفتاة

والواقع ان هذه الأهانة الجديدة التي وُجهت الى الدولة اثارت في نفوس الضباط الاتراك ، المرابطين مع قواتهم في مقدونية ، سُخطاً عميقاً . حتى اذا كان حزيران سنة ١٩٠٨ واجتمع في ريفال [عاصمة استونية] الملكُ ادورد السابع والقيصر نيقولا الثاني اجتماعاً مَهَرَ الحلفَ المعقود بين بريطانية والروسيا بموجب معاهدة ١٨ - ٣١ آب سنة ١٩٠٧ ، توقعت تركية ان تكشف الايام عن خطط جديدة لتقسيم امبراطوريتها . فلم يكن من هذا الخطر الجديد الاّ ان اذكى روح النقمة والهياج في اوساط الضبّاط حتى بلغت نقطةَ الغليان . وكانت حركة « تركية الفتاة » التحرّرية التي حاول السلطان كبحها والقضاء عليها فترةً طويلة من الزمان قد تسرّبت رغم جميع شبكات التجسّس ، الى صفوف الجيش العثماني . وفي مقدونية تولى انورُ بك — الذي كان قد اطلع بوصفه ملحقاً عسكرياً في برلين على تنظيم الجيش الألماني واساليبه في القتال — ونيازي بك * الذي كان قد اكتسب خبرةً عسكرية في الحرب ضد العصابات المقدونية — نقول تولى هذان الرجلان زعامة مؤامرة هدفُها المباشر بعث دستور سنة ١٨٧٦ الذي وضعه مِدْحت باشا ٢ . اما بين الموظفين المدنيين فقد وجدا تأييداً في

* « القول آغاسي »

(٢) إن المعلومات التي أملاها مصطفى كمال ، حول حياته هو ، على رئيس

شخص طلعت الموظّف في دائرة البرق . وقد تلقّى المتآمرون

تحرير جريدة « وقت » الاستانبولية في مطلع سنة ١٩٢٢ والتي اقتبسها آ. فيشر في الـ *Leipzig Illustrierte Zeitung* عدد ٤٠٨٤ الصادر في ٥ تشرين الأول سنة ١٩٢٢ ، والتي وردت ايضاً في سيرة حياته المكتوبة بقلمه والمنشورة في *Turkun Altun Kitabi Ghazinin hayati* (استانبول ، ١٩٢٨) ص ٢٠ ، وفي ما ترجمه J. Deny في *Revue du monde musulman* (مجلد ٦٣ ، ١٩٢٠ ، ص ٤٦ وما بعدها) عن كتاب *Devletsalname* الذي وضع على أساسه التاريخ التركي الرسمي المسمى *Tarih IV* (استانبول ١٩٣١ ص ١٤٠ وما بعدها) ـ نقول ان هذه كلها تفيد ان مؤسس الدولة التركية الحديثة يجب ان يعتبر ايضاً الموحي بالانتفاضة المقدونية . والذي يؤخذ من هذه المصادر أنه ألف ، منذ أن كان مرابطاً مع الحامية في دمشق سنة ١٩٠٦ ، جمعية ضباط باسم « وطن وحريت جمعيتي » اكتسبت اعضاء في بيروت ويافا والقدس ايضاً . وتذهب هذه المصادر ايضاً الى انه فيما كان يقضي أجازته في إزمير غادرها سراً الى مسقط رأسه ، سالونيك ، حيث أسس فرعاً محلياً لجمعيته . حتى اذا علمت السلطات بعد بأنه أساء استخدام اجازته على هذا الشكل نقل ، بعد عودته الى سورية ، إلى قيادة الثغور في العقبة ـ حيث كانت الدولة تنفي القوات المتمردة ـ ؛ وبعد ثلاث سنوات فقط نقل الى هيئة أركان القيادة العليا للروم إيلي في سالونيك . والجدير بالذكر ان الروايات المعاصرة التي دونها احد زعماء الحركة المقدونية ، نيازي ، في مذكراته (« خاطرات » ، استانبول ، ١٣٢٦) ، ويونس نادي رئيس تحرير الصحيفة الاستانبولية « تصوير أفكار » في كتابه « اختلال وانقلاب عثماني » ، (استانبول ، ١٣٢٥) لا تذكر شيئاً عن نشاط مصطفى كمال هذا . قابل ايضاً مناقشة المسألة في المجلة التاريخية التركية *Belleten I* (انقرة ، ١٩٣٧ ، ص ٢٨٩ ـ ٣٠٩ و ٦١٩ـ٦٢٥) . أما الميجر جنرال ايمهوف Imhoff فقد ذهب في *Die Welt des Islams ,I,* (برلين ١٩١٣ ص ١٧٤) الى ان اول جمعية عسكرية أسست في دمشق هي تلك التي اسسها الدكتور حاجي مصطفى ، في حين أن مصطفى كمال أسس

الذين دعوا أنفسهم « جمعية الاتحاد والترقي » مساعدة مالية من الـ « دُونمِه » وهم يهود سالونيك الداخلون في الاسلام والذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في تلك المدينة .

الزحف استانبول واحياء الدستور

وفرّ نيازي مع عدد من رفاقه الى جبال رَسْنَه حيث ساعده قائم مقام المنطقة سراً . وبعد ان التحق بأيوب افندي في أُوخري (أُخريدا) وَجّها معاً برقية الى السلطان يسألانه فيها اعادة الدستور. وبعثت السلطات بشمسي باشا للقبض على الرجلين فقُتل بعيار ناري . ثم ان انور ايضاً غادر سالونيك ونشط في خدمة الجمعية ، في تَكوِش . ولكن المتآمرين كانوا قد اخذوا يستشعرون طمأنينة بعيدة حتى لقد اعلنوا الدستور في (مُنَسْتِير) يوم ٢١ تموز سنة ١٩٠٨ وفي سالونيك في اليومين الثاني والعشرين والثالث والعشرين . وفي ذلك الشهر نفسه زحف المتآمرون زحفاً مفاجئاً على استانبول فاحتلوها من غير ما قتال تقريباً ، واكرهوا السلطان على اقرار الدستور وعلى تعيين وزراء يرضون هم عنهم . وفي ١٧ كانون الاول صار من الميسور افتتاح البرلمان العثماني .

خلع عبد الحميد

واستقبلت الامبراطورية كلها سقوط النظام الاستبدادي على

جمعية جديدة في سالونيك . ومن المعلومات التي اوردها ايمهوف وجمعها بنفسه في تركيا حيث كان يعمل كمدرب للجيش ، نرى ان الجمعيات السرية كانت تنشط في أماكن مختلفة من الدولة العثمانية ، ومن غير ان تعلم احداها بالاخرى ، وهكذا فليس عجيباً ان تتضارب الروايات في ما يتصل بنشوء الحركة الثورية.

هذه الصورة المفاجئة استقبالاً حماسياً . ولقد حسب زعماء تركية الفتاة ان في استطاعتهم ان يكسبوا ثقة جميع الشعوب النصرانية وتأييدها ايضاً ، من طريق اعلان المثل الاعلى الدستوري الجديد القائل بالغاء جميع ضروب التمييز بين العثمانيين على اختلاف طبقاتهم واديانهم وأجناسهم . ولكن الصلح الذي عقده عبد الحميد مع رجال تركية الفتاة لم يعمّر طويلاً . ففي ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ اندلعت الثورة ضد الحكام الجدد . وفي ١٥ نيسان سمى السلطان توفيق باشا صدراً اعظم وعهد اليه في اعادة الشريعة ، او القانون المقدس ، الى حيز التنفيذ . وللمرة الثانية تدخل جيش سالونيك العثماني في الامر . ففي نيسان ايضاً تقدم قائد هذا الجيش ، حسين حسني باشا ، يصحبه مصطفى كمال بوصفه رئيس اركان حربه ، الى العاصمة ، وبعد قتال قصير وُفق محمود شوكت باشا الى احتلالها . وفي ٢٦ نيسان عقدت في سان ستيفانو جمعية وطنية ، فاتخذت بناء على فتوى من شيخ الاسلام قراراً بخلع السلطان . وهكذا رُفع الى العرش أخوه محمد [رشاد] الخامس . وفي البرلمان الجديد ألفت الجماعات البرجاسية * التي تسمت بالأحرار والتي اتخذت من « الحرية والائتلاف » برنامجاً لها ـ نقول الفت حزباً واحداً سعى الى ان يحد من نفوذ الضباط الكاسح . ولكن الحالة الخارجية لم تفسح للامبراطورية العثمانية

* اي البورجوازية ، bourgeois ، وقد اعتمدناها كما جاءت في نص لاسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار (تحرير فيليب حتي ، برنستون سنة ١٩٣٠ ص ١١٥ ، ١٤١) .

في مجال التمرس بالحياة الدستورية في هدوء واطمئنان .

ايطالية تستولي على طرابلس الغرب

في تلك الاثناء كانت ايطالية تبحث لسكانها المتكاثرين في اطراد عن مستعمرة في حوض البحر المتوسط لكي تضع حداً لهجرة شبانها الى البلدان الاجنبية ، بعد ان استولت فرنسة على تونس التي كانت قد استوعبت عدداً كبيراً جداً من المهاجرين الايطاليين ، فاذا بانظارها تقع الآن على طرابلس الغرب . وكانت الامبراطورية العثمانية تنظر الى طرابلس الغرب دائماً نظرتها الى ثغر مفقود . حتى اذا أبى رجال تركية الفتاة ، حفاظاً على الشرف ، ان يتخلوا عنها بعد ان فاجأهم الطليان بهذا الطلب ، اعلنت ايطالية الحرب في ٢٩ ايلول سنة ١٩١١ ، فوطئت قواتها الارض الافريقية في ٥ تشرين الاول. ووقع عبء الدفاع على عاتق انور باشا ومصطفى كمال الذي كسب ، هنا ، اول اكليل من اكاليل مجده العسكري. وعلى الرغم من ان المواطنين العرب والبربر ناصروا الاتراك في حماسة واندفاع فقد هُزموا آخر الامر. وفي معاهدة أوشي المعقودة سنة ١٩١٢ تخلت الدولة عن طرابلس وبنغازي لأيطاليـــة ، ولم يحتفظ الخليفة الا بحق تعيين الموظفين الدينيين في تلك البلاد .

دول البلقان تعلن الحرب على الامبراطورية العثمانية

وفي تشرين الاول سنة ١٩١٢ اعلنت دول البلقان الحرب على الامبراطورية العثمانية ، ولم تكن معاهدة الصلح مع ايطالية قد عقدت بعد . ومع ان هذه الدول كانت على خلاف فيما بينها حول قضايا كثيرة ، فقد استشعرت ان مصالحها المشتركة باتت في

خطر من جراء مشروع الحكومة العثمانية الرامي الى ربط مقدونية بالامبراطورية ربطاً اكثر إحكاماً ، من طريق حركة استيطان اسلامية جديدة . والواقع ان الاتراك كانوا اضعف من ان يثبتوا في وجه هذه القوة البلقانية الموحدة، فألقى البلغار الحصار على ادرنة، بينما احتل اليونان سالونيك . وعقدت الوزارة التركية الجديدة هدنة مع العدو وأبدت استعدادها للتخلي عن ادرنة . ولكن ضباط الجيش ، وعلى رأسهم انور ، احتجوا على هذا الحزي ؛ وفي ١٣ كانون الثاني سنة ١٩١٣ اكرهوا الوزارة على الاستقالة ليؤلفها محمود شوكت . واذ كانت أدرنة قد سقطت في اثناء ذلك ، فقد اضطرت القوات العثمانية الى أن تقصر دفاعها على خط چتالجه فحسب . ولكن الاتراك أكرهوا آخر الأمر ، في مؤتمر الصلح المنعقد في شهر نوار بلندن ، على ان يتخلّوا عن جميع المناطق الواقعة غربيّ خطّ إينوس على بحر ايجه و ميديا على البحر الأسود . بيد ان الأعداء لم يتوصلوا الى اتفاق حول تقسيم الغنائم فنشبت الحرب في ما بينهم . ومن هنا امتشق انور الحسام ، كرّة اخرى ، فاستنقذ ادرنة التي اضطر البلغار الى التخلّي عنها آخر الأمر وفقاً لما قضت به معاهدتا استانبول (ايلول ١٩١٣) واثينا (١٩١٤) .

ظهور الفكرة القومية في تركية

وطبيعيّ ان يتعذّر نشوءُ ايّما سياسة داخلية قويمة في الامبراطورية العثمانية ، وسطَ هذه المتاعب والاضطرابات كلّها . وكان المثل الأعلى الطامح الى خلق جامعة عثمانية تنتظم جميع

المواطنين في الامبراطورية قد اخفق اخفاقاً ذريعاً لتحلّ محله شيئاً فشيئاً فكرة القومية عند الأتراك . والواقع ان القومية انتشرت اولَ ما انتشرت بين شعوب اوروبة الشرقية، معتمدةً على مبادىء الثورة الفرنسية والرومانتيكية الألمانية ، لتقودها الى انتصاراتها السياسية الكبرى . فليس عجيباً ان تجد هذه الفكرة الآن ارضاً صالحة بين الأتراك . ولمّا كانت اللغة تمثّل الرابطة القومية الحقيقية فقد اعتقد الاتراك ان بأمكانهم ان ينشئوا وحدةَ مُثُل تربطهم – وراءَ الحدود السياسية – بأخوانهم في اللغة المقيمين في ظلّ الحكم الاجنبيّ . وكانت جمهرة من الكتاب الموهوبين قد هاجرت الى تركية من مناطق الروسيا الجنوبية الآهلة بالتتار ، فراراً من العَسْف القيصري ، ليكون لها في موطنها الجديد اثرٌ حاسمٌ في نشوء مَثَل اعلى جديد يقول بالطورانية وينتظم الأتراك جميعاً . وانما وجد هذا المثلُ الأعلى تعبيرَهُ الأدبيّ الأجمل في رواية لخالدة اديب ، شاعرة تركية اللامعة في العصر الحديث . ولكن هذا المثَلَ كان خليقاً بأن لا يُحدِث – في غمرة الهيجان التي سبقت سقوط الامبراطورية القديمة – غير اثرٍ هدّامٍ . فقد انتهى برجال تركية الفتاة الى ان يصبحوا غرباء عن عرب الامبراطورية الذين قضى الاسلام بأن يتحدوا معهم ضدّ النصارى ؛ وخاصّةً بعد ان ارادوا العرب على ان يطّرحوا ثقافتهم القومية ليتعلقوا بأهداب ثقافة تركية خالصة . والواقع ان الفكرة القومية لم تستطع ان تبسط سلطانها المطلق الاّ في تركية الحديثة التي انشأها مصطفى كمال دولةً قوميةً

منكمشة على نفسها .

النهضة النسائية التركية

اما في حقل العلاقات الاجتماعية فقد نجح الحل الذي وضعه رجال تركية الفتاة لقضية المرأة نجاحاً خاصاً . فبينما كانت المرأة تتمتع في الارياف والمدن الصغرى – حتى قبل هذا العهد نفسه – بحقوق مساوية لحقوق الرجل بوصفها شريكته في العمل، فقد كانت دائرة نشاطها مقتصرةً ، في البيئات الراقية ، على البيت و « الحريم » ، حيث قضت التقاليد الاسلامية بأن تعيش في الاسر . صحيح ان عدداً قليلاً جداً من النساء التركيات ، من مثل الشاعرة خالدة اديب التي سبقت الاشارة اليها، استطعن ان يوسّعن افق ثقافتهنّ من طريق الدراسة ، على المناهج الاوروبيـــة ، في الكلية الاميركية باستانبول ، ولكنّ اياً من ابواب النشاط العامّ لم يكن مفتوحاً لهنّ في ظل النظام القديم . والحقّ ان الحرب العالمية هي التي حرّرتهنّ من هذه الاغلال بعد ان مسّت الحاجة الى اقتحامهنّ ميادين العمل ابتغاءَ ملء الفراغ الذي تركته غيبة الرجال المحاربين في الجبهة . ومن ذلك الحين والنساء التركيات يُكيّفن انفسهنّ وفقاً لحياة شقيقاتهنّ الاوروبيات ، في سرعة عجيبة ، الى ان منحتهنّ الدولة القومية الجديدة الحقوق السياسية ، وحرية العمل في جميع الحقول .

تركية في الحرب العالمية الاولى

وخاضت تركية غمار الحرب العالميـة الاولى في صف الدول الوسطى رجـــاة ان توفق معهن الى القضاء على نفوذ بريطانية

وفرنسة الراجح في الشرق الادنى . وقالواقع ان الاعمال الحربية الباهرة التي قام بها جيش الدولة التركية واسطولها الذي اشتدّ أزره بعد ان أُلحق به الطرّادان « غوبن » * و« برسلو » ** وقد أطلق عليهما الاتراك اسمي « سليم ياوُزْ » و« مِدِلْلِي » — نقول ان هذه الاعمال الباهرة استطاعت ان تُفسد الهجوم البريطاني على الدردنيل ؛ وههنا اقام مصطفى كمال، في دفاعه عن أنافورطه، دليلًا جديداً على عبقريته العسكرية اللامعة .

ليس هذا فحسب . بل ان الجيش التركي - يقوده فون در غولتز *** الذي قضى نحبه بالتيفوس في ١٩ نيسان ١٩١٦ — وفق الى ان يُوقف زحف الحملة الانكليزية الهندية على العراق ، بقيادة الجنرال تَوْنْشَنْدْ **** ، ويصدّ جيشاً بريطانياً من جيوش النجدة، ويُكره فرقة تونشند ، المحاصرة في كُوت العمارة على الاستسلام في ٢٩ نيسان سنة ١٩١٦. ولكن القوات التركية ما كانت لتستطيع الاحتفاظ بالعراق ، فترة طويلة من الزمان ، بسبب من تفوّق البريطانيين العسكري . حتى اذا وافى شهر شباط سنة ١٩١٧ كان البريطانيون قد أعادوا فتح كوت العمارة، لتسقط بغداد في ايديهم في آذار من السنة نفسها . والحق ان هذا النجاح قد ضمن لبريطانية السيطرة على آبار النفط الفارسية والعراقية، التي قادت سيولها المتدفقة، كما قال اللورد كَرْزِن *****

---

* Goben
** Breslau
*** von der Goltz
**** Townshend
***** Curzon

الحلفاء الى النصر النهائي ٣. ولم يكن ممكناً ان ينجح الهجوم الذي قامت به القوات التركية على قناة السويس ؛ ومع ذلك فأن هذه القوات وُفقت الى ان تحمل بريطانية على تجميد جزء كبير من قواتها هناك . ومهما يكن من امر فقد استطاع البريطانيون ان يتقدموا الى فلسطين ، في كانون الاول سنة ١٩١٧ . وفي الجزيرة العربية ، كان العامل البريطاني ت . إ . لورنس * قد اقنع شريف مكة – كما سنرى عند الكلام على تطوّر البلاد العربية بعدُ – بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية بعد ان اوقع في نفسه الامل بالحصول على الاستقلال السياسي . وهكذا تقدّم مع القوات العربية ، حتى العاصمة السورية ، دمشق ، في اوائل تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، ليوفق الى احتلالها بعد ان اخلاها الاتراك .

ولم يستطع الاتراك ان يحققوا انتصارات باقية الا في جبهة القوقاز [القبق] . صحيح انهم اضطروا هناك الى ان ينسحبوا من وجه الروس ، في تموز سنة ١٩١٦ ، ولكنهم ما لبثوا ان تقدموا عقب سقوط النظام القيصري عبر ارضروم ، في نوار سنة ١٩١٨ ، ليبلغوا باطوم وباكو وهما النقطتان المركزيتان لصناعة البترول .

ولكن الخسائر الضخمة التي مُنيت بها تركية طوال اربع سنوات من الحرب الدفاعية اليائسة ، ضد عدو متفوق عليها

---

(٣) انظر ايرلند W. Ireland, *Iraq*, p. 24.

* T.E. Lawrence

تفوقاً لا حدّ له ، شلت بالضرورة رغبتها في الحرب، بعد ان اضطر حلفاؤها الى ان يقطعوا كل امل لهم في الحصول على النصر النهائي. ليس هذا فحسب . بل لقد عجزت قوات الـ « يلدرم » * – وهي الجيوش التي شُكلت حديثاً في الشرق بقيادة فون فالكنهاين ** والتي كان مفروضاً فيها ان تنتزع بغداد من ايدي البريطانيين – عن انقاذ الوضع اليائس فترة اخرى من الزمان ، خاصةً بعد ان ذرّ قرن الاختلاف في وجهات النظر ، حول القضايا الستراتيجية ، بين القواد الالمان وزملائهم الاتراك. واخيراً مُهر سقوط الامبراطورية بهدنة مودروس الموقّعة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩١٨ . عندئذ غادر زعماء تركية الفتاة البلاد . فقصد أنور الى الروسيا ، ليُصرع في تركستان (٤ آب سنة ١٩٢٢) اثناء النضال الذي قام به الباسمق *** ضد البولشفيك [٤]. ووجد طلعت مَفزعاً في المانية ليُصرع بعدُ في برلين ، بيد احد الارمن. اما جمال باشا ، وزير الحرب ، فولى وجهه شطر افغانستان، حيث عُهد اليه في تنظيم الجيش ؛ حتى اذا كانت سنة ١٩٢٢ اغتاله احد الارمن في تِفْلِيس .

---

* اي « قوات الصاعقة » [المعربان]

** von Falkenhayn

*** تحريف « باصمه جي » بمعنى طبّاع . وهو اسم جماعات كانت تؤمن بالجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية . [المعربان]

(٤) راجع اخبار موته في كاستانييه : Castagné, *Les Basmatchis*, Paris, 1925, p. 60. وفي كريست : G. Krist, *Allein durchs verbotene Land*, Vienna, 1937.

كذلك كانت نهاية الامبراطورية العثمانية . لقد قضت بوصفها ممثلة لمبدأ أبلته الايام وطرحته وراءها ظهرياً ، لتنهض على انقاضها الدولة التركية القومية الحديثة التي سنحدثك حديثها في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

الحياة العقلية في الامبراطورية العثمانية ومصر
في القرن التاسع عشر

●

النهضة الصحفية والتعليمية

كانت عقلية الشعب التركي ، المتعلق بتقاليد الماضي ، أقدر على مقاومة مؤثرات الحضارة الغربية في صعيد الفكر منها على مقاومتها في شؤون السياسة والحرب ، خلال القرن التاسع عشر بطوله . وليس من شك في ان اول خطوة قام بهـــا الاتراك في سبيل الانسجام مع روح العصر الحديث كانت إنشاء صحيفة يوميـة هي « تقويم وقائع » (سنة ١٨٣١) التي ما لبثت ان أتبعت بصحف اخرى ذات نزعات ادبية من مثل « ترجمان أحوال » (سنة ١٨٦٠) و « تصوير افكـار » (سنة ١٨٦٢) . والحق ان عهد الاصـــلاح المعروف بالتنظيمات أدى ايضاً الى تعديل في نظام التعليم المدرسي والجامعي. فبينا لم يعرف العهد السابق أياً من المدارس الابتدائية - خلا مدارس تعليم القرآن - وبينا لم يكن من الممكن اكتساب أيما ثقافة اعلى إلا من طريق « المدارس » او الكليات الدينيـة ، أنشيء في سنة ١٨٥٣ مكتب خاصٌ لوضع الكتب المدرسية التي تحتاج اليها المعاهد الابتدائية . وفي سنة ١٨٦١ فُتحت اول مدرسة

عالية لتعليم البنات . ليس هذا فحسب ، بل لقد أُنشئت سنة ١٨٦٩ جامعة للدراسات العليا ، ولكنها ما لبثت ان اقفلت ابوابها بعد سنتين اثنتين تحت تأثير عاصفة من الرجعية . ولم تُكتب الحياة الا لمدرسة الطب ومدرسة الحقوق ، ليس غير .

ابراهيم شناسي

وفي ميدان الادب تعلق العثمانيون ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بالموضوعات الفارسية والاسلوب الفارسي . ولكن عدداً من الشبان الموهوبين ما لبثوا ان وُجّهوا ، اثر حركة الاصلاح التعليمي ، الى باريس استكمالاً لدراستهم . وكان بين هؤلاء ابراهيم شناسي الذي عكف هناك على دراسة الادب الفرنسي ، في المحل الاول. وبعد ان قضى شناسي خمس سنوات في باريس ، حيث شارك على ما يقال في ثورة سنة ١٨٤٨ ، استدعي لرئاسة ادارة التربية والتعليم ، ولكنه ما لبث ان استقال من الوظيفة الحكومية ليعمل في اول جريدة تركية غير حكومية ، « ترجمان أحوال » التي أُنشئت سنة ١٨٦٠ . وفي سنة ١٨٦٢ أنشأ جريدة خاصة به دعاها « تصوير أفكار » ، فثبتت لجميع الزعازع السياسية حتى سنة ١٩٢٥ عندما ألغاها مصطفى كمال . والحق ان شناسي أدى ، خلال نشاطه الصحفي ، خدمات جليلة الى لغة الكتابة التركية ، هذه اللغة التي حررها من التكلف وعاد بها الى سهولة العبارة التي تمتاز بها لغة الشعب . وفي سنة ١٨٥٩ نشر اول ترجمة تركية لمختارات من النثر والشعر الفرنسيين مع اصولها على صفحات متقابلة (احدى عشرة صفحة في كل من اللغتين) .

وقد اظهرت هذه النشرة لمثقفي الاتراك ان الافكار التي يعرفونها جيداً في اصولها الفرنجية يمكن ان يُعبّر عنها في لغتهم الوطنية ايضاً ، ومن هنا ازدهرت حركة الترجمة عن الآداب العالمية . اما موهبة شناسي الشعرية فلم تكن عظيمة ، وهو لم يفارق في منظومه عمود الاسلوب القديم . ومع ذلك فقد كان صاحب اول كوميديا في الأدب التركي ، وقد دعاها [« شاعر أو النمسي »] أي « زفاف الشاعر » ، وعالج فيها مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التي كثرت مناقشتها في الادب منذ ذلك الحين .

نامق كمال

ولقيت محاولات شناسي ارضاً خصبة : فقد ادرك جمهور المتأدبين ان عهد الأدب القديم امسى خبراً ماضياً . وهكذا ولى الكتاب الناشئون وجوههم جميعاً شطر الحركة الجديدة . وواصل ضيا باشا تنقيته للغة التركية في ما نقل عن روسّو وموليير . ولكن اعظم مريدي شناسي وتلاميذه هو نامق كمال الذي عهد اليه ابراهيم في تحرير صحيفته عندما سافر الى باريس سنة ١٨٦٤ . وكان نامق كمال يقول بان اقتباس الافكار الفرنسية ليس كافياً ، وبان الادب يجب ان يتجه نحو معالجة الموضوعات « الاهلية » لكي يُحدث اثره في نفوس الناس . ولكن نشاطه السياسي حال دون انصرافه الى الانتاج الادبي . ولما كان قد التحق بجمعية تركية الفتاة التي اسسها ضيا ، فقد اضطر الى ان يفر معه الى لندن سنة ١٨٦٦ . ولم يتمكن من العودة الى الوطن الا بعد وفاة عالي باشا الصدر الاعظم ، سنة ١٨٧١ . وفي السنوات الاخيرة العاصفة من

حكم عبد العزيز ، عندما كان البلقان كله يغلي كالمرجل على النار ، نشر (سنة ١٨٧٢) درامة بعنوان [« وطن ياخود سِلِسْتْرَه »] اي « الوطن او سلستره » مجدت الدفاع عن هذا المعقل الحصين ضد الروس ، سنة ١٨٥٤ ، وعرّفت الاتراك ، لاول مرة ، الى فكرة الوطن المستقل عن شخص السلطان . والحق ان المسرحية أثارت عاصفة عنيفة من الحماسة الوطنية ، حتى لقد اعتدّتها الحكومة خطراً يجب تلافيه ، واصدرت قراراً بمنعها بعد ان مُثلت مرتين ، ونفت الشاعر الى قبرص . وكان عبد الحميد اقل احتمالاً لنقده وللصفة الوطنية والنزعة الشعبية اللتين يتميز بهما فنه ، ومن هنا حرص على ان يبقيه ابداً بعيداً عن العاصمة - وان يكن قد اعتبر نفيه غير شائن اذ عينه آخر الامر متصرفاً (حاكماً) على خِيُوس (ساقز) . ولكن مؤلفاته خلدت افكاره ، فكان لها اثر كبير في ابلاغ حركة تركية الفتاة الى هدفها .

عبد الحق حامد

والواقع ان المثُل العليا الفنية التي اضطر نامق كمال الى ان يضحي بها ، في كثير من الاحيان ، على مذبح اغراضه السياسية انما حققها تلميذه عبد الحق حامد الذي قُدر له ان يخدم بلاده ، من طريق العمل في السلك السياسي ، في باريس ولندن وبروكسل ، وان يسعد ويبتهج - حتى وفاته في ١٢ نيسان سنة ١٩٣٧ ، وهو في السادسة والثمانين من عمره - بقيام الدولة التركية القومية على انقاض الامبراطورية العتيقة . والحق ان مسرحياته المتأثرة في المقام الاول بالروائع الكلاسيكية الفرنسية ، وان تكن قد تأثرت بشكسبير

ايضاً ، قد فتحت ـ بالاضافة الى شعره الغنائي ـ سبلاً جديدة للادب التركي برغم استمدادها من ينابيع الحياة الوجدانية المنبثقة من الثقافة الاوروبية باكثر من استمدادها من تلك المنبثقة من الثقافة التركية .

الأدب التركي يتجه نحو الشعب

ولم يعدم الأدب التركي رجالاً سعوا جهدهم الى توجيهه وجهة شعبية خالصة . فقد كان النثر الوحيد الموثوق من تركيته ، والشائع بين جماهير الشعب ، وان تكن الطبقات المثقفة تزدريه حتى ذلك الحين وتنظر اليه شزراً ، هو ذلك الذي غذاه القُصاص الشعبيون المعروفون باسم « مَدّاحلر » * ، في قصصهم المنتزعة من حياة الشعب اليومية . فلم يكن من احمد مِدْحت الا ان ادخل فنهم هذا الى هيكل الادب . صحيح انه اعتمد في كتابه « لطائف روايت » اعتماداً كبيراً على الموضوعات الفرنسية ولكنه حشد فيه ثروة من الملاحظات التفصيلية الدقيقة التي انتزعها من الحياة الواقعية ، والتي احسن صوغها في قالب خلاب . ثم جاء محمد توفيق ففتح باب الادب للموضوعات الوطنية الصحيحة ، في كتابه « استانبول دَرْ بِيرسَنه » (سنة في استانبول) الذي يصور حياة الشعب في العاصمة ، هذه الحياة التي لم يكن الفساد قد تطرّق اليها بعد ، كما يصور احاديث النساء البهجة في ليالي الشتاء المتطاولة ، وصَخب المقاهي المرح ، والنزهات الى « كآغد خانه » الاوروبية في اقصى القرن الذهبي . بيد ان حسين رَحْمِي نفذ الى حياة الشعب

* « مداحلر » جمع مداح . [المعربان]

نفاذاً ابعد واعمق ، وهو مدينٌ بثقافتـــه – التي حَملته في صعيد الوظائف الرسمية الى مديرية سجلّ الضرائب غير المباشرة – لمدارس استانبول الحديثة دون غيرها ؛ ولم يتعلم قط اللغة الفرنسية. وكان بوصفه من ابناء الشعب مولعاً ، بخاصة ، بتمجيد طبقـــة الفلاحين الاناضوليين الاقحـاح ، امل البلاد ومعقد رجائها . ولكنه صوّر هذا الشعب كما كان في الواقع ، ولم يحجم عن الاختلاط بافراده اختلاطاً عميقاً وعن معرفتهم عن كثب . وهو يشارك من سبقه من الكتاب نزعتهم التهذيبيـة وتشاؤمهم العميق اللذين لم يَبقيا عنده مجرد محاكاةٍ وجدانية للغربيين ، بل انبثقا عن ظروفه الخاصة فهما أصيلان أبعد ما تكون الأصالة .

وفي دنيا الشعر الغنـــائي ايضاً تحرر الاتراك من القيود الكلاسيكية الثقيلة . فأضاف محمود اكرم الاغاني الشعبية الوطنية الى الادب ، بعد ان رفع من شأنها من طريق افراغها في قالَبَيْ الـ *ballad* والـ *romance* الفرنجيين . وانما أوفى هذا اللون الغنائي الشعبي على الغاية في قصائد محمد امين ، وكان ابن صياد استانبولي ، تلك القصائد التي رافقت حركة تركية الفتاة وانتصاراتها .

السعي الى تنقية اللغة التركيـة

واقترنت هذه الآمال الوطنية بنزعة عارمـــة ، لم تكن من قبل ، الى التحقق بالصفاء اللغوي ، هذه النزعة التي تميز بها ، علـى الخصوص ، سامي فـرَاشري . فبعد ان اطّرح اسلوب الكتاب الكلاسيكيين القدماء المثقل بضروب الصناعة واستعيض منه بلغة الشعب البسيطة قامت محاولة جديدة الى تحرير اللغة التركية شيئاً

فشيئاً مما أثقل كاهلها من الكلمات الاجنبية غير الضرورية ، من عربية وفارسية ، وكانت قد اجتاحت المفردات التركية التي اردرى بها اصحاب الأدب القديم واعتبروها عاميّة يجب اجتنابها. وهكذا نشرَ احمد جودت محرر مجلة « إقدام » ذات المكانة الكبرى ، والمتوفى سنة ١٨٨٠ ، نصّ كتاب نَوَائي وترجمته الى التركية ، وهو الكتاب الذي مجّد فيه صاحبه اللغة التركية ، على حساب العربية ، في بلاط التيموريين في هَراة . والواقع أن هذه المحاولة ذهبت في بعض الأحيان الى ابعد من ذلك فعملت على اطّراح الكلمات الاجنبية التي انتهت مع الايام الى ان تكون جزءاً لا يتجزأ من اللغة الوطنية لتُستبدل بها كلماتٌ تركية ماتت منذ زمن طويل . ومهما يكن من شيء فليس من شك في ان جهود القائلين بتنقية اللغة التركية كانت — برغم هذه المغالاة — ذات اساس سليم ، ولم تمضِ من غير ما نجاح .

خالد ضيا يضع اساس الرواية التركية الحديثة

وفي اواخر عهد السلطان عبد الحميد تعيّن على الأدب ان يواجه مصاعب كبرى . ذلك ان هذا السلطان كان يخشى رجال تركية الفتاة بوصفهم اعداء سلطته الفردية ، ومن هنا كان أيسر على بطانته — كلما سعى الى اعتزال الناس في قصره ، « يلدز » — أن يُدخلوا إلى نفسه الشكّ في الحركات التقدّمية السليمة التي تمخّض بها شعبه . والواقع ان ما لم يفرضه ممثلو الشعب على انفسهم طوعاً واختياراً من سكوت ، فرضته عليهم رقابة مُضنية قاتلة الى ابعد الحدود . فقد عمدت السلطة الى شلّ نشاطهم من طريق

هذه المراقبة ، فمنعت ، مثلاً ، ترجمة « ولهلم تلّ » * ، ولم تسمح حتى باستعمال كلمة « وطن » . وهكذا فان الأدب التركي ، الذي ضَرَبَ خلال هذه السنوات على غرار الشعر الفرنسي المعاصر واتخذ لنفسه شعاراً هو « الفنّ للفنّ » ، لم يُنتج غير ثمرات تغلب عليها نزعة عاطفية مريضة متشائمة . وقد اجتمع ممثلو هذا الأدب حول مجلة « ثروت فنون » التي نشر فيها خالد ضيا روايتيه [ماوي وسِيَاه] أي « الازرق والاسود » [وعَشْق ممنوع] اي « الحب الممنوع » اللتين وضعتا الأساس الحقيقي – رغم اسلوبهما الصناعيّ – لهذا الفنّ الأدبي ، عند الاتراك . ولا بدّ لنا من ان نذكر ، الى جانب خالد ضيا هذا ، احمد حكمت الذي انتزع إعجاب القراء بأقاصيصه الخيالية المُفْرَغة في اسلوب بسيط ، والتي تجري حوادثها في عوالم من الخرافة ، في الأعمّ الأغلب .

القومية التركية الجديدة واثرها في الأدب

ولم يكد رجال تركية الفتاة يتولون زمام الأحكام حتى حرّروا الأدب من قيود الرقابة الثقيلة . فلم يُقم على الولاء للمُثُل الجَمالية الخالصة التي شاعت في العهد السابق غير عددٍ قليل من الشعراء ، نجتزيء ههنا بالاشارة الى واحد منهم ، ليس غير ، هو احمد هاشم الشاعر الغنائي . وهكذا برز الى حيز الوجود ادب قومي فتيّ ما لبث ان اتخذ سبيله نحو التطور النشيط المستمر .

---

* وهي اسطورة احد الرماة المشهورين ، وقد وفق الى ان يتخلص من الطاغية بعد ان اصاب التفاحة التي كان الملك قد وضعها على رأس ابنه وامره بأن يرميها بنشابه . [المعربان]

وبعد فترة قصيرة من قيام ثورة تركية الفتاة هذه تأسست جمعية « تورك درنكي » التي خلفتها بعد اربع سنوات ، عام ١٩١٢ ، جماعة «المُسْتَوْقَد التركي» (تورك اوجاغي) وكانت اكثر من سابقتها نشاطاً . والحقّ ان مجلة هذه الجماعة « تورك يُورْدِي » (الوطن التركي) لم تدافع عن المثل الاعلى الجديد للقومية التركية من طريق الادب فحسب ، بل من طريق الدراسة التاريخية العميقة ايضاً . وقد نافسَ العثمانيين في تكوين الافكار الجديدة — كما رأينا سابقاً — عددٌ من الكتّاب التتار الهاربين من الروسيا القيصرية . ولكن الخلفاء ما لبثوا أن اعتبروا قائد هذه الحركة ، ضيا گوك آلب ، خطراً عليهم فنفوه بعد احتلال استانبول ، الى مالطة . ولقد استطاع بقصيدته الرمزية « قِزِل ألما » ، وعلى الأخص بدروسه في الجامعة الجديدة ، التي اسست اثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم بمحاضراته المتعدّدة أن يُلهب نفوس الشباب بالمثل القومي الأعلى الذي عبّرت عنه الشاعرة خالدة اديب ، أجمل تعبير ، في روايتها « طوران » . ولم تستطع الكارثة التي حلّت بتركية عند انتهاء الحرب أن تقضي على هذه الحركة . ولسوف نرى بعدُ أنها نهضت نهضةً عارمةً في ظلّ الدولة التركية الجديدة .

الحياة الأدبية في سورية ومصر

ولئن استطاع الاحتكاك بالحضارة الأوروبية أن يؤدّي تدريجياً الى وقوع انقلاب شامل في الحياة الادبية في تركية نفسها ، لقد كانت المُثُل القديمة أقدر على الثبات مدةً أطول في البلدان

العربية – على الرغم من ان هذه البلدان خضعت لمؤثرات اوروبية أقدم واكثر رسوخاً – فلم يتطرّق إليها الضعف ، شيئاً فشيئاً ، إلاّ في الفترة التي عقبت الحرب العالمية الأولى . والحقّ أن انفصال مصر السياسيّ عن الامبراطورية العثمانية التي ظلت سائر البلدان العربية ، ما خلا شمالي افريقية ، خاضعةً لها قد حالَ دون تطوّر الأدب العربيّ تطوّراً موحّداً . اضف الى ذلك أنه لم تكن هنالك اهداف وطنية مشتركة تجمع مابين المسلمين ومواطنيهم من النصارى الذين كانوا أكثر نشاطاً من الناحية العقلية . وفي مصر كانت الطبقة الحاكمة من اسرة محمد علي واتباعها تُعْنَى بالادب التركي اكثر مما تُعْنَى بالأدب العربيّ . ومن ميزات هذه الفترة أن المطابع التي انشأتها الحكومة في القاهرة لم تطبع الانظمة العسكرية باللغة التركية فحسب ، بل طبعت فوق ذلك سلسلةً كاملةً من آثار الأدب التركي الكلاسيكية قبل ان تفكر في إسْباغ هذا الشرف على الأدب العربيّ . أما في سورية فكان الموارنة – ومعظمهم من العاملين في خدمة البعثات النصرانية التي أسست الجامعة الاميركية في بيروت ومنافستها جامعة القديس يوسف اليسوعية – يتنافسون في إحياء الأدب القديم والعودة باللغة الفصحى الى صفائها الأوّل ، وقد اعتمدوا في المحلّ الأوّل على عمل ناصيف اليازجي (ت سنة ١٨٧١ في بيروت) الذي حاول ان يقلد في شعره ابا الطيب المتنبي ، وان يترسّم في مقاماته خطى الحريري . أما المحاولة التي قام بها مارون النقاش (ت سنة ١٨٥٥ في بيروت) بسبيل خلق مسرحية على الطريقة الفرنسية ، ولكنها

ذات موضوعات شرقية ، فقد ظلّت فريدة ولم تجد من يقلّدها . والواقع أن الرقابة التركية حالت دون تطوّر الصحافة في سورية بما فرضته عليها من قيود تعدل قساوتها تلك التي فُرضت على صحافة استانبول . وهكذا آثر كثيرٌ من الصحفيين الموهوبين الاقامة في مصر ، وخاصةً لأن السلطات البريطانية كانت قد منحت الصحافة هناك حريةً اكبر وأوسع . وإنما يَتمثّل الأدب العربيّ في سورية ، في ظل عبد الحميد ، [بيوسف بن اسماعيل] النَّبْهاني ، رئيس محكمة الحقوق في بيروت [حتى عام ١٩٢٦] الذي كان صديقاً لأبي الهدى ، إمام السلطان ، والذي تكشّف عن نشاطٍ أدبيّ خِصْب جداً ، صادرٍ عن روح الاسلام القديم ، ابتغاءَ وقايته من تيارات اوروبة المسيحية .

وفي مصر حمل المسلمون لواء الأدب العربيّ وحدهم بادىء الأمر ، بَيْنما لم يبرز الأقباط إلى هذا الميدان إلاّ في ظلّ الأحداث السياسية الجديدة التي مرّت بمصر بعد الحرب العالمية الأولى . وليس من شك في انّ إقبال محمد عليّ على الحضارة الاوروبية قد ادّى الى ازدهار حركة النقل والترجمة : فبالأضافة الى المؤلفات التّقنيّة * والعلمية التي اتجهت الرغبة اليها بادىء الأمر ، ما لبثت ان ظهرت مجموعة ضخمة من الروايات الفرنسية التي تُرجمت في الأعمّ الاغلب من غير ما تخيُّر فسيطرت في كثير من الأحيان على ذوق الجمهور ، وقامت عقبةً في سبيل نموّ الفنون الوطنية وازدهارها . بيد ان هناك عملاً فريداً لم يُقدم احدٌ على

* technical

تقليده ، أعني ترجمة الأليادة التي نهض بعبئهـــا الاديب السوري سليمان البستاني ، مُراوِحاً ما بين البحور العربية في أجزاء النشيد الواحـد، والتي أحسنت خلقَ الجوّ الملحميّ ولكنها لم تستطع ، إلا نادراً ، تقريبَ هذا الموضوع الغريب الى جمهور القرّاء العرب، على الرغم مما حفِلت به من حواشٍ متعددة تنمّ عن علم غزير . أما في في عالم الشعر فقد طغت النزعة الى تقليد امراء الشعر الكلاسيكي في العصر العباسي عنـــد وزير الحرب [محمود] سامي البارودي الذي نفاه الانكليز عقب الثورة العرابيـــة الى سيلان ليعود الى وطنه وهو شيخٌ كبير . ولقد وُفّق في منفاه الى ان يصوّر ما كان يَعْتورُهُ من حزن وضيق تصويراً مُبدِعاً مؤثّراً . وتحدّر البارودي من اسرة تركيـــة ، كذلك اختلط الدم العربي بالدم التركي في عروق شاعر الخديوي ، أحمد شوقي ، الذي جازاه الانكليز على مدح سيده ، في اثناء الحرب العـــالمية الاولى ، بالنفـــي الى اسبانيـــة . وكان هـذا الشاعر غارقـــاً في لُجَج التقليد ايضاً ، ولم يشقّ لشعره سبلاً جديدةً إلا بعد الحرب العالمية الاولى. وفي ميدان النثر القصصي سادت روايات الاديب السوري جرجي زيدان الدائرة على محور التاريخ الاسلامي ، هذه الروايات التي لم تكن ابداً عميقة جداً ولكنها استطاعت مع ذلك ان تستحوذ على القرّاء بأسلوبها السهل وتصويرها الرافل بالخيال ، وهكذا مهدت السبيلَ لازدهار هذا الفنّ في فترة ما بعد الحرب. وسعى زيدان، فوق ذلك ، لتعريف العرب بثمرات البحث الاوروبي في التاريخ وعلم الاجتماع . وفي مصر ايضاً لم تَنْمُ المسرحية إلا نموّاً بطيئاً

بسبب من فقدان أيّما تقليد سابق . وقد اقتصر النجاح الحقيقي على التمثيليات الفرنسية ذات الاسلوب الخفيف ، وإن لم يعدم المسرح محاولات لتقديم المآسي الفرنسية الكلاسيكية الى جمهور النظارة . وقد قام عثمان جلال (١٨٢٩ — ١٨٩٨) بمثل هذه المحاولة ، ولكنه ما لبث ان ولّى وجهه شطر ملاهي موليير ليعدّل موضوعاتها تعديلاً بارعاً يتفق والاحوال المصرية ابتغاء جعل هذه الملاهي سائغةً في نفوس مواطنيه . والواقع انه ابتدع في عمله هذا بدعةً جديدة فاصطنع اللهجة العامية بدلاً من اللغة الفصحى التي كانت لا تزال سائدة المسرح المصري سيادة مطلقة ؛ ولكن نجاحه هنا كان ضئيلاً جداً ، فلم تمثّل رواياته حتى سنة ١٩١٢ لتغيب وشيكاً عن المسرح . وفي ميدان الصحافة التي نمت في مصر نموّاً كبيراً نشأ اسلوب نثري جديد اصطنعه السياسيون الذين ظهروا في ظلّ الحكم البريطاني وسيلةً من وسائل الدعاية لهم . ومن هؤلاء السياسيين الذين تجب الاشارة اليهم هنا قاسم أمين (ت . سنة ١٩٠٨) الذي أدى صدور كتابَيْه « تحرير المرأة » (١٨٩٩) و « المرأة الجديدة » (١٩٠١) الى طرح مشكلة المرأة على بساط البحث في طول العالم الاسلامي وعرضه . حتي إذا مضت تركية قُدُماً في حلّ هذه المشكلة حلاً عملياً ، لم يُحجم المجتمع المصري عن ترسّم الخُطى التركية ، في تردّد لم يلبث أن اقترن بنجاح ثابت .

حركة التجديد الديني : جمال الدين الافغاني

ومهما يكن من أمر فقد كان الاسلام ولا يزال هو المهيمن

على الحياة الدينية في مصر . وانما يرجع الفضل في ذلك ، في المحل الاوّل، إلى تأثير جمال الدين ، وهو فارسيّ آثرَ لاغراض سياسية ان ينتسب الى الأفغان حيث قضى سِني شبابه . حتى اذا اضطر سنة ١٨٧٠ الى ان يغادر الافغان بعد موت حاميه ، الأمير دُوْست محمد ، قصد أولَ ما قصد الى استانبول ، وكانت شهرته كعالم عظيم قد سبقته الى هناك ، على الرغم من انه لم يكن قد نشر أيّما كتاب ، فاستُقْبِل استقبالاً وديّاً من قِبل الحكومة والاوساط العلمية ، هذه الاوساط التي استطاع ان يُحْدِث فيها تأثيراً بعيداً بما ألقى من دروس ومحاضرات في الجامعة المنشأة حديثاً . ومهما يكن من أمر فقد نجح شيخ الأسلام في إثارة الشكّ حوله كمفكّر حرّ ، وفي اقصائه عن العاصمة . ثم إنه انتقل الى القاهرة حيث استُقْبل استقبالاً حاراً . وهنا نشطَ جمال الدين في حرّية ، ومن غير ان تكون له صفة رسمية ، حتى الثورة العرابية ، وبعث في نفوس الشبان المصريين الأملَ في التحرّر من السيادة الاوروبية إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه العلمية ابتغاء الدفاع عن الاسلام بوصفه ديناً اكثر إمعاناً في مضمار الرقيّ . وبعد الاحتلال البريطاني نُفي الى الهند ، حتى إذا كانت سنة ١٨٨٣ صار في ميسوره الذهاب الى باريس حيث اصدر هو وتلميذه [الشيخ] محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » الاسبوعية التي كانت عظيمة الاثر الى ابعد الحدود ، على الرغم من أنها لم تعش غير فترة قصيرة . وسنتحدث عن مصايره في ما بعد عند كلامنا على تاريخ فارس .

وفي سنة ١٨٨٥ رجع تلميذه [الشيخ] محمد عبده الى بيروت ، ثمّ الى وطنه مصر ، سنة ١٨٨٨ ، حيث رحّب به مواطنوه بوصفه رسول الحريّة اليهم . وقد بدأ نشاطه الرسمي كقاضٍ في المحاكم الاهلية ، ليعيّن سنة ١٨٩٩ مفتياً للديار المصرية . وكان له ، حتى وفاته في ١١ تموز سنة ١٩٠٥ ، أثرٌ بعيدٌ في إصلاح القضاء وفي مناهج التعليم بالجامعة الازهرية القديمة ايضاً . والواقع انه أسس حركة التجديد في الاسلام ، هذه الحركة التي هدفت الى الرجوع الى تعاليم الرسول ابتغاءَ تصفيتها من كلّ ما علق بها بعدُ من زيادات غريبة عنها ، وبذلك يُقام الدليل على قدرتها على الحياة حتى في العالم الشرقيّ الذي غيّرت مدنية الغرب وجهه تغييراً كبيراً . ولا تزال آراء محمد عبده تهيمن على الحياة الدينية المصرية حتى اليوم (٥) .

(٥) راجع آدمز Ch. C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt*, London, 1933.

وانظر ايضاً جب H. A. R. Gibb, *Modern Trends in Islam*, Chicago, 1947.

شمالي افريقيّة

•

طرابلس الغرب

منذ ان فتح العثمانيون شمالي إفريقية في القرن السادس عشر وطرابلسُ الغرب وتونُس والجزائر خاضعةٌ لحكام إقليميين يحملون ألقاب « باشا » و «باي» و« داي » ويتمتعون بقسط من الاستقلال عن الحكومة المركزية باستانبول اكبر من ذلك الذي تمتع به باشاوات مصر وسورية انفسهم ، لان السلطان لم يكن يملك ، منذ القرن السابع عشر ، اسطولاً ذا غَناء . وفي نوّار سنة ١٨٣٥ توفي يوسف ، باشا طرابلس الغرب ، وهو ينتسب الى عشيرة قَرَمَانية حكمت تلك الديار منـــذ عام ١٧١١ .عندئذ تنازع خلافتهُ رجلان من ذوي قرباه ،اعتمد احدهما على النفوذ الفرنسي واعتمد ثانيهما عـــلى النفوذ البريطاني ، وكانت كلٌ من فرنسة وبريطانية قد اتخذت موطيء قدم لها في البلاد بعد حملة نابوليون على مصر . ثم إن الفريقين المتنازعين ارتضيا الاحتكامَ الى الباب العالي ، الذي ابتهج بهذه الفرصة المواتية لاستعادة سلطته المفقودة في هذا الجزء النائي من الامبراطورية . فسيّر قسماً من اسطوله الى طرابلس وعيّن الفريق الذي تحميه فرنسة حاكماً عليها . حتى

اذا قصدَ هذا الاخير الى استانبول ليتسلّم براءة التعيين بنفسه اعتُقِل كأسير سياسي وبُعِث بمحمد رؤوف باشا ليحلّ محله في حكم طرابلس . ولكن المطالب الآخر بالعرش ما لبث ان شقّ عصا الطاعة عليه وحاصرَه في قلعة طرابلس التي لم تقوَ على المقاومة إلا في صعوبة وعُسر . ولم يوفق الاتراك الى إخضاع الاقسام الداخلية من البلاد ، كرّة أخرى ، إلا عندما هبّ امير البحر الكبير لنجدتهم على رأس عمارة بحرية في شهر نيسان سنة ١٨٣٦ . ثم ان حسن باشا الذي تولى مقاليد الولاية في السنة التالية — وكان رجلاً حكيماً — وُفق الى إقناع البربر ، النازلين في المناطق الوعرة التي لا يمكن بلوغها ، بالاعتراف بسلطة الباب العالي ولو اسمياً . وما لبثت ان تكوّنت في المدينة ، في ظلّ الحكم التركي ، جالية ايطالية ناشطة ؛ وقد حدّثناك ، في الفصل الاول من هذا الجزء ، عن استيلاء الايطاليين على البلاد سنة ١٩١١ — ١٩١٢ .

الفرنسيون يفتحون الجزائر

وكان « بايات » تونس و« دايات » الجزائر قد مارسوا هم وأصحاب طرابلس القَرَمانيون وحكام مَرّاكُش ، حتى مطلع القرن التاسع عشر ، أعمالَ القرصنة في جِدّ ودأب ؛ وكان المسلمون ينظرون الى هذه الاعمال ، بوصفها موجهة ضد النصارى ، نظرتهم الى حرب مقدّسة يحظى المشاركون فيها بأجر عظيم . ولم توفق الدول النصرانية يوماً الى ان تقوم بعمل مشترك ضدّهم ، ولكنها آثرت أن تضمن كلٌ منها حرية الملاحة لسفنها — مستقلة عن الاخرى — من طريق جزية تدفعها اليهم . وفي اواخر القرن

الثامن عشر ذهبت فرنسة الى ابعد من ذلك ، فأنشأت علاقات ودّية مع « داي » الجزائر . وعندما اخذ نابوليون في الاستعداد لحملته على مصر أمدّه الداي بمقادير من الحنطة . ولكن الفريقين لم يتوصّلا الى اتفاق على دفع ثمن هذه الامدادات . وكان قد قام بالمفاوضات لعقد هذه الصفقة التجارية شركتان يهوديتان ، هما شركة بَكري وابي زِناك *،(وكان رئيسها ، ويدعى نَفْتالي قد سيطر على البلاد وامتصّ خيراتها منذ سنة ١٧٨٠ ، حتى اذا كانت سنة ١٨٠٥ ثار عليه الانكشارية فقتلوه مع كثير من اليهود إخوانه في الدين) . وبعد دعاوى استغرقت سنوات طويلة مُنحت الشركتان ، في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨١٩ ، مبلغ سبعة ملايين فرنك . ولكن دائنيها حجزوا على هذه الاموال في فرنسة ، في حين طالب الداي بأن يُصار الى دفع القيمة الى ممثّله [وكيل الشركتين] مباشرة . وهكذا شرع يوقف السفنَ الفرنسية في عرض البحر ويعرقل اعمال البيوتات التجارية في بلاده . وقد صب نقمته ، بصورة خاصة ، على القنصل ، ديڤال ** الذي كان الداي يعتبره المسؤول الحقيقي عن هذه المماطلة . وفي صباح عيد الفطر ، ٣٠ نيسان ١٨٢٠ ، فقدَ الداي السيطرة على أعصابه ، بينما كان يستقبل رجال السلك السياسي ، فضرب ديڤال بخيزرانة [بمروحته] *** وطرَدَه . حتى إذا أبى ان يقدّم

---

* Busnach وتلفظ عادة « بوزناك » . [المعربان]

** Deval

*** هكذا في « تحفة الزائر » لمحمد الجزائري ج ١ ص ٨٢ [المعربان]

الترضية المطلوبة طوّقت فرنسة شواطىء الجزائر طوال سنتين . واذ كانت الحكومة الفرنسية راغبةً في اجتناب الحرب فقد تساهلت في مفاوضاتها مع الداي ، الذي عدّ هذا التساهل من فرنسة عجزاً . وفي تموز سنة ١٨٢٩ وقع حادث جديد. وتفصيل ذلك ان قائد السفينة لا بروڤانس * ، كان يفاوض في الجزائر، على غير طائل ؛ وبينا كان يغادر المرفأ أُطلقت عليه النار من إحدى القلاع . ولم يكن في وسع فرنسة ان تَسْكت عن هذه الاهانة الجديدة . ففي ٢٥ نوار سنة ١٨٣٠ أقلع وزير الحرب ، دي بورمون ** ، بنفسه من مرسيليا على رأس ستمائة سفينة شراعية وسبع بواخر صغيرة تُقلّ جيشاً من ثلاثين الف مقاتل الى إفريقية . وفي ١٤ حزيران وطىء الفرنسيون ارض الجزائر ؛ وما هي الا اربعة اسابيع حتى اضطر الداي الى الاستسلام . ثم ان دي بورمون احتلّ وَهْران وبُونه من جهة البحر وتوغل في البلاد حتى بلغ بُلَيْدَةَ القائمة على سفح الاطلس الصغير . وفي هذه الاثناء اندلعت ثورة تموز في باريس ، وعُيّن الجنرال كلوزيل *** محلّ دي بورمون. ووطيء كلوزيل هذا ارض الجزائر في ٢ ايلول ؛ وسعى في الحال الى استعمار البلاد . فما وافى شهرُ تشرين الاول حتى كان قد انشأ المزرعة النموذجية الاولى. ثم انه قدّم مقاطعة قُسَنطينة الى باي تونس غير محتفظ لفرنسة الا بسهل مَتِيجَة الخصب في ضواحي الجزائر . ولكن هذا التصرّف الاعتباطيّ أثار نقمة باريس

* *La Provence* ** de Bourmont *** Clauzel

عليه فأقيل من منصبه في مطلع السنة التالية . أمـــا خلفاؤه في القيادة فقـد انفقوا قواهم ، على العموم ، في مناوشات صغيرة مع العرب والبربر . والواقع ان الحكومة اوشكت على التخلّي عن المستعمرة بسبب من خوفهـــا من بريطانية خوفاً مردّه الى الجبن قبل كل شيء .

الأمير عبد القادر يعلن الجهاد

وفي هذه الاثناء عمّت الفوضى مقاطعة وَهْران ، فاستغلها مغامر شابّ يدعى عبد القادر . وكان عبد القادر هـذا ابن أحد المرابطين ، وكان قد أدّى فريضة الحج الى مكة مرّتين . واذ كان ، إلى تقواه ، بارعاً وشجاعاً فقد وضعت قبيلتا هاشم وعامر انفسها — بعد أن تعبتا من الخصومة المستمرّة — تحت إمرته على الرغم من حداثة سنه ، فقد كان عمره لا يتجاوز الثانية والعشرين . وما هي إلا فترة ، حتى وُفق الى إقصاء الزعمـــاء الآخرين عن الميدان . ثم إنه تسمّى بأمير المؤمنين ودعا الى الجهاد ضـــدّ الفرنسيين . فدخل الجنرال دي ميشال * ، قائد وهران ، في مفاوضات معه ، ولكن خَلَفه الجنرال تريزل ** استخفّ بقوته فحاول الاستيلاء على الجزء الداخلي من البلاد بقوات هزيلة . وفي ٢٦ تموز سنة ١٨٣٥ مني القائد الفرنسي بهزيمـــة شنعاء عندَ نهر المقطَع *** ، ومن ذلك الحين عُدّ عبد القادر ، في طول إفريقية الشمالية وعرضها ، حامي الاسلام ومنقذه .

---

* Desmichel

** Trézel

*** ويعرف ايضاً بنهر « هبرة » [المعربان]

وفي غمرة من هذه المحنة عيّنت الحكومة الفرنسية الجنرال كلوزيل حاكماً عامّاً ، كرهً أخرى ، في شهر آب سنة ١٨٣٥ . فوفق الى ان يُخرج عبد القادر من عاصمته مَعَسْكَر ، والى أن يُنجد الاتراك الذين كان جنود عبدالقادر يحاصرونهم في تِلِمْسان. واذ احجمت الحكومة الفرنسية عن تحمل نفقات حملة عسكرية كبيرة ، فقد تعين عليه ان يجتزىء بفتح قُسَنطينة . والواقع ان شاباً من الطامحين الى الحكم وعد كلوزيل بان ينصره على الباي الذي كان يحكمها ، والذي كان قد حصل على لقب باشا من الباب العالي ولكنه اكتسب كره رعاياه وعداءهم بما ابتزّ من اموالهم . وحسب كلوزيل ان في ميسوره الاستيلاء على البلاد بسبعة آلاف مقاتل ، ولكنه اضطر في تشرين الثاني الى ان يرجع ، بعد قتال عنيد ، بخفّي حنين ، ليعين محله ، بسبب من هذا الاخفاق الجنرال دامريمون * (شباط ، سنة ١٨٣٧) .

وكان الجنرال بوجو ** قد حمل ، في اثناء ذلك ، حملة موفقة على عبد القادر الذي ما انفك ينزل ضرباته بالمواقع الفرنسية في الغرب . ولكن لما كانت الحكومة راغبة في ان تغسل ، اول الامر ، العار اللاحق بها في قسنطينة فقد اضطر بوجو الى ان يعقد مع عبد القادر ، عند نهر تافْنا (٣١ نوار) ، معاهدة صلح لم تكن في صالح فرنسة على الاطلاق، ذلك بان عبد القادر لم يسترد بموجبها مَعَسكر فحسب بل مقاطعة وهران برمتها تقريباً وجزءاً كبيراً

Damrémont *

Bugeaud **

من مقاطعة الجزائر . ومهما يكن من أمر ، فقد بسط عبد القادر سلطانه ، بالاضافة الى ذلك في اتجاه الشرق ايضاً بان اقام حاكماً على كل من عَجانة وزِيبَان و لَغْوَاط * كذلك تقدم في الصحراء ، واقتحم في تشرين الثاني سنة ١٨٣٨ ، بعد حصار دام خمسة اشهر ، حصن [عين ماضي] وكان صاحبه مرابطاً يدعى محمد التُّجيني ، وكان محمد هذا قد ناهضه استناداً الى نفوذه بين البربر . ولقد سعى عبد القادر ، قبل كل شيء الى التمكين لحكمه من طريق تدريب جنده على الطرائق الاوروبية .

وفي اواخر ايلول سنة ١٨٣٧ سار دامريمون على رأس اثني عشر الف مقاتل الى قسنطينة . فلما كان اليوم السادس من تشرين الاول بَدأ قذف المدينة بالمدافع ، وكان دامريمون يودّ ان يشرع في اقتحام المدينة بعد ستة ايام . بيد انه سقط صريعاً فيما كان يعد العدة لهذا الهجوم فحل قاليه** محله في القيادة . وبعد معارك دامية دارت رحاها آخر الامر في شوارع المدينة نفسها سقطت ، القَصْبة ، وهي الحصن المطلّ على المدينة ، في ١٣ تشرين الاول . ومنذ ذلك الحين خطا احتلال البلاد خطوات واسعة الى الامام . وانشئت مدينة فيليب*** لتكون ميناء لقسنطينة . ومن الجزائر احتل الفرنسيون بُليدة ايضاً ؛ وفي تشرين الاول سنة ١٨٣٩ صار في ميسور جيوش الجزائر وقسنطينة ان تلتقي عند بُوَيْرَه ، عبر الاطلس .

---

* واصلها «الأغواط» وهو الصواب ، غير ان المتعارف عليه «لغواط» . [المعربان]

** Vallée

*** Philippeville

واعتبر عبد القادر تقدم الفرنسيين هذا نقضاً لمعاهدة تافنا فدعا في المدية الى الجهاد ضد الفرنسيس ، فهاجم عامله [احمد] بن سالم متيجة . وانقضت فترة المّ الخطر فيها بالجزائر ، وكانت حاميتها ضعيفة ، ولكن ثاليه ما لبث ان هزم عبد القادر عند شفة ؛ ثم احتل المدية في ١٨ نوار سنة ١٨٤٠ .

وفي اواخر العام عين بوجو ، افضل رجال فرنسة العسكريين ، حاكماً عاماً على الجزائر . فلما كان الربيع من سنة ١٨٤١ افتتح الحملة ، على عبد القادر ، من المدية ، فانتصر عليه انتصاراً باهراً في ٤ نوار . ثم انه انقلب الى الشاطىء ، ليزحف من مستغانم الى الداخل ، كرة اخرى ، وليحتل في ١٨ نوار عاصمة عبد القادر الجديدة ، تاكدمت ، خرباً من قاعدته في معسكر قصر والد الامير ، حيث كان الامير نفسه يلتمس الراحة في كثير من الاحيان . وقد أتى على هذا القصر حين من الدهر كان فيه مركزاً خطراً من مراكز التعصب الديني في الاسلام .

مصير عبد القادر

وفي ربيع سنة ١٨٤٢ احتل بوجو تلمسان ؛ وفي ٩ شباط خسر الامير مدينة سبدو ، آخر مدنه المحصنة . ومن ذلك الحين اضطر الى ان يضرب في البلاد مع جيشه ، وكانت عدته نحواً من خمسين الف رجل ، ليطارده الفرنسيون من مكان الى مكان . وفي ١٦ نوار وفق دوق دومال * بعد زحف مستمر ، الى مباغتة العدو والتغلب عليه . وهكذا سقط اربعة آلاف من

* Duc d'Aumal

رجال الامير ، وسقطت امواله وعائلات عددٍ من اكثر اتباعه قوةً ومكانةً في ايدي الفرنسيين . ولكن عبد القادر ، الذي استمات حرسه في الدفاع عنه ، استطاع هذه المرة ايضاً ان يُفلت من الوقوع في قبضة العدوّ ، ليجد الامن في الارض المراكشية . وفاوض بوجو المراكشيين في شأن تسليمه ، ولكن على غير طائل . فلم يكن منه الا ان عبر الحدود بنفسه . وكانت عمارة من الاسطول الفرنسي قد تقدمت في الوقت نفسه ، الى شواطيء مراكش مهدّدة طَنْجَة والصُّوَيْرَة * . وفي ١٤ آب دارت رحى المعركة في وادي إيسْلي ، احد روافد نهر تافنا ، بين الفرنسيين والجيش المراكشي وكانت عدّته ٦٥ الف رجل تحت قيادة ابن السلطان . ولم يكن تحت تصرّف بوجو اكثر من ستة آلاف مقاتل ، ومع ذلك فقد استطاع ان يهزم هذه الجيوش الضعيفة السلاح ، الفاقدة النظام . عندئذ اعلن السلطان استعداده لعقد الصلح . ولكنه لم يُسلم عبد القادر الى الفرنسيين . ولو قد اراد تسليمه وخلصت نيته في الامر لما وجد الى ذلك سبيلاً لان القبائل البربرية الضاربة على طول الحدود لم تكن تحترم سلطته الا قليلاً . واذكى اتباع الطرق ، ولا سيما « الدَّرقاوا » ، نيران العصبية الدينية بين القبائل فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين . وفي ربيع سنة ١٨٤٥ برز الى الميدان بطلٌ من ابطال الجهاد جديد هو المرابط « بو مَعْزَة » (اي الرجل صاحب الشاة) فقاد قبيله ضَهْرَه البربرية لقتال الفرنسيين .

* Mogad or . وترد ايضاً «السويرة» بالسين . [المعربان]

وعندما عاود عبد القادر الهجوم على الجزائر وجّه بوجو ثماني عشرة فرقة لمطاردته ، طوال الخريف والشتاء من سنتي ١٨٤٥ — ١٨٤٦ ولكنها لم توفق الى اللحاق به . حتى اذا هُزِم اكثر من مرّة خلال الربيع فزع الى الاراضي المراكشية ، نَزْلةً أخرى . ولكن ممثلي الحكومة الفرنسية استطاعوا ان يُقنعوا السلطان ، آخر الامر ، بأن يوجّه اليه جيشاً ، ويُخرجه من البلاد . وفي ٢١ كانون الاول عبر عبد القادر نهر مُلوية — القائم على الحدود — تحت نيران القوات المراكشية ، فطوقته الجيوش الفرنسية ليستسلم في الثالث والعشرين من الشهر نفسه بعد أن وُعِد بأن يُنقل الى عكا او الاسكندرية ، اذ كان يرجو ان يؤدي فريضة الحج كرّةً أخرى . وبدلاً من ان يحقق له الفرنسيون وعدهم هذا ، حملوه الى طولون ثم أسروه في قلعة آمبواز . وفي ٢ كانون الاول سنة ١٨٥٢ فكّ نابوليون الثالث إسارَهُ . ولقد نزلَ ، اول ما نزل ، في بروسّه ، حتى اذا وقع زلزال سنة ١٨٥٥ أقام في استانبول ثم في دمشق . وقد ذكرنا في الفصل الاول من هذا الجزء كيف انقذ هو ومواطنوه الذين رافقوه الى المنفى ، عدداً من النصارى من الموت على ايدي الدروز ، سنة ١٨٦٠ . وتوفي عبد القادر بدمشق سنة ١٨٨٣ .

لالا فاطمة تحارب الفرنسيين

وفي الجزائر ، كان على الفرنسيين ان يسلخوا فترة طويلة في قتال البربر النازعين ابداً الى الثورة ، في شرقي البلاد . وفي سنة ١٨٥٧ ظهرت في قبيلة يَنِّي نبيّة اسمها لالاّ فاطمة ، فاتبعتها

القبائل المجاورة كلها . وقد اضطرّ الحاكم العام ، راندون ، * أن يخرج بنفسه لقتالها على رأس ثلاثين الف رجل ؛ وبعد معارك دامية أسر راندون لالاّ فاطمة واخضع القبائل إخضاعاً كاملاً .

سي سليمان يعلن الثورة على الفرنسيين أيضاً

وفي جنوبي الجزائر كان الفرنسيون قد عهدوا في الحكم الى عشيرة « أولاد سيدي شيخ » الوطنية ومنحوها سلطات واسعة . وفي سنة ١٨٦٤ استشعر ثالث ممثلي هذه الأسرة ، سي سليمان ، ان كرامته قد مُسّت بسببٍ من سلوك بعض الضباط الفرنسيين ، فأعلن الثورة ، في شهر شباط ، بتحريضٍ من عمّه ، سي لالا . فلم يكن من القائد العام ، بوبريتر ، ** إلا أن خفّ من تيارَتْ لأخماد الثورة ، ولكنّ خيالته الوطنيين خدعوه وفتكوا به وبفرقة المشاة التي كان يقودها ، وإن يكن قد استطاع ، وهو في النزع الأخير ، أن يُطلق النار على سي سليمان الذي كان قائماً الى جانبه فيُرْديه قتيلاً . بيد ان مصرع سي سليمان لم يضع حداً للثورة ، فقد نهض بعبء القيادة من بعده أخوه محمد والمرابط سي لازْرَقْ . واذْ كان نابوليون الثالث قد بعث بأفضل جيوش الاحتلال المجرّبة الى المكسيك والهند الصينية ، بعد أن اطمأنّ الى سلامة البلاد ، فقد استمرت الحرب فترةً طويلة في جنوبي الجزائر . صحيحٌ ان زعيمي الثورة صُرِعا في شتاء ١٨٦٤ – ١٨٦٥ ، ولكن اتباعها المعتصمين في الجبال التي تعذّر

* Randon

** Beauprêtre

على الفرنسيين بلوغها لم يُلقوا السلاح، وكانوا يفزعون الى الارض المراكشية كلما آنسوا خطر القوات الفرنسية عليهم . وعلى الرغم من ان الجنرال ويمبفان * انزل العقاب بحلفائهم سنة ١٨٧٠ فقد ظلّ الثوار يتراجعون شيئاً فشيئاً في الصحراء، ولم يكن في الامكان اخضاعهم نهائياً إلا في سنة ١٨٨٤ .

آخر حركات التحرر في الجزائر

بيد أن هزائم فرنسة في حربها مع المانيـة وتحوّلها الى النظام الجمهوري سنة ١٨٧١ أنعشت في الجزائر آمالاً جديدة في الحرية والاستقلال . واعتبر المسلمون على الخصوص مرسوم ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٧١ القاضي بمنح جميع اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية أمارةً من أمارات الضعف . فلم تكد تبدأ السنة التالية حتى نشبت الاضطرابات ، بسبب من تجنيد السباهيين وحشدهم على الحدود التونسية بخاصّة . وانما وجدت الحركة زعيماً قوياً في شخص مُقْراني باش آغا مجانه ، يؤيده مرابطان اثنان ايضاً . وكان مُقْرَاني هذا ينتسب الى اسرة من أغنى الأُسَر وأنبلها في مقاطعة قسنطينة ، وكانت الحكومة قد امطرته بوابل من انعاماتها جزاءَ ما ابداه نحوها في ذلك العهد من اخلاص وولاء . ولكنه ما لبث ان استقال من منصبه ، عند تأسيس الادارة المدنية ، لانه يأبى ، كما قال ، ان يطيع رجلاً من اليهود . والواقع ان العامل الشخصيّ لعبَ دوره ، في قضيته ، الى جانب الاستياء السياسي . ففي اثناء مجاعـة سنة ١٨٦٧ اضطرّ الى ان يُثقل ظهره بديون

* Wimpfen

جسيمة ابتغاءَ مدّ يد المساعدة الى مواطنيه ، حسب مُقتضى الشرف عند العرب ، ولكن الحكومة لم تفِ يوماً بما وعدته به من تعويض. وهكذا دعا ، في منتصف آذار ، الى اجتماعٍ قَبَليّ كبير ثم اعلن الحرب على قائد اقرب موقع عسكري . وفي ٨ نيسان انضم اليه رأس الطريقة الرَّحمانية ، الشيخ الحدّاد ، بعد ان حَرّضه على ذلك ابنه « العزيز » ، وكان طموحاً . وما هي الا فترة حتى اشتركت قبائل البلاد كلها ، من البحر حتى الصحراء ، في القتال ، وطفق الثوار ينتشرون على مقربة من الجزائر . وفي ٦ نوّار قُتل مُقراني في معركة دارت رحاها في وادي سُفلَة قرب أوْمال ، فقام مقامه اخوه بو مَزْراك الذي اضطرّ إثر معارك عدة ، الى الامعان في الارتداد جنوباً ليقع في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ اسيراً في يد العدوّ ، قرب رُوَيْسات . حتى اذا أُخمدت الثورة آخر الامر تعيّن على القبائل ان تدفع نفقات الحرب الباهظة ، فألغيت ادارتها البلدية المستقلة وأُكرِهت على ان تتخلّى عن نحو ٤٥٣٠٠٠ هكتار من اراضيها ليستقرّ فيها المستعمرون الفرنسيون. وهكذا أُخمدت حركة التحرّر الجزائري ، وأُخلد القوم للسكينة فلم تعرف البلاد الا بعض الانتفاضات غير الهامة . وما لبث المهاجرون الاوروبيون ان اجتاحوا البلاد شيئاً بعد شيء ، فاذا تاريخها يرتبط ، منذ ذلك الحين ، بتاريخ الاستعمار الفرنسيّ .

الفرنسيون يحتلون تونس ايضاً

وكان باي تونس لا يزال محتفظاً باستقلاله ، ولكنه كان قد

أهمل واجباته الادارية اهمالاً ليس أبشع منه حتى لقد انتهى ثلث الاراضي التونسية الخصبة الى ان يُصبح في اواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، بلقعاً . وكان يقطن في عاصمته كثير من الايطاليين ، وكانت ايطالية تطمح منذ زمن طويل الى ان تحذو حذو فرنسة في الجزائر . ولكنّ رومة هنا ، في يوم من الايام ، لم تجرؤ على ان تخطو خطوةً حاسمة في هذا السبيل خشية ان تخلق بذلك أزمة دولية ، في حين تدخلت فرنسة عند اول فرصة سانحة لتبسط سلطانها على هذه البلاد ايضاً . حتى اذا نشب خلاف بين الباي واحدى الشركات التجارية الفرنسية ، سنة ١٨٨١ ، جُرِّد الباي من سلاحه ، في العاصمة ، على يد جيش كان قد اجتاح تونس بحجة تأديب قبيلة بدوية اخترقت الحدود وقامت باعمال عدائية هناك . والحق ان الفرنسيين ابقوا للباي عرشه ، اسمياً ، إلا إنهم سلبوه جميع السلطات الحقيقية ، بلا استثناء .

اشراف مراكش العلويون

منذ سنة ١٥٤٤ ومراكش خاضعة لحكم أسرة علوية من الاشراف [الحسنيين] هم بنو سعد. وقد دام ملك هؤلاء حتى سنة ١٦٤٤ عندما خلفهم بنو فلال الحسنيون الذين لا يزالون يحكمون البلاد الى اليوم ، حكماً اسمياً. ويحمل كلٌّ من ممثلي هذه الأسرة لقب « الخليفة واميرالمؤمنين » . وهم يقيمون سلطتهم على أساس من مبدأ الشرعية المتمثل في تحدّرهم من الرسول ، ومن هنا جاز لنا ، في الحق ، ان ندعوهم شيعةً . ولكن العلويين المراكشيين لم تكن لهم ، في يوم من الايام ، اية صلة بالتطور الديني الذي عرفه الشيعة في

الشرق ، وفي جنوبي بلاد العرب ، وعلى الخصوص في فارس . والواقع ان مذهب مالك السنيّ الصارم هو الغالب على مراكش، شأنه في شمالي افريقية كلها .

وانتهى بنو سعد الى محلّ السلطة عند كان البرتغاليون يسعون لتوطيد سلطانهم في جنوبي مراكش فلا يقوى المتأخرون من بني مرين على صدّ هجماتهم. وفي سنة ١٥١١ تولى شريف تاكمدارت قيادة المجاهدين ، فوفق ابنه محمد ، بعد أن ردّ الاجانب على اعقابهم سنة ١٥٥٤ ، الى أن يهزم اتراك الجزائر الذين كان بنو مرين يطمعون في ان يستعيدوا مملكتهم بمساعدتهم ، وهكذا فرض سلطانه على البلاد برمتها . ثم إن ابنه وخليفته الرابع احمد الاول المنصور (١٥٧٨ – ١٦١٠) بسط سلطان أسرته حتى قلب الصحراء وفتح تمبكتو * وخرّب مملكة سكيّة صاحب كاغوا . ولكن هذه الانتصارات الخارجية التي مكّنته من أن ينعم ببلاط زاهر في مرّاكش، انتهت به الى ان يُهمل التنظيم الداخلي لامبراطوريته . فبدلاً من ان يوطّد دعائم سلطته في الداخل اكتفى بأن يستخدم جيوشه التي ألّفها من قبائل البربر الجنوبية ومن عرب تلمسان ووجدة وأنزلها في ضواحي فاس ، لجمع الضرائب وتقديمها الى الخزانة العامة او « المخزن » . وفي عهد خلفائه المستضعفين أعلنت فاس نفسها استقلالها، ليس هذا فحسب،

---

* وجاءت في « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » لابن بطوطة « تنبكتو » بضم التاء الاولى والباء . راجع طبعة باريس ١٨٧٤ – ١٨٧٩ ، ج ٤ ص ٣٩٥ . [المعربان]

بل إن مسلمي الاندلس الذين أُخرجوا من اسبانية ونزلوا في رِبَاط وسَلا والذين اكتسبوا ثروات صالحة من طريق القرصنة ، ما لبثوا ان أنشأوا جمهوريات تتألف كلّ منها من مدينة واحدة ، شأنهم في الاندلس ، من قبل . كذلك بسط عددٌ من المرابطين سلطتهم الزمنية على اتباعهم في « زواياهم » أو مستعمراتهم الدينية . ومن بين هؤلاء ظَهَرَ ، الرشيدُ ، وهو رأس العشيرة الشريفية الحَسَنية في تافيلالت ، بعد مصرع آخر بني سَعد سنة ١٦٦٠ ، فقضى شيئاً بعد شيء على سلطة الحكام الصغار . ثم ان اخاه وخليفته ، اسماعيل ، (١٦٧٢ – ١٧٢٩) أنشأ جيشاً قوياً من الرقيق الزنجي أقسمَ افراده يمين الاخلاص له على « صحيح البخاري » ، ومن هنا عُرفوا بعبيد البخاري ، او العسكر البخاريّ . وقد استطاع ، بواسطة هذا الجيش ، أن يُخضع قبائل البربر وأن يسعى لتطهير البلاد من الدخلاء الأجانب الذين استغلوا ضعف بني سَعد في العهد السابق . والواقع أن البرتغاليين احتلوا طوال قرنين تقريباً (١٤٧١ – ١٦٦١) ثغر طَنْجَة ، اعظم المرافيء الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ؛ وفي سنة ١٦٦١ قدّمت الاميرة كاترينا البرتغالية هذه المدينة صِداقاً الى زوجها شارل الثاني ملك انكلترة . ولكن اسماعيل وفق سنة ١٦٨٤ الى ان ينتزع المدينة من الانكليز ، بعد حصار دام ست سنوات . فطرد الاسبان من قواعدهم على المحيط الاطلسي . والحق ان سَبْتَة دون غيرها (وهي التي غنمها فيليب الثاني إذ ضمّ البرتغال الى اسبانية سنة ١٥٨٠ والتي ظلّت في قبضة الاسبان حتى بعد إقامة المملكة البرتغالية من

جديد) – ثبتت سبعة وعشرين عاماً (١٦٩٣ – ١٧٢٠) في وجه جيوش اسماعيل المحاصرة ، على الرغم من ان الوطن الأمّ ، المنهمك في حرب الوراثة الاسبانية ، لم يُبْدِ أيّ اهتمام بالحامية الباسلة . حتى اذا توفي اسماعيل تردّت مراكش ، كرّة اخرى ، في دياجير الفوضى ، وانتهت جيوش الزنج الى ان تستخدم قوتها لرفع الامراء وخلعهم . ولم يوطّد الأمن الا على يدي محمد الاول ، حفيد اسماعيل ، (١٧٥٧ – ١٧٩٢) الذي حاول ايضاً القضاء على قرصنة رعاياه من طريق عقد معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية . ولكنّ هذه المعاهدات لم تَعُدْ على بلاده بالفائدة التي كان يرتجيها . وفي عهد خلفائه تجلّت مساوىء الحكومة اكثر فأكثر ، وقد سعوا إلى ان يحموا أنفسهم من طريق إيصاد ابواب البلاد إيصاداً شديداً في وجه الاوروبيين الذين لم يُسمح لهم بحقّ التمثيل السياسي إلا في طنجة .

النظام الأداري في مراكش

وقد ميّز القانون المراكشي العام تمييزاً واضحاً بين « بلاد المخزن » ، وهي المقاطعات المغلوبة الخاضعة للحكومة ، وكانت تؤدّي الضرائب وتقدّم العساكر ، وبين « بلاد السّايبة » وهي المقاطعات المستقلة ، وتبلغ مساحتها اربعة اضعاف او خمسة اضعاف مساحة « بلاد المخزن » . وكان الاطلس كلّه في جملة البلاد المستقلة عدا مقاطعة صغيرة جداً كانت تُعتبر من « بلاد المخزن » . والواقع ان قبائل قليلة جداً فقط كانت قد أُخضعت اخضاعاً فعلياً ، في الغرب ، في الاقاليم القريبة من البحر ؛ اما

القبائل الاخرى فكانت ، رغم إقرارها الاسمي بسيادة السلطان ، لا تؤدي ضريبة ما، بل تكتفي بأرسال الهدايا، بين الفينة والفينة، الى مَرّاكُش . ولعلّ عدداً من القبائل النازلة في الاجزاء التي لا يمكن بلوغها من الأطلس لم تكن تعلم ان هناك سلطاناً . والواقع ان زعماء البربر الكبار كانوا يعتبرون أنفسهم كالسلطان قوةً وبأساً ، فهم ينظرون إليه كمجرّد زعيم لقبيلة معادية تعيش بعيداً عنهم . ففي سنة ١٨٨٩ مثلاً رفضت احدى القبائل ان تقدّم حتى التبن لجيش السلطان البالغ عدده عشرة آلاف رجل ، والمرابط في أراضيها ؛ وفي السنة التالية منعت القبيلة نفسُها سفيراً إيطالياً من المرور في منطقتها ، وكان هذا السفير يبغي أن يقدّم اوراق اعتماده الى السلطان . وفي مثل هذه الأحوال كان على السلطان أن يلجأ الى اصدار اوامره الى القبائل المجاورة للقبيلة العاصية بالانقضاض عليها ، وذلك بأن يسمح لهذه « بأكل » تلك ،وهو اصطلاح فنّي في السياسة المراكشية .ولكن هذه الوسيلة ايضاً لم تكن فعّالة دائماً ، فقد استطاعت عدة قبائل صغيرة ، من مثل قبيلة مَزْكَلْدَة ، أن تتحدى السلطان سنوات طويلة .وكان يتعيّن على السلطان، في الأعم الأغلب ، أن يفاوض القبيلة ، ونادراً ما كانت سلطته تعدو منح تثبيت اسميّ لرئيس القبيلة المنتَخَب . وكان من هَمّ السلطان ، في المحلّ الأول ، ان يسعى دائماً الى إقامة علاقات حسنة مع المرابطين الذين تمتعوا بنفوذ كبير عند البربر ، فهو لا يجرؤ على ان يُغفل تقديم أسنى الجوائز إليهم كلما وفدوا لزيارته أو سار هو لزيارتهم .

وحتى في « بلاد المخزن » لم تكن ثمة حكومة منظمة أيضاً . وكان السلطان يمارس سلطاته المدنية بواسطة القوّاد الذين كانوا يحملون في المدن الكبرى (مراكش ، وفاس ، ورباط ، ومَكْناسَة) لقب باشا . وكان اول واجباتهم أن يجمعوا الضرائب ، في حين كان عليهم ، في المقام الثاني ، أن يوطدوا الأمن ، وان ينفذوا الأحكام القضائية . ولم يكونوا يتقاضون رواتب ما ، وفقاً للعرف الشرقي القديم ، بل كانوا على نقيض ذلك يشترون مناصبهم شراءً . وهكذا اضطُرّوا إلى ان ينتزعوا من الناس ، بالاضافة الى الضرائب الشرعية والى مواردهم الخاصة ، أثمانَ هذه المناصب التي لم تكن بخسةً بحال من الأحوال. وكان السلطان يجد نفسه أحياناً في موقف خلفاء بغداد من قبله : فقد كان يُضْطَرّ ، في بعض المناطق التي سبق ان خضعت لسلطته ، إلى ان يُثبّت في مقام « القيادة » رجلاً استهلّ حياته قاطع طريق ؛ كل ذلك حِفاظاً على آخر مظاهر سلطته الاسمية .

الجيش

وكان القواد يقدّمون إلى السلطان «المَخازْنية» ، وهي في الأعم الاغلب جيوش اقطاعية خيّالة ، كان بعضها يقوم على حراسة المقرّ في حين كان بعضها الاخر يقوم على حفظ النظام والامن في انحاء البلاد وقصباتها المنتشرة في مخارج شعاب الاطلس . وفي سبيل مدّ هذه الجيوش بالعناصر الجديدة كان السلاطين يجندون المشاة في جميع المدن الرئيسية ، ويخضعونهم لمقدار معين من التدريب ، على الأساليب الاوروبية . وكان على رأس هؤلاء

المشاة في مطلع القرن العشرين ، ضابط بريطاني هو « القائـــد » ماك لِيْـن * . ومهما يكن من أمر فقـــد كانت اسلحة الجنود وتدريبهم ، على الجملة ، دون الغاية المرجوّة .

السلطان حسن وابنه عبد العزيز

وفي سنة ١٨٧٣ رقيَ العرش السلطان حسن ، وملء بُردَيه آمال عراض في القوة والثروة . والواقع أنه انفق جهده كله في النضال ضدّ الاحوال السيئة الـــتي كانت تسود امبراطوريته ؛ ولكن هذه المساوىء استعصت على الأصلاح بمثل القوة المحدودة التي كان يملكها ، على الرغم من انـــه استطاع أن يوسّع « بلاد المخزن » في اتجاه الجنوب ، ويقوم بتقـدّم جديد في الصحراء . وفي سنة ١٨٩٤ توفي السلطان حسن في حملة عسكرية جرّدها على احدى قبائل البربر الثائرة ، بعد أن اوصى بالعرش لابنه القاصر ، عبد العزيز ، وقد رُزِقهُ من جارية جركسية ، من دون أخٍ له اكبر منه . ووُفّق مستشاره الواسع النفوذ ، سي احمد بن محمد ، الى ان يكتم نبأ الوفاة الى ما بعد نقل جثمان السلطان الى رباط حيث كان يقيم عبد العزيز . وهناك نادى بهذا الأخير خليفةً ونصّب نفسه وصياً عليه . وبعد وفاة وزيره ، سنة ١٩٠٠ ، اضاع السلطان الشاب عطف رعاياه من طريق إيثاره لثمرات الحضارة الاوروبية وزيادته الضرائب . فخرج عليه ثائرون متعدّدون في جميع انحاء البـــلاد نخصّ بالذكر منهم روكي عُمر الزَّرْهوني المعروف بـ « بو حمارة » اي « الرجل راكب الأتان » (الشعار الشرقي

* McLean

القديم للحاكم المنقـــذ او المخلص) الذي أورث حكومة تازة متاعب كبيرة مدةً طويلة من الزمان ليقع في الأسر سنة ١٩٠٩ وينفّذ فيه حكم الموت .

مؤتمر الجزيرة الخضراء

وحاولت فرنسة ان تفيد من ضعف مرّاكش فتوسّع ممتلكاتها الاستعمارية في اتجـــاه الغرب . وفي سنة ١٩٠٤ انتزعت فرنسة موافقـــة بريطانية واسبانية على مشروعاتها التوسعية بعد ان اعترفت بمركز الاولى في مصر ، وبعد ان منحت الاخرى منطقة نفوذ اوسع في ممتلكاتها السابقة في الشمال . وكان الفرنسيون قد قدّموا الى السلطان مشروعاً للاصلاح الأداري يوضع موضع التنفيذ بمساعدتهم ، عندما وَطِيء القيصر ولهـــلم الثاني ، في ٣١ آذار سنة ١٩٠٥ أرض طنجة — وكان يقوم برحـــلة في البحر المتوسط — بعـــد ان حرّضه على ذلك مستشاروه الذين كانوا يؤيدون مصالح الاخوان مانسمان * الاقتصادية الشديدة الغموض في مناجم مراكش . وهناك في طنجة القى القيصر خطاباً أيد فيه استقلال السلطان . وعلى اثر هـــذا الخطاب نجح عبد العزيز في عقد مؤتمر دولي لبحث المسألة المراكشية . ولقد عُقِد هـــذا المؤتمر في الجزيرة الخضراء (١٥ كانون الثاني الى ٧ نيسان ١٩٠٦) لينتهي الى الاعتراف بسيادة السلطان والاتفاق على انشاء بوليس دولي للمرافيء ومصرف للدولة يكون رأسماله اوروبياً .

* Mannesmann brothers

وإذ قد عجز عبد العزيز، على الرغم من هذه المساعدة، عن توطيد النظام والأمن، ليضطرّ بسببٍ من ذلك الى ان يقف مكتوف اليدين في وجه الاحتلال الفرنسيّ لـ « وُجدَة » والدار البيضاء سنة ١٩٠٧، فان أخاه عبدالحفيظ ما لبث أن ثار عليه، مُستغلًا الاستياء العام في طول البلاد وعرضها، وحملَ الفقهاء على خلعه. وفي فترة وجيزة اخضع البلاد كلها لطاعته، واعترفت به ايضاً كل من اسبانية وفرنسة بعد ان اقرّ اتفاقات الجزيرة الخضراء. ولكن عبدالحفيظ لم يكن اقدر على مواجهة الاوضاع العسيرة من اخيه، فطوّقه الثوار في فاس، سنة ١٩١١، ليُضطر الى التماس المساعدة من فرنسة. والواقع ان هذا الحادث قرّر مصير البلاد، على الرغم من ان المانية ظلت تحاول ان تضمن لنفسها بعض الحقوق من طريق هجومها على أغادير *، هذا الهجوم المعروف بـ « وثبة النمر »[٦]، بعد ان كانت اسبانية قد وسّعت منطقتها ايضاً باحتلال العرائش والقَصْر. ومهما يكن من امر فقد اعترفت المانية نفسها، آخر الأمر، بالحماية الفرنسية التي حُدّدت شروطها تحديداً رسمياً بمعاهدة عُقدت مع السلطان في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٢. وخَلَفَ عبدَ الحفيظ السلطانُ يوسف، حتى اذا توفي هذا سنة ١٩٢٧ خَلَفَه ابنه محمد الثالث. ووطّد المارشال

* ووردت ايضاً « أغدير » و « أكادير » بالكاف الفارسية. [المعربان]

(٦) اذ ارسلت الى « أغادير » مركباً حربياً اسمه النمر « Panther »

ليوتي * ، بما شنّ من حملات على القبائل المعادية ، سلطة الحكومة التي انتهى السلطان الى يُصبح مجرّد رئيس اسميّ لها . واحتفظت فرنسة ، خلال الحرب العالمية الاولى ، بالمركز الذي اكتسبته في مَرّاكش ، لتبسط سلطانها ، من طريق سلسلة من حروب العصابات المضنية ، على البلاد كلها ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤ . ولم تعرف البلاد المراكشية بعدُ غير بطل واحد من ابطال الحرية هو عبد الكريم الذي كانت اسرته قد استقرّت منذ زمن طويل في الريف عند أجْدِر على خليج الحُزامى . ففي سنة ١٩٢١ شقّ عبدالكريم الطاعة على الاسبان لكي يحفظ على افراد قبيلته ، الذين لم تكن اسبانية قد اخضعتهم بعد لسلطتها ، نعمة الحرية والاستقلال . ولم يكن مع عبدالكريم غير عدد قليل من الرجال ، اول الامر ، حتى اذا تراخت الايام نمت قواته نمواً سريعاً وانضمت اليه جميع القبائل في مراكش الشمالية تقريباً . وانزل عبدالكريم باعدائه ، الاسبان ، خسائر فادحة ثم هاجم المنطقة الفرنسية وتهدّد فاس بالاحتلال . عندئذ تعاونت اسبانية وفرنسة في سبيل القضاء عليه ؛ وفي شباط سنة ١٩٢٦ اضطرّ عبدالكريم الى القاء السلاح ، فنُفيَ اولَ الأمر الى مرسيليا ثم الى جزيرة [ريُونيُون بالقرب من جزيرة القُمْر أي مدغسكر] ٧

* Lyautey

(٧) انظر مذكرات عبدالكريم Abd-el-Krim, *Memoiren, mein Krieg gegen Spanien und Frankreich*, (adapted by J. Roger-Mathieu, editor of *Le Matin*), Dresden, 1927.

وقد كان لبطولته صدى بعيد في العالم الاسلامي كله ؛ فظهرت في القاهرة

ومنذ ذلك الحين وطدت اسبانيـــة ايضاً سلطتها في مراكش ؛ والواقع ان المحاربين المراكشيين الشجعان اسدوا الى فرانكو خدمات جُـلّى في نضاله بسبيل الاستيلاء على اسبانية نفسها .

الحياة العقلية في افريقية الشمالية

لم ترتفع الحياة العقلية في إفريقية الشمالية كلها حتى اليوم عن مستوى القرون الوسطى . فما برح العلماء المراكشيون يواصلون النشاط العلمي التقليدي الذي بدأه أسلافهم، فهم يضعون الشروح على الكتب الشهيرة ، وهم يكتبون التراجم الواسعة، في الاسلوب القديم عينه . والواقع ان السلطان عبـد الحفيظ شارك مشاركةً كبرى في هذه الدراسات . فقد كان هو نفسه مؤلفاً ، وقد طبع عدّة كتب كلاسيكية على نفقته . وفي الجزائر وتونس لم يوّفق العرب الى أن يبلغوا مرتبة أسمى ، في دنيا الفكر ، على الرغم من التعليم الابتدائي الذي يقدّمه اليهم الفرنسيون. كذلك عجز مسلمو شمالي إفريقية عن النهوض بعبء النضال الفكري ضدّ الحكم الاجنبي إلا بعد اخوانهم في الدين ابناء مصر وسورية بزمن طويل. ومهما يكن من أمر فقد تأسس في تونس حزب إصلاحي وحزب دستوري ازعجت مطالبهما ، في وقت من الاوقات ، حكومة الحماية ؛ حتى إذا رقيَ العرش الباي محمد الحبيب ، في ١٠ تموز سنة ١٩٢٢ أُدْخلت بعض تعديلات غير جوهرية على الحكومة . ولم

سنة ١٩٢٥ أربعة كتب عربية ، على الأقل ، استعرضت حيـاة عبد الكريم ونضاله . راجع ايضاً :

A. Sanchez Perez , *La acciôn decisiva contra Abdelkrim* , Madrid, 1931.

تكن نتائج النضال الفكري أحسن حالاً في الجزائر ومراكش ، فقد خابَتْ آمال الفئات الجزائرية المثقفة – وعلى رأسها الطبيب ابن (بن) جلّول – في الاصلاح ، كما خابت آمـــال المثقفين المراكشيين ، وعـــلى رأسهم الزعيم عَلاّل الفاسي الذي أبعدَهُ الفرنسيون الى « غابون » في السنغال الفرنسي ، أوائلَ سنة ١٩٣٨ .

السّودان

السودان يعتنق الاسلام

كان المرابطون في المغرب قد نشروا الاسلام في الاقاليم الآهلة بالزنوج ، من العرق الحاميّ المتوسّطيّ ، * وبالنيليّين ** والنوبيين ، والواقعة جنوبي الصحراء ، من السنغال حتى وادي النيل الاعلى . ومنذ القرن الحادي عشر اعتنق امراء غانه ، وتابعوهم حكام تكرور ، ومَلِكُ مالّي على نهر النيجر الأعلى ، نقول منذ القرن الحادي عشر اعتنق هؤلاء جميعاً دينَ سادتهم ، الأسلام . وفي القرن الثالث عشر أصبحت تمبكتو مركزاً للثقافة الاسلامية التي أضعفها الغزو المراكشي، سنة ١٥٩١، بدلاً من ان يقوّيها . ولم تكسب الدعوة الاسلامية حافزاً جديداً إلا في القرن الثامن عشر عندما أنشأ التكارنة نظاماً ثيوقراطياً جديداً في فوتا جلّون ، سنة ١٧٢٠ . وفي سنة ١٧٧٦ اخضعوا الفول (الفلاّتة) الوثنيين وفرضوا عليهم الأسلام. ثمّ وفق عثمان دَانْ فوجو التكروري الى إدخال الحوْز في

* نسبة الى البحر الابيض المتوسط . [المعربان]

** نسبة الى نهر النيل [المعربان]

في الاسلام وأسس سنة ١٨٠٢ مملكة سُوكُوتو . وكان عمر – وهو ينتسب الى قبيلة عثمان نفسها – قد التحق ، فيما كان يؤدي فريضة الحج الى مكة ، بالطريقة « التيجانية » المجاهدة التي كانت ذات نفوذ كبير في مراكش ، فأقطعهُ رئيسها الاكبر السودان. ولقد أخضعَ ، ابتداءً من سنة ١٨٣٨ ، القسم الاعظم من السودان الذي اعترف لدن وفاته ، سنة ١٨٦٤ ، بالاسلام ديناً للدولة . وبعد سنة ١٨٩٠ خضع خلفاؤه للمستعمرين الفرنسيين .

وفي السودان الأوسط ، عند بحيرة شاد ، انتشر الاسلام منذ القرن الحادي عشر في كانم . ولكنّ دعائه لم تتوطّد في بُورْنو (بُرْنو) وباجِرْمي إلا في القرن السادس عشر ، في حين لم يتمّ له ذلك ، في وَدّائي * إلا في القرن السابع عشر ٨ .

وفي السودان الشرقي دخل أهل النوبة وكانوا نصارى حتى القرن السابع في الدين الاسلامي ، في وقت مبكر جداً ، من طريق مصر . ثم ان سليمان ، الذي اسس اسرة حاكمة جديدة ، نشر الاسلام في دَارْفُور ، في القرن السادس عشر ؛ وفي القرن الثامن عشر اخضع احد خلفائه كَرْدُوفان ولكنّ الاسلام لم يحقق

* وجاءت ايضاً : ودائي (من غير تضعيف الدال) ووداي (بتضعيف الدال) . [المعربان]

(٨) انظر وسترمان D. Westermann, *Der Islam in West und Zentralsudan, Die Welt des Islams*, I, 1913, 85-108.

وانظر مبير P. C. Meyer, *Erforschungsgeschichte und Staaten bildung des Westsudan, Petermanns Mitteilungen, Erganzungsband* XXVI, Gotha, 1898.

وانظر ايضاً براس A. Brass, *Eine neue Quelle zur Geschichte des Fullreiches Sokoto, Der Islam* X (1920), 1-73.

تقدماً كبيراً جداً إلا بعد الفتح المصري في القرن التاسع عشر. والواقع ان الحكم الاجنبي أذكى، في الوقت نفسه، جذوة التعصب الديني الذي وجد زعيماً له في شخص المهدي المشهور.

المهدي محمد بن عبد الله

وُلد محمد بن عبدالله حوالى منتصف القرن الماضي في مقاطعة دُنْقُلة، وكان ابوه [نجاراً يعمل في بناء المراكب] وتزعم اسرته أنها تتحدّر من الرسول. وبعد ان تمّ دراسته الفقهية التحق بالطريقة الصوفية « السَمانيّة » ليستقرّ سنه ١٨٧٠ في جزيرة أَبَا (آبا) في النيل الأبيض حيث انصرف الى الرياضة الدينية في كهف قائم على ضفة النهر. ثم إنه اختلف مع شيخه بعد أن حلّلَ هذا الأخير اتباع طريقته من تحريم الميسر والرقص ابتهاجاً بيوم ختان أبنائه؛ وقد لام شيخه في ذلك ففُصِل من الطريقة. ولم يرتضِ بعدُ اية مصالحة. وأقرّت البلاد كلها تزهده وتقشفه، وما لبث ان انضوى تحت لوائه جمهرة كبيرة من المريدين. ثم إنه دعا هؤلاء المريدين، في سلسلة من المؤلفات، إلى مكافحة الفساد الديني المنتشر آنذاك، إذْ لم يكن ثمة مَجَال - كما قال - لتوقّع أيما مساعدة من الحكومة. وهكذا دَخَلَ في رُوْعه، شيئاً فشيئاً، انه مدعوٌ لأداء رسالة كبرى، حتى نضجت هذه الفكرة في نفسه، ووعد المؤمنين بوصفه المهدي المنتظر (شأن كثير من المصلحين في الاسلام قبله) مُقسماً لهم بالنبي، جده، انه سيملأ العالمين عدلاً وصلاحاً. ولقد قوّى هذا الاعتقاد في نفسه صديقه عبد الله بن محمد الفقيه، الذي اصبح بعدُ خليفة، وهو من قبيلة

« التعايشة البقارة » العربية في جنوب غربيّ دارفور . وقد حثّه عبدالله هذا على القيام برحلة الى كردوفان ، بعد ان بدا له أن قبائل الغرب – وكانت اشدّ بأساً وأعظم شجاعة – مستعدة اكثر من غيرها للثورة . وفي هذه الرحلة احتكّ محمد بجميع الزعماء المدنيين والروحيين ، ومن هنا اقتنع اقتناعاً تاماً بأن النقمة تسود البلاد من أقصاها الى أقصاها . فقد كان ثمة استياء من انغماس السلطات المصرية في الرشوة ، ومن توزيع الضرائب الثقيلة إلى أبعد الحدود توزيعاً غير عادل وجبايتها بالقوة والعنف ؛ أضف الى ذلك ان الحكومة المصرية كانت قد اعلنت الغاء الرقيق ، تحت ضغط الحكومة البريطانية الوصيّة عليها ، وبذلك أُصيبت الحياة الاقتصادية كلها بالاضطراب .

الصراع بين المهدي والحكومة المصرية

ولفت المهدي أنظار الحكومة المصرية اليه ، شيئاً فشيئاً ، وخاصة ، بعد ان اثار شيخه السابق الشكوك حوله غير مرّة . وفي تموز سنة ١٨٨١ اصدر رؤوف باشا حاكم السودان العام امرهُ الى محمد ، وكان في أَبَا (آبَا) ، بالشخوص الى الخرطوم لدفع التّهم عن نفسه . ولكن المهدي رمى بهذه الدعوة عرض الحائط ؛ ونادى نفسه ، منذ اليوم ، سيّد البلاد ، مُعلناً الجهاد ضد الكفّار الذين كان يدخل في عدادهم طبعاً المسلمون غير المعترفين بدعوته . واستخف رؤوف باشا بقوته ، حاسباً ان في ميسوره القضاء عليه بمئتي رجل من حملة البنادق [ومدفعَين] . وفي مساء ١١ آب وصلت هذه القوة الى جزيرة أَبَا يُقلها مركب بخاري صغير ؛ فطوّقت

الاكواخ واطلقت عليها النار . ولكن المهدي واتباعه – ولم يكن معهم حتى ذلك الحين اسلحة نارية – ظلوا في مَكمنهم ولم يخرجوا من وراء الأعشاب الطويلة إلا بعد ان هبط الليل . وما هي الا فترة حتى أُفنيت القوة المصرية كلها ، او كادت ، فلم ينجُ منها الا عددٌ قليل جداً بلغوا المركب البخاري سباحةً . وعلى الرغم من هـــذا النصر ، وطّن المهدي النفس على ان يُهاجر الى كردوفان حتى لا يكون على مقربةٍ من الخرطوم . ولقد تقدّم ، من غير ان يلقى مقاومةً ما ، حتى بلغ جبل كَدِير ، حيث قضى على القوة التي وجهها القتاله « مدير » فأُشودَه . وفي نوار سنة ١٨٨٢ سيّرت الحكومة لحربه جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف رجل . ولكن هؤلاء المقاتلين المتمرّسين بالحرب ، والذين كانوا قبيل ذلك قد وفقوا إلى الاستيلاء على دارفور ، استهانوا بالدروايش الى حدٍّ جعلهم يهملون اتخاذ إجراءات الوقاية المألوفـة في السودان والتي تقضي بأحاطة المعسكر ، طوالَ الليل ، بسياج شائك . وهكذا أتاهم العدوّ بَياتاً فبدّد شملهم .

والواقع أن هـذا النصر اكسب المهديّ أنصاراً جدداً عرف كيف يتألف قلوبَهم ، على طريقة الرسول ، بالغنائم الوافرة . وفي مطلع أيلول ظهر أمام ابواب الأبَيّض . وكان تجار البلدة قـد دخلوا معه في مفاوضات ، ولكن الحامية المصرية أعدّت للقتال . وبعد أن صُدّ الهجوم الأول طوّق المهديّ البلدة ، لتضطرّ إلى الاستسلام في [١٩] كانون الثاني سنة [١٨٨٣] . ومنذ ذلك الحين اتخذ الأبَيّض هـــذه مقراً له . وتقاطر المؤمنون من أطراف

السودان لرؤية « وليّ الله » . وكان يظهر امام اتباعه في منتهى البساطة والتواضع ، فهو لا يرتدي غير جبة وسروالٍ من كتان ، وهو يتمنطق بمنطقة او حزام من القطن على حقويه . ولكنه كان قد استسلم منذ زمن طويل الى حياة الترف والملذات . فقد كان شديد الرغبة في النساء ، وقد اعتاد ان يختار اجمل فتيات الغنيمة لنفسه .

وكانَ نظام الحكم الذي اصطنعه المهدي غايةً في البساطة . فقد كان خُمس الغنيمة ، بالاضافة الى أموال جميع المتهمين بالخيانة العظمى والسرقة ومعاقرة الخمور او تدخين التبغ ، تصبّ كلها في خزانة الدولة وفقاً للقانون الاسلامي . وكان الذين يشكون في رسالة المهديّ يعاقبون إما بمصادرة الممتلكات أو الموت . وحُرّمت دراسة الكلام والفقه ، وكانت من قبلُ فرضا واجبا ، وأُحرقت جميع الكتب التي تعالج هذه الموضوعات . وأوصى المهدي ، بدلاً من ذلك ، بقراءة القرآن وشيء من حديث النبي قراءةَ تدبّر وتأمّل ولكنه حرّم دراستها في المجالس العامة .

وكانت القوات البريطانية قد احتلت مصر في هذه الأثناء ، فاذا بحكومة الاحتلال تبعث بـ « هيكس » باشا * الى السودان ، على رأس عشرة آلاف مقاتل مصريّ . وكان تقدُّم هذا الجيش بجماله البالغ عددها ستة آلاف بطيئاً جداً بسببٍ من نقمة الجند على الحكم البريطاني ، حتى لقد استطاع المهدي ان يستعدّ للقائه على مَهَل . وفي ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٨٣ تقدّم لقتال المصريين

* Hicks Pasha

في البِرْكَة الواقعة على نحو سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرقيّ الأبيّض . وقد وفق المصريون الى صدّ هجومه الأول على معسكرهم ، بيد انه هاجم الجيش في اليوم التالي ، في اثناء مسيره ، وأبادَهُ عن بكرة ابيه .

غوردن يسعى لتوطيد الحكم البريطاني المصري في السودان

وانطرحَ السودان كله ، بعد هذا النصر ، على قدمي المهدي . ولاذ الاوروبيون والمصريون النازلون في المدن الرئيسية بأذيال الفرار . وفي كانون الاول سنة ١٨٨٣ استسلم سلاتين باشا * — وهوضابط نمساوي سابق ، وكان قائد « دارَة » عاصمة دارفور — بعد أن حارب اتباع المهدي طوال سنة كاملة ، على غير طائل . وكانت الحكومة البريطانية قد استعدت للتنازل نهائياً عن السودان ، وبعثت بالجنرال غوردُن ** ، قامع ثورة « تايبنْج » في الصين ، الى الخرطوم لكي ينقذالاوروبيين الذين ما انفكوا يعيشون هناك ، ويعود بهم الى مصر . وقد سبق لغوردن هذا ان كان حاكماً عاماً على السودان ، فحسب انه يتمتع بشعبية خاصة هناك ، وان في ميسوره ان يوطّد دعائم الحكم البريطاني المصري ، على مسؤوليته الشخصية ، ولكنّ مكانته كانت قد ضعفت كثيراً بسبب من مكافحته تجارة الرقيق . وفي ١٨ شباط وصل الى الخرطوم ؛ وفي الحال بعث بكتاب الى المهديّ أبدى فيه استعداده للاعتراف به سلطاناً على كردوفان ، وإباحة التجارة

---

* Slatin Pasha

** Gordon

بالرقيق ، واقامة علاقات تجارية معه اذا ما اطلق سراح أسراه . فأجابه المهدي طالباً اليه الاستسلام ؛ وفي ٢٢ آب خرج يريد الخرطوم ، جامعاً حوله قوات مقاتلة من كل مكان ، فيما كان يزحف متمهلاً . وفي تشرين الاول حاصر المدينة ؛ ولكنّ الحصار لم يحرز باديء الأمر غير تقدّم ضئيل لأن جيوش المهدي كانت اعجز من ان تتغلب على المدفعية البريطانية . وإذْ كان غوردن قد اهمل إخلاء المدينة من غير المحاربين فقد انتهى المحاصَرون الى ان يعانوا ، وشيكاً ، ازمةً في الأقوات حادّة . وفي نيسان سنة ١٨٨٤ تقدّم جيش بريطاني في النيل وهزم قوات المهدي المعسكرة في المراكز الأمامية عند المَتَمَّة . ولكن أمّ دُرْمان استسلمت في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٨٥ ، وفي ليل ٢٥ - ٢٦ كانون الثاني شنّ المهديُّ ، على رأس اتباعه ، هجوماً على المدينة . وقُتل غوردن في قصره .

وكان على البريطانيين ان يتركوا السودان وشأنه ، موقتاً . فنقل المهدي مقره الى الخرطوم حيث بلغ أوج قوته . ولكي يقي اتباعه - الذين حُمِلوا على ان يلبسوا مثله لباس الدراويش - من جميع المؤثرات المعادية له فقد ضرب ستاراً حديدياً حول مملكته ومنع الحجّ الى مكة . والحق ان قدَراً سعيداً انقذه من شرّ الحياة إلى زمن يرى فيه الى سلطته تضعف وتنحلّ فأصيبَ في منتصف حزيران سنة ١٨٨٥ بالتيفوس ، ليموت بعد ذلك باسبوع .

الخليفة عبد الله

وفيما كان المهدي على فراش الاحتضار ثبّت ، للمرة الثانية ،

صديقه عبدالله ، خليفة له وكنّاه بأبي بكر . وكان عبدالله يد المهديّ اليمنى في حياته ، فبايعه المؤمنون من غير ما اعتراض . ثم إنه مكّن لنفسه بأن خلعَ الخليفتين الآخرين اللذين عيّنهما المهدي . ليس هذا فحسب ، بل لقد استدعى الاميرَ عبدالكريم ، الذي كان يحاصر الحامية المصرية في كَسَلا بسببٍ من انه فاه ببعض الملاحظات الطائشة حول سلطة الخليفة ؛ واكرهه على ان يسلّم الجيوش الزنجية المقسمة بين الاخلاص له شخصياً . ونقل عبدالله عاصمته الى ام درمان ، وهي قلعة الخرطوم ، الواقعة على ضفة النيل اليسرى ، والتي كان اتباع المهدي قد استولوا عليها .

حروبه في الحبشة

وفي هذه الأثناء كانت كَسَلا قدسقطت ، واخذت القوات المصرية ايضاً في الجلاء عن سائر المراكز الحصينة الواقعة على الحدود الحبشية . وعيّن الخليفة على القلاّبات اميراً ما لبث ان خرج مهاجماً الحبشة ؛ ولكنه لم يكد يغزو مقاطعة أَمْهَرَه حتى أنزل به الحاكم ، الرأس عَدار ، هزيمة قاسية . ولكي ينتقم الخليفة لهذا الأخفاق فقد سيّر الى الحبشة جيشاً كبيراً يتألف من نحو ستين الف مقاتل . عندئذ تقدّم الرأس عَدار للقائهم في سهل دَبْرَ سِيْنَة ، فمُني بهزيمة قاصمة ، فما كان من أتباع المهديّ إلاّ ان زحفوا إلى قُنْدَرْ (غوندار) ، عاصمة الحبشة آنذاك ، وأحرقوها ، بعد أن غادرها سكّانها ، ثمّ عادوا الى القلاّبات .

وفي مطلع سنة ١٨٨٩ عزم يوحنا امبراطور الحبشة على ان يغسل هذا العار فحشد جيشه كله ؛ ثم سار الى القلاّبات على رأس

فرقتين تتألف احداهما من مقاتلين من قبيلته هو ، تِيغْرِي ، وتتألف الأخرى من مقاتلي أمهره . وفي اليوم الاول من الحصار وفق الأمهريّون الى دخول المدينة ولم تكن محصنة تحصيناً قوياً . فدبّ الحسد الى قلب يوحنا فأمر فَحُمل على عرشه وسار موكبه بين صفوف جنده يستفزهم ويحثهم على القتال . فجُرِح وتوفي في الليلة نفسها ، ٩ آذار سنة ١٨٨٩ . عندئذ انسحب الأحباش – بعد ان فقدوا زعيمهم – تحت جنح الظلام لأنه كان من النادر عندهم أن يتولى العرش امبراطور جديد من غير شقاقٍ وخصام . فتعقّبهم أتباع المهدي واكرهوهم على مغادرة معسكرهم هاربين .

وكانت المقاطعة الاستوائية التي احتفظ بها للمصريين ، حتى ذلك الحين ، امين باشا (الدكتور شنتزلر *) – قد سقطت في ايدي اتباع المهدي ، صيف سنة ١٨٨٨ ، بعد ان انسحب امين باشا مع ستانلي ** الى الساحل الشرقي .

الخليفة يحاول غزو مصر

بعد هذه الانتصارات عزم الخليفة ، [عبدالله التعايشي ، على غزو مصر ، وهو مشروع كان المهدي ينوي تحقيقه . وفي نوار سنة ١٨٨٩ سيّر جيشاً الى الشمال ، على رأسة عبدالرحمن النُجُومي ، وعهدَ اليه في اجتياز وادي حَلفا ، والاستيلاء على أسْوان ، حيث كان عليه ان ينتظر اوامر جديدة . ولكن حامية وادي حلفا نفسها استطاعت ان تنزل به خسائر جسيمة ، اثناء

---

* Dr. Schnitzler

** Stanley

زحفه . وفي طوشكي خرج لقتاله قائد الجيش المصري العام فقضى على جيشه قضاءً تاماً . والواقع ان عام ١٨٨٩ هذا حمل اليه نحساً جديداً ، فقد انتشرت في السودان مجاعة لم يكن للخليفة قِبَلٌ بمكافحتها بسببٍ من احاطة الاعداء به من كل جانب وعجزه عن تموين البلاد من الخارج .

وفي سنة ١٨٩٠ وفّق الخليفة الى إخضاع الشّلك ، اشجع القبائل الزنجية في السودان ، فكان في ذلك تعويض له من خسائره السابقة . وقد هوجمت هذه القبائل ، بالمراكب ، في عاصمتها فاشوده فلم تقو على الصمود طويلا في وجه اتباع المهدي المسلحين بالرشاشات .

واستثار حكم الخليفة الاعتباطي نقمة انسباء المهدي بخاصة ، بعد ان ان تقلّص نصيبهم في الحكومة وتضاءل . فلم يكن من زوجة المهدي الرئيسية التي كان قد دعاها عائشة امّ المؤمنين ، اقتداءً بالرسول ، إلاّ ان انبرت من بين أراملِه جميعاً ، لتحريض الناس على الخليفة ، شأن سميّتها عائشة التي حرّضت المؤمنين على علي ابن ابي طالب . وتلقّى الخليفة من عيونه وجواسيسه تقارير عن مؤامرة يدبّرها ضده انسباء المهدي الذين كانوا يدعون «الاشراف» على غرار آل البيت النبوي . والحق ان هذه التقارير بلغت المهدي في الوقت المناسب . فلم يكادوا يجمعون شملهم ويتأهبون للهجوم عليه حتى وفّق الى تطويقهم برجاله ، ولكنه عفا عنهم حرصاً منه على سلامة المؤمنين ، وتنازل لهم عن امور كثيرة . حتى اذا القوا السلاح ، واثقين من حسن نيته ، اجرى تحقيقاً قضائياً ضدّهم

ونفاهم إلى فاشوده .

وعلى الحدود الحبشية تعرّضت دولة المهدي لخطرٍ من جانب لايطاليين الذين كانوا قد احتلّوا مَصَوَّع بعد انسحاب المصريين، والذين اخذوا يندفعون الآن من هناك الى أنحاء البلاد الداخلية . وهنا اصطدموا ، في تشرين الثاني سنة ١٨٩٣ بأحد جيوش الخليفة، وكان مؤلفاً من نحو عشرة آلاف مقاتل على أُهبة القيام بغزوة ضد العرب في السودان الشرقي ، فنجحوا في التغلّب عليه . وفي ربيع سنة ١٨٩٤ هاجموا كسَلا . فأبت الحامية المهديّة ، وكانت ناقمة على قائدها ، ان تقاتل الايطاليين وانسحبت إلى قوز رجب . ولكن امبراطور الحبشة مَنَلِيك حال دون تقدّم الأيطاليين الى أبعد من ذلك . والواقع أن الهزيمة الدامية التي أنزلها بهم عند عَدْوَه في غرة آذار سنة ١٨٩٦ قضت على كل خطر كان يمكن ان يتهدّد أتباع المهدي من هذه الجهة .

كتشنر يقضي على امبراطورية المهدي

ولكن العاصفة التي قدّر لها ان تضع حداً لدولتهم كانت في تلك الاثناء ، قد أخذت تتجمّع في الشمال . ففي خريف سنة ١٨٩٦ صدر الأمر الى السردار كتشنر * ، القائد العام للجيش المصري ، بتجريد حملة على السودان ، فقضى في معركة ام درمان الدامية التي قُتل فيها الخليفة نفسه ، قضاءً نهائياً على امبراطورية المهدي . ولكن هذا النصر لم يستطع ان يقضي على تعاليم المهدي أيضاً . فقد كان على حاكم السودان البريطاني العام ، حتى تموز

* Kitchener

سنة ١٩٢٨ ، أن يبرّر ضرورة الاحتفاظ بسلاح جوّي قويّ هناك بالاشارة الى ان ثمة خطراً ، قد يكون خفيّاً ولكنه ماثلٌ أبداً ، من انفجار جديد للحركة المهدية . ٩

محمد بن عبدالله حسن مهدي الصومال

وفي اواخر العقد العاشر من القرن التاسع عشر (١٨٩٠–١٩٠٠) ظهرت حركة ذات صلة بالحركة المهدية بين صوماليي القرن الشرقي من افريقية ١٠. ذلك أن محمد بن عبدالله حسن ، من قبيلة أُغادِين ، كان قد حجّ الى مكة سنة ١٨٩٥ ، وهو في الخامسة والثلاثين تقريباً ، وهناك أقنعه محمد بن صالح ، تلميذ الصوفي السوداني ابراهيم الرشيدي ، بالانضمام الى الطريقة الصالحية التي أسسها هو ، والتي تفرّعت عن الطريقة المهدية . حتى اذا رجع الى وطنه نزل بين ظهراني قبيلة دُلْبُهانته وطفق يعمل ، على آثار استاذه ، في سبيل خلق جوّ من التقوى بين المسلمين يكون أعمق وأصحّ . وسرعانَ ما اكتسب نفوذاً كبيراً في القبيلة ، وبين انسبائه من قبيلة أُغادِين ، حتى لقد رأت الأدارة البريطانية في بَرْبَرَة ان تفيد منه في تهدئة الاضطرابات الناشبة بين البدو . ولكنه أعلن سنة ١٨٩٩ أنه المهديّ . ومن ذلك الحين أقضّ « المُلاّ المفتون » كما دعاه البريطانيون ، مضاجع هؤلاء ومضاجع الايطاليين والأحباش ايضاً بغزواته الحربية ، طوال عشرين عاماً تقريباً .

(٩) انظر اللورد لويد Lord Lloyd, *Egypt since Cromer*, II, London, 1934, p. 346.

(١٠) انظر جاردينا D. Jardina, *Il Mullah del paese dei Somali*, trad. da Mario Quercia, Rome, 1929.

وعلى الرغم من ان البريطانيين هزموا عصاباته اكثر من مرّة فقد كانت الدولتان الاستعماريتان على استعداد لأن تتخليا له سنة ١٩٠٥ عن الجزء الايطالي من وادي نُوجَال (بالجيم المصرية) كمنطقة مستقلة . ولكنه عاودَ سنة ١٩٠٨ غاراته على المستعمرات الايطالية والبريطانية . وفي اثناء الحرب العالمية الاولى وفّق الايطاليون الى القضاء على سلطته في شمال الصومال من طريق معاهدات عقدوها مع زعماء القبائل التي كانت معادية له . ولكن بريطانية لم توطن النفس على القيام بعمل حاسم ضدّه إلا في مطلع سنة ١٩٢٠ ؛ وقد كان من اليسير على اسطولها الجوي أن يدمّر مواقعه كلها . ثم إنه لاذ بالفرار الى قبيلته ، أُغادِين ، بعد أن طاردته الهجانة البريطانية وحلفاءُ البريطانيين من اهل الصومال ، حيث قضى نحبه في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ . والواقع ان محاولته توحيد شعبه على اساس دينيّ بصرف النظر عن جميع المنازعات القَبَليّة إذ حاول أن لا يحكم إلاّ عن طريق الدراويش على غرار المهدي السوداني ـ نقول ان محاولته هذه كانت قد انتهت الى الاخفاق سنة ١٩٠٥ بعد أن أصدر استاذه في مكة ، بتحريض من البريطانيين والايطاليين ، قراراً بفصله من الطريقة ، ومن هنا صار في مقدور الطريقة القادرية ، الواسعة الانتشار بين الصوماليين ايضاً ، أن تقاتله بوصفه مبتدعاً او زنديقاً . ومن ذلك الحين أمسى مجرّد زعيم من زعماء القبائل يتّبعه أنصاره طمعاً في الغنيمة الوافرة ليس غير .

وفيما كان دراويش المهدي يسيطرون على شرقي السودان ،

كانت قد نهضت في الغرب قوة جديدة على انقاض الممتلكات المصرية السابقة . فقد كان بحر الغزال خاضعاً في العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ – ١٨٨٠) للزبير باشا وهو عربيّ حكم الأقليم ، من قِبَل الخديوي ، حكماً مستقلاً نسبيّاً . [١١] وفي أواخر سنة ١٨٧٤ ، عندما استُدعي الى القاهرة ليواجه منتقديه بنفسه ، عيّن ابنه سليمان نائباً عنه ، وقد ظلّ هذا في منصبه حتى بعد سجن والده . وبينا كان غوردن يكافح تجارة الرقيق سنة ١٨٧٩ ، بوصفه حاكم السودان العام ، اتفق سليمان مع هارون ، سلطان دارفور المخلوع ، على حربه . ووفّق جَسّي باشا * الايطالي الى إدراكه بعد ملاحقة طويلة ، وأعلن سليمان استعداده للاستسلام اليه ولكن اخاه في الرضاعة ، رباح ** – وهو عربي من سَنّار كان قد خدم أباه خدمة مخلصة ومن ثمّ شاركه في مصائبه كلها – حاول ان يثنيه عن ذلك ؛ حتى اذا أصرّ سليمان على رأيه غادر رباح المعسكر مع بضعة آلاف من افضل جنود الزبير . ثم إنه تمركز في مقاطعة دَارْ مَانْجَة الجبلية ، واخذ يشنّ من هناك غزوات تهدف إلى السبي والرقيق . وبعد أن أخضع حاكم دولة كُوتِي الزنجية وصدّ هجوماً قام به سلطان وَدّائي الذي كان يحاول إنجاد هذا الأخير ، تلقى سنة

(١١) انظر تيلو M. Thilo, *Ez-Zber Rahmat Paschas Autobiographie, Ein Beitrag zur Geschichte des Sudans*, Bonn—Leipzig, 1921.

* Gessi Pasha

** وفي بعض المصادر « رابح » ايضاً . [المعربان]

١٨٨٤ أمراً بالخضوع للمهدي . ولكنه أبى ذلك مستنداً الى موقف شيخ الطريقة السنوسية الذي رمى المهديّ بالزندقة .

الحركة السنوسية

والسنوسية أخويّة دينية نزل مؤسسها محمد بن علي (المولود في طُرُش قرب مُسْتَغانِم في الجزائر سنة ١٧٩١) في الجبل الأخضر بطرابلس الغرب سنه ١٨٣٤ ، بعد أن اقام مدة طويلة في مكة حيث أسس زاوية شهيرة للدراويش . وفي سنوات قلائل نشر محمّد طريقته ، من هناك ، في إفريقية الشمالية كلها . ولكنّ عداوة السّنّة المتغلّبين في تلك الديار اضطرّته الى ان ينقل مقرّه الى جَغْبوب الواقعة على مسيرة يومين او ثلاثة جنوب شرقي واحة سِيْوَه . كذلك وفق الى ان يكسب نفوذاً كبيراً في الدول الزنجية ، من طريق رُسله ومبعوثيه . حتى اذا توفي سنة ١٨٥٩ خَلَفَهُ في زعامة الطريقة ابنه الشاب محمد المهديّ الذي توفي في جُرُو سنة ١٩٠١ . وقد نقل محمد هذا مقرّ الطريقة الى كُفْرَة سنة ١٨٩٥ ثم الى جُرُو سنة ١٨٩٩ . ولكن ابن أخيه ، احمد ، الذي خلَفَهُ في زعامة الطريقة نقل مقرّه الى كُفْرَة ، كرة أخرى سنة ١٩٠٢ . وفي كثير من المواطن في داخل إفريقية ، وعلى طول طريق القوافل الى مكة بصورة خاصة ، كانت للسنوسية زوايا يعيشون فيها على الزراعة والفلاحة ، وينشرون مُثُلهم الثيوقراطية الخالصة ، مُنكرين في الوقت نفسه ان يكون للسلطان التركي حقّ في الخلافة . وبعد احتلال الايطاليين طرابلس الغرب شاركت الطريقة في النضال ضدّهم ؛ وفي الحرب

العالمية الاولى وقفت الى جانب تركية ، فهاجمت في شتاء ١٩١٥ – ١٩١٦ مصرَ بعد أن استولت على مرفأ السلّوم الهامّ ، وحتى بعد ان استعاد البريطانيون هذا المرفأ في شباط سنة ١٩١٦ ، هدّد السنوسيون مصر عدة مرات أخرى خلال صيف ١٩١٦ . ولكن طاقتهم العسكرية كانت قد تضاءلت كثيراً ، على الرغم من ان أخاً للشيخ محمد العابد ، وكان اصغر سناً من محمد هذا ، واصلَ القتال ضدّ الفرنسيين في الصحراء الكبرى حتى سنة ١٩١٨. وبعد ان أخضع الجنرال غراتزياني * طرابلس الغرب نهائياً عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى قصد الشيخ الى انقرة رجاءَ أن يستطيع هناك مواصلة النضال في سبيل مبدأه وعقيدته . ولكن الدولة التركية الجديدة انتهجت سُبُلاً مغايرة ، فاضطرّ وشيكاً الى وَقفِ نشاطه والاخلاد الى السكينة .

رباح واتساع الامبراطورية الفرنسية في افريقية

وولى رباح وجهه شطرَ الغرب نحو بحيرة شاد ، بعد ان اخفق هجومه على سلطنة ودّائي سنة ١٨٨٧ وفي سنة ١٨٩٢ هاجم سلطانَ باجِرْمي واحتل عاصمته بُوْجومَن ، بعد حصار دام سبعة اشهر . ثم إن بُورْنو – وهي من اقدم واعظم الدول القائمة في داخل افريقية ، ولكن أهلها كانوا قد نسوا منذ زمن طويل صناعة الحرب – سقطت في يديه سنة ١٨٩٣ . ونقل رباح مقرّه الى دِكوَهْ ، على الشاطيء الجنوبي الغربي من بحيرة شاد ، وكانت في مطلع القرن التاسع عشر عاصمة بُورْنو فترة قصيرة من الزمان .

* Graziani

وكان رباح قد أبقى على الامراء الوطنيين في امبراطوريته – الممتدة ما بين وَدَّائي في الشمال ، وسُوكوتو في الجنوب ، وإمارة أَدَماوَه التي خضعت بعدُ للالمان ، في الجنوب الغربي ، والدولة المهدية في الشرق – بوصفهم تابعين له ولكنه عيّن الى جانبهم نفراً من المقربين اليه كمستشارين ومراقبين ؛ ولم ينصّب حُكاماً جدداً إلا في عدد قليل من المناطق. ومن ناحية نظرية ، حاول رباح ان يضع القانون الأسلامي موضع التطبيق ؛ وكان قاضي القضاة في عهده هو « هياتو » ، أمير سوكوتو الذي حِيل بينه وبين التربع على العرش في بلاده فوقف حياته للعلم. واذْ كانت الضرائب المفروضة على المناطق – وكان رباح يختصّ نفسه بنصفها – غيرَ كافية لسدّ نفقات جيشه فقد واصل شن غارات السبي والرقيق التي ساعدته في الوقت نفسه على ان يضمن لرجاله تدريباً عسكرياً دائماً . وكانت طرابلس الغرب ، في العادة ، سوقاً لغنائمه البشرية ، ولكن طرق التجارة عبر الصحراء الكبرى امست ، بعد الفتح الفرنسي لتمبكتو في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٩٤ ، عُرْضة لغزوات الطّوارق الذين كانوا قد انسحبوا في اتجاه الشرق .

وهكذا شرع يبحث عن اسواق جديدة في الغرب فهاجم سنة ١٨٩٦ دولة الفول (الفلاتة) في سوكوتو ؛ وعلى الرغم من إحرازه عدداً من الانتصارات فقد تخلّى عن هذا المشروع لاضطراره الى الاحتفاظ بقواته سليمةً استعداداً للنضال ضد الفرنسيين الذين كانوا يبذلون غاية الجهد ، منذ زمن طويل ، في سبيل الاستيلاء على بحيرة شاد ، ابتغاء توحيد مستعمراتهم

في شمال افريقية وغربيها .

وفي سنة ١٨٩٧ قصد احد موظفي الادارة المدنيين في الكونغو الفرنسي ، واسمه جنتيل * ، الى بحيرة شاد وانشأ يفاوض امير باجرمي ؛ فلم يكن من رباح إلا ان اشعل النار في عاصمة تابعه هذا ، عقاباً له وتأديباً . وفي سنة ١٨٩٩ سار الحاكم الاداري الفرنسي بروتونيه ** لقتال رباح على رأس اربعة واربعين سنغالياً من حملة البنادق متوهماً أنّ في استطاعته التغلب عليه بهذه القوة وباربعمئة من المقاتلين التابعين لامير باجرمي ، ولكنه هُزم في ١٨ تموز وقُتل هو ورجاله جميعاً . ثم ان رباحاً انقلب الى بلدة كُونو الحصينة فهاجمه جنتيل متقدّماً نزولاً مع مجرى نهر شَري . وفي آخر تشرين الاول اشتبك الفريقان في معركة وحشية دارت رحاها في الشوارع ، فأصيب الفرنسيون اصابات شديدة اضطرّت نصفهم الى مغادرة الميدان ، واصيب رباح نفسه بجراح ، ولكن القلعة الرئيسية ظلت صامدة . ومن الشمال تقدّم القومندان لامي *** الى بحيرة شاد ، عبرَ الصحراء الكبرى ، ونصّب سلطاناً جديداً في بورنو ، والتقت قواته بقوات جنتيل في دلتا نهر شَري . وفي ٢٢ نيسان نشبت معركة فاصلة انتهت بانتصار الفرنسيين على اعدائهم انتصاراً كلّفهم غالياً . وقد قُتل في هذه المعركة رباح نفسه ، واحتلّت عاصمته ، دِكْوَهْ ، في غرّة نوّار . والواقع

---

* Gentil

** Bretonnet

*** Lamy

ان ابنه فضل الله ، الذي لجأ باديء الامر الى المنطقة البريطانية على ضفاف نهر بَنُوَهْ وَّفق الى استنقاذ دِكوَهْ ، ولكنه مالبث ان هُزم وقُتل . وقُسمت البلاد الواقعة حول بحيرة شاد — وفقاً لمعاهدتي ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٩٣ و ١٥ آذار سنة ١٨٩٤ — بين فرنسة وبريطانية والمانية . وفي ١٠ تموز سنة ١٨٩٨ عندما سقطت دولة المهدي في صراع مع بريطانية العظمى زحف القومندان مارشان * الفرنسي الى منطقة فاشوده الآهلة بالشِلك ، والتي كان خليفة المهدي قد اخضعها سنة ١٨٩٠ . ولكنه اضطر ، في ١٩ ايلول ، الى ان ينسحب في وجه كتشنر ؛ وبعد مفاوضات متطاولة أُلحقت فاشوده بالسودان المصري البريطاني ، في ١١ كانون الاول . وفي سنة ١٩٠٤ ، بعد عَقد الحلف الثلاثي ، غُيّر اسم فاشوده المشؤوم فصار كُودُوك ابتغاءَ القضاء على ذكرى النزاع الذى نشب حولها بين الدولتين الغربيتين [١٢] .

---

* Marchand

(١٢) انظر فون اوبنهايم von Oppenheim, *Rabih und das Tschadseegebiet*, Berlin, 1902.

فارس وافغانستان

آغا محمد القاجاري يبسط سلطانه على فارس

وفي فارس ، تنازعت السلطةَ بعد تفسُّخ دولة نادر شاه جمهرةٌ من الأسر النابعة في مختلف أجزاء البلاد . ومن اشهر الذين شاركوا في هذا الصراع واكثرهم نجاحاً « القاجار » الذين كانوا قد جاءوا الى فارس بوصفهم احدى القبائل التركية السبع في جيش اسماعيل الاوّل الصَّفَوي ، والذين حاول الشاه عباس الاول الحدّ من قوتهم فقسمهم جماعاتٍ ثلاثاً وانزلهم قرب مرو ورَوَان (أَربِوان) وجَنْزَه في بلاد الكرج (جورجيا)، وكذلك في أَسْتَرَاباد على الشاطىء الجنوبي الشرقي من بحر قزوين . وبعد وفاة نادر شاه ، أعلن زعيم فرع أستراباد ، محمد حَسن استقلاله بالمقاطعات القزوينية ثم فتحَ آذَرْبَيجان. حتى إذا تصدّى بعد ذلك لقتال كريم خان صاحب شيراز اصطدم بأحد الزعماء القاجار ، ليُقْتل على يد هذا الزعيم . وكان ابنه آغا محمد الذي خصاه علي شاه في سنّ الخامسة ، يقيم في بلاط كريم خان كرهينة سياسية . فلما توفي كريمٌ هذا سنة ١٧٧٩ فرّ الى مازَنْدَرَان، ومن هناك بسطَ سلطانه على فارس كلها بما شنّ من

غزوات وحروب استغرقت عشرة أعوام . ونقل آغا محمد عاصمته الى طهران . وفي سنة ١٧٩٥ اخضع بلاد الكرج ، وكان ملكها هِرَقل قد حالف الروسيا سنة ١٧٨٣ ولكنّ ذماته تخلّوا عنه . وفي السنة التالية تَوَّج نفسه شاهاً على فارس . ثم إن الامبراطورة كاترينا الروسية رغبت في تعديل سياسة الروسيا الفاشلة نحو بلاد الكرج ، فجهّزت سنة ١٧٩٦ جيشاً احتل ، قُبيل وفاتها ، دَرْبَنْد [باب الابواب] وباكو . ولكن ابنها بطرس ، وكان مستضعفا ، سارع إلى استدعاء الجيش . فلما كانت سنة ١٧٩٧ زحف الشاه الى بلاد الكرج من جديد ، حتى إذا احتلّ « شيشة » ، على ضفاف نهر آراس ، اغتاله خادمان كان قد حكم عليهما بالموت لسببٍ تافه .

وخلفَ آغا محمد ابنُ اخيه فَتْح علي شاه الذي اضطُرّ بادىء الأمر الى استخلاص العرش ، بقوة السلاح ، من عمه صادق خان . وإنما كان همّه العاجل اعادة بناء طهران التي كان الأفغان قد دمّروها . بيد أنه لم يكن يُمضي فيها غير اشهر الشتاء ، في حين كان يقضي الصيفَ ، جرياً على عادة أسلافه البُداة ، في مُخيّمات كبيرة في سهل السلطانية . والحقّ أنه نظر الى فارس نظرته الى بلاد معادية مفتوحة فليس من واجبه ان يحكمها بل أن يستغلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان أولاده حكّاماً على الولايات ، وكانوا يتر سّمون في ذلك خطاه .

فتح علي ونابوليون

وإذا كانت سياسة فارس الخارجية مقتصرة ، حتى ذلك الحين ،

على علاقاتها بالروسيا والامبراطورية العثمانية ، فالواقع ان نابوليون كان قد ادخلها في نطاق خططه الخطيرة . ذلك بأنه كان يتطلّع إليها ، حتى بعد انسحابه من مصر وسورية كقاعدة للعمليات الحربية ضد الهند. وعندما ذرّ قرن الخلاف بينه وبين الروسيا أرسل بعثة خاصة على رأسها الجنرال غاردان * من قارصوفيا الى طهران، سنة ١٨٠٧ ، بعد ان عقد مع الشاه معاهدة ضدّ الروسيا ، في ٧ تموز . ومهما يكن من امر فقد قضت معاهدة تلسيت على كل امل كان يراود الشاه في الحصول على مساعدة نابوليون . وهكذا ولى الشاه وجهه شطر بريطانية ملتمساً منها ان تمدّه بضباط يتمون العمل الذي بدأته البعثة العسكرية الفرنسية في الجيش الفارسي . بيد ان هؤلاء المدرّبين البريطانيين لم يستطيعوا خدمة الجيش الا قليلاً لان الناهضين باعباء الحروب في فارس كانوا حتى ذلك الحين جماعات من الفرسان البدو ليس غير ، ولم يكن ثمة ايما اساس لتكوين جيش مدرب من المشاة .

الحرب ضد الروسيا

وعلى الرغم من ان الشاه اعلن استعداده ، بادىء الامر ، للاشتراك في حملة يقوم بها نابوليون على الهند ، فالواقع ان هدفه الرئيسي كان إعادة فتح بلاد الكرج ، التي أُلحقت رسمياً ، سنة ١٨٠٠ ، بالروسيا بعد ان قدّم آخرُ ملوكها ، جورج الثاني عشر، تاجَهُ الى القيصر، وهو (اي جورج) على فراش الاحتضار. وكان الشاه لا يزال قادراً على ان يصدّ زحفاً اولياً قام به الروس

* Gardanne

على رَوان ، سنة ١٨٠٤ ؛ كذلك استطاع ان يدافع عن شواطىء بحر قزوين دفاعاً ناجحاً ايضاً . ولكن جيشاً روسياً ما لبث ان سار سنة ١٨١٢ لقتال الفرس على نهر آراس ، فدارت بين الفريقين معركة هُزِم فيها الفرس هزيمة قاصمة ، وقُتل قائد المشاة البريطاني . عندئذ أُكرهت فارس على قبول الصلح . فلم يكن من عباس ميرزا ، وليّ العهد الذي كان يقود الجيش ، الا ان تخلى عن كل مطمع للفرس في ولايات القوقاز : جورجيا وداغستان ومينگرلي ، وإيمرتيا ، والابخاز ؛ كما تنازل للروسيا عن دَرْبَند ، وباكو ، وشِرْوان ، وشَكّي وقره باغ ، والجزء الاكبر من تَلِش (الطيلسان) في مقاطعة جِيلان على بحر قزوين ؛ متعهداً فوق هذا بأن لا يحتفظ بسفن حربية في هذا البحر في المستقبل — كل ذلك مقابل حصوله على وعد بتأييده عندما يتولى العرش .

ولكنّ معاهدة گلستان هذه لم تعين الحدود الفاصلة بين الدولتين تعييناً دقيقاً . فكان من نتائج ذلك أن نشب بين الفريقين خلافٌ انتهى الى اندلاع نار الحرب من جديد ، في صيف سنة ١٨٢٦ . عندئذ عبرَ وليّ العهد ، عباس ميرزا ، حاكم آذربيجان ، نهرَ آراس واحتل تَلِش . ولكنه هُزِم في ايلول قرب جَنزَه ، وأكره على الارتداد عبر النهر الى الضفة الاخرى .

وفي ربيع سنة ١٨٢٧ عبر الروس بقيادة الجنرال پاسكيڤتش *

* Paskievitch

الحدودَ الفارسية . فقاومتهم مدينة رَوَان الحصينة مقاومة ناجحة ولكنهم وفقوا الى احتلال أَچمِيَاچين المجاورة - مقر البطريركية الارمنية - واحتلال نَخْشَبان* وقلعة عباس آباد الهامة ايضاً . حتى اذا خفّ عباس ميرزا لاستنقاذ عباس آباد هذه مُني في ١٨ تموز بهزيمة قاسية، ولكنه ما لبث ان وُفق في ٢٩ آب الى احراز نصر على الروس عند أَچمياچين . بيد ان الشاه الشحيح ضنّ عليه بالمال الضروري لمواصلة الحملة ، فاضطر الى ان ينسحب من الميدان امام الروس الذين استولوا على رَوَان في ١٣ تشرين الاول . عندئذ انطرحت آذربيجان كلها على اقدامهم ، فاحتلوا تَبْرِيز ،ودمروا في تشرين الاول أَرْدَبِيل، حيث وُلدت الدولة الصفَوية . وفي ٢١ شباط سنة ١٨٢٨ أكره الشاه على عقد صلح تُرْكُمانچاي الذي تنازل بموجبه عن مقاطعتي روان ونخشبان ومنح الروس امتيازات في امبراطوريته ، على غرار الامتيازات المعمول بها في تركية . وما هي الا فترة حتى طالبت الدول الاوروبية الاخرى بمثل هذه الامتيازات. والواقع ان بريطانية استغلت العُسْر المالي الذي ألمّ بالشاه بسببٍ من نفقات الحرب الروسية لكي تحمله على التخلي عن حقه في المساعدة التي وُعِد بها في معاهـــدة طهران سنة ١٨١٤ .

اخضاع خراسان

وحاول الشاه ان يعوض خسارته للمقاطعات الغربية من طريق الانصراف الى استثمار خراسان استثماراً جدياً ، وهي التي كانت

* وهي «نسف» (بفتح ففتح) وتسمى ايضاً « نخشب » . [المعربان]

تؤلف منذ زمن طويل جزءاً اسمياً من امبراطوريته . وكانت قد عُمّرت في تلك الديار جماعة قوية من نبلاء الفرس؛ وكانت البلاد عُرضة لغزوات البدو من التركمان التي ما تكاد تنقطع . وفي خريف سنة ١٨٣١ وُجه عباس ميرزا الى هناك ، فأخضع البلاد في سنتين ، بعد ان اضطر الى ضرب الحصار على المدن الرئيسية فترات طويلة من الزمن في بعض الاحيان . والواقع ان سقوط سَرَخْس ، التي كان يحكمها « خـانٌ » تركمانيّ ، أكرهت جاره « خان » خُوَارِزْم ، الذي قام بمحاولة مخفقة لنجدته ، على وضع حـد لغزواته .

محاولة اخضاع افغانستان ايضاً

وسعى عباس بعد هـذا الفوز ، لاخضاع افغانستان ايضاً . وفي هذه البلاد ، التي كانت منقسمة في عهد الصّفَويين بينهم وبين مُغول الهند ، كانت القبائل الافغانية النازلة في الجبال قد احتفظت باستقلال نسبي ، وكان تكاثرها الطبيعي قد اخذ يفيض في مجريَين ، اولهما في اتجاه الشرق نحو السهل الهندي والآخر في اتجاه الغرب نحو الاراضي المنخفضة في حوض نهر هِلْمَنْد . حتى اذا تفسخت دولة الصفويين كان محمود ، زعيم قبيلة الغِلْزَائي ، قد صار ملكاً على بلاد فارس ، ولكن نادر شاه ما لبث ان خلع ، اشرف ، ابن عم محمود وخليفته . وبعـد وفاة نادر استولى على الامر في قَنْدهار احد زعماء قبيلة الأبْدالي العامـلة في جيش نادر ، مُدّعياً انه الوصي على حفيـد نادر ، شاه رُخ ، ثم استولى على خراسان ايضاً . وقـد اتخذ ، بوصفه شاهاً ، لقب دُرّ دُرّان ،

ومن هنا عرف بين افراد قبيلته بالدُرّاني . ونقل خلفهُ تيمور شاه (١٧٧٣ – ١٧٩٣) عاصمته الى كابُل . وفي سنة ١٨٠٠ خُلع ابن هذا الاخير ، زمـــان شاه ، على يد اخيه محمود شاه . وفي خلال حكمه المليء بالاضطرابات والمؤامرات خسر كابل التي استولى عليها دوست محمد (وكان أخودوسْت هـذا ، فَتْح خان ، قد ساعده قديماً على تقلد زمام الحكم فلم يكن من دُوست بعـد ذلك ، الا ان غدر به) ، كما خسر باقي البلاد ، وفيها هراة ، ليستولي عليها زعماء قبيلة البارَكزاي . وبعد وفاة محمود سنة ١٨٢٩ تولى الأمر في هراة ابنه كامْرَان . عندئذ دعاه عباس ميرزا الى التسليم ، حتى إذا أبى عقدَ النية على قتاله . والواقع انه خرج في رحلة الى طهران ، استعداداً للحملة ، ولكنه مات في طريقه اليها ، عند مَشْهَد بخراسان ، في ٢١ تشرين الاول سنة ١٨٣٣ . وسارع ابنه محمد الى طهران – وكان قد ضربَ الحصار ، في اثناء ذلك ، على هراة – لدن جاءه نبأ الوفاة لكي يضمن العرش لشخصه بعد ان أشرف فتح علي ، العجوز ، على الفناء . وفي الواقع فقد توفي هذا الاخير في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٨٣٤ .

الحياة في بلاط فتح علي

وقد وصف لنا الحيـــاة في بلاط فتح علي وصفاً دقيقاً احد اولاده ، عَضُد الدولة ، في مذكراته . فقد احتلت المقام الاول في « حريمه » الواسع الارجاء مجموعة نساء من قبيلة القاجار وسائر العشائر الارستوقراطية في البلاد يبلغ عددهـا نحواً من اربعين . وكانت اجملهن آسِيَة خانم ، أم ولي العهـد . وكانت الى جانبها

امرأة واحدة فقط تمتعت بمحبة الشاه وعطفه هي ام الامير قاسم . اما الباقيات فكان عليهن ان يقنعن بشرف التقدم على غيرهن من النساء في المجتمع ، في حين كانت الحظايا – اللواتي ينتسبن على العموم الى طبقات الشعب الدنيا، وبينهن مريم خانم اليهودية – يسيطرن على قلب الشاه . وقد عهد في الاشراف على مالية البلاط الى امرأة كانت من قبل أَمَة ، وكانت ساقية القهوة على مائدة الشاه تحتل مكانة مرموقة ايضاً . وكن يتمتعن بامتيازات منها ان يأتين ببرغوث التقطنه في قميص الشاه الى احد الامراء لكي يتسنى له شرف التفرد بقتل تلك الحشرة لقاء مبلغ من المال يعينه الشاه نفسه . والواقع ان الأسراف الذي تكشفت عنه حياة البلاط لم يكن ، رغم شُحّ الشاه ، ليعرف حدوداً ينتهي عندها . وتذهب الروايات الى ان المحظية طاووس خانم وحدها كانت تنفق ما لا يقل عن ١٢،٠٠٠ تومان (٢٣٠٠٠ دولار) سنوياً على التوابل والأفاويه . وقد سعى الشاه الى النهوض بنفقات هذه الأسرة الضخمة من طريق الصداق او البائنة . وكان دخله الرسمي من الضرائب المفروضة على الاراضي المؤجرة إيجارات معتدلة لا يزيد على ٩٨٩،٠٠٠ تومان ، في حين بلغت موارده من هدايا النوروز (السنة الجديدة) والغرامات المالية والمصادرات نحواً من ١،٥٠٠،٠٠٠ تومان سنوياً . ويجب ان لا ننسى انه كان على كل من الجيش وجهاز الادارة كله ان يتولى تأمين نفقاته بنفسه .

واضطرّ محمد شاه الى ان يستخلص العرش ، باديء الأمر ، من عمّيه ، فرمان فرما ، حاكم مقاطعة فارس ، وظلّ سلطان

حاكم طهران الذي كان «امير الدولة»، رئيس وزراء الشاه المتوفى، يؤيده ويناصره . وفي تبريز، حيث كان محمد مقيماً، قدم السفير البريطاني، كامبل*، سلفة اليه يستعين بها على دفع رواتب قواته التي ما لبثت ان زحفت الى طهران بقيادة بِثُون**، الانكليزي. ولم يُبدِ ظل سلطان ايما مقاومة، في حين اضطر بثون الى ان يزحف الى إصفهان فيقاتل فَرْمان فَرْما ويهزمه عند قُوميشاه؛ وقد وقع فَرْمان في الأسر، ليموت في طريقه الى منفاه بأدربيل.

محمد شاه يصطدم بالبريطانيين في افغانستان

ولم يكد محمد يرتقي العرش حتى استأنف نشاطه الذي كان قد بدأه وهو امير، ضد الأفغان، بعد ان اقام كامران على رفضه دَفْع الجزية، وعـــدا ذلك الى احتلال مقاطعة سِجِسْتان (سِيستان) التي تدّعيها فارس. وفي تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ غزا محمد الاراضي الافغانية. ولكن هراة استبسلت في الدفاع عن نفسها؛ وانما يرجع الفضل في هذا الثبات الى ملازم بريطاني من مدفعية بومباي اسمه بوتّنجر***، وهو ابن اخي المقيم البريطاني في السند، وكان قد جاء هراة متخفياً. وكان قد تعين على الضباط البريطانيين ان يتركوا خدمة الشاه قبل بدء الحملة. ووقع محمد شيئاً فشيئاً تحت تأثير السفير الروسي، الكونت الدلـــامي «سيمونتش» ****، الذي وضع عدداً من الضباط الروس تحت تصرفه لقيادة العمليات الحربية. وفي حزيران سنة ١٨٣٨ بعث الانكليز بـ ٣٨٧ سباهياً الى جزيرة خَارَك، في الخليج الفارسي،

* Campbell
** Bethune
*** Pottinger
**** Simonich

وهددوا الشاه بالهجوم اذا لم يرفع الحصار عن هراة. وكان دوست محمد، حاكم كابل، قد أبى حتى ذلك الحين ان يقتنع بحجج كل من العمال السياسيين البريطانيين والروس الذين حاولوا ان يحملوه على الاشتراك في الصراع سواء مع هراة ام عليها. حتى اذا اخفق هجومٌ آخر، وضع خطته الروس، على القلعة، نزل محمد عند رغبة السفير البريطاني فرفع الحصار عن المدينة، وقفل راجعاً في ٨ ايلول.

ولكي يتلافى البريطانيون تعرض الحدود الهندية للخطر كرة اخرى، سواء من جانب الفرس او من جانب الروس، فقد احتلوا كابُل وقندهار، سنة ١٨٣٩، وسموا شاه شجاع، من قبيلة سَادُوزَاي، اميراً فكان آلة طيّعة تنفذ سياستهم بحذافيرها. ولكن دوست محمد ما لبث ان انزل بالبريطانيين هزيمةً داميةً، سنة ١٨٤٢، فاضطروا الى الجلاء عن البلاد والاعتراف به اميراً.

وواصل محمد شاه، رغم اخفاق سياسته، ايثار الروس ومنحهم اعظم النفوذ في بلاده، راضياً عن امتداد حكمهم الى ما وراء بحر قزوين باحتلالهم جزيرة أُشرَادَه. وكان من عادة محمد شاه ايضاً ان يبيع الولاية على مختلف المقاطعات للرجل الذي يمهرها بالثمن الأعلى، فليس غريباً ان يعمد هذا الى ابتزاز ما دفع من اموال، على اسرع وجهٍ ممكن، إذ كان ابداً على خوف من ان يُباع هو نفسه، في وقت قريب. وهكذا نجد احد ولاة كرمان شاه، وكان قد تقلد منصبه حديثاً، يصادر في سنة ١٨٤٦ جميع الاغنام ويبيعها خارج البلاد، غير مكترث بالمجاعة التي تفشت على الاثر في ارجاء مقاطعته.

وعندما توفي محمد شاه في ٤ ايلول سنة ١٨٤٨ خلفه اكبر اولاده ، ناصر الدين ، وليس له من العمر غير ستة عشر عاماً . والواقع ان حكمه بدأ بداية سعيدة ، فيما يبدو ، على الرغم من انه اضطر أول الامر الى ان يقمع ثورة قام بها «خان» قاجاري شاب من آذربيجان وجد انصاراً في خراسان ، كما لقي تأييداً من الافغان ايضاً . وعيّن الشاه الشاب مرافقه العسكري، تقي خان، - وهو ابن طاهٍ كان يعمل في خدمة وزير محمد - وزيراً اول ، فاطّرح تقي لقب الوزير مكتفياً بلقب « أمير نظام » ، اي قائد الجيش الاعلى . والحق ان جهوده في سبيل القضاء على المساوىء الادارية المتعددة اقترنت اول الامر بالنجاح، وعادت عليه بعداوة كثير من ذوي النفوذ ، وفيهم الملكة الوالدة نفسها . حتى اذا كانت سنة ١٨٥١ وفق هؤلاء الخصوم الى إيغار صدر الشاه عليه بسببٍ من شعبيته بين افراد الجيش ، فأقصي عن البلاط ، ليُقتل بعد ذلك بقليل . وحصد ناصر الدين ما كان والدهُ قد زرعه بطغيانه الاعمى . ولقد كان عليه ان يواجه الى جانب الثورات الناشبة في مواطن مختلفة بين الرعية المضطهدة ، حركةً دينية خطيرة .

حركة «الباب» الدينية

وُلد مؤسس هذه الحركة ، سيد علي محمد في بُوشير (بوشهر) في ٢٦ آذار سنة ١٨٢١ ، وهناك تدرب على التجارة ، ولكنه ما لبث ان عكف ، في سن باكرة جداً ، على النظر في المسائل

الدينية . ثم انه وقف ، اثناء حجـــه الى كربلاء ، على عقيدة الشيخية الباطنية ، حتى اذا قفل الى بلاده شنّ في مسجد الحدادين بشيراز حملة على التعاليم الشيعية الغالبة على البلاد . وبعد وفـاة رئيس مذهب الشيخية ، سيد كاظم الرَّشتيّ ، انتخبه رجال المذهب خليفة له . ووضع سيد علي محمد ، اثناء حجه الى مكة ، مجموعة من الرسائل اعتدّها اتباعه وحياً إلهياً . حتى اذا انقلب الى شيراز ، في ٢٣ نوار سنة ١٨٤٤ ، بعد انقضاء الف سنة تماماً على غيبـــة الامام الثـاني عشر ، الذي كانت الاثنا عشرية تترقب ظهوره ، استشعر انه مدعوّ — على حد قوله هو — الى ان يكونَ «الباب» الذي يستطيع البشر الاتحاد بواسطته مع الامام ، منفّذ الارادة الأهية . صحيح ان عقيدة الباب هذه ، التي دُعي اتباعه نسبة اليها بـ « البابية » ، كانت من العقائد التي قال بها الشيعة دائماً ، وبخاصة الشيخية منهم ، ولكن علي محمد ذهب الى أبعد منها وسمى نفسه في ما بعد « نقطة أعلى » (النقطة العليا) أو « نقطة بيان » (نقطـــة البيان) أي « الوحي » ثم دعا نفسه « القائم » (أي الرجل الذي سيقوم من آل الرسول في آخر الزمان) . وكان آخر مـا ذهب اليه انه تجسدٌ للوحي الالهي ذاته الذي ظهر على الارض ، لآخر مرة ، قبل ظهوره هو بـ ١٢٧٠ سنة ، في شخص محمـد الرسول . ومع الايام ازداد تباعده ، شيئاً بعد شيء ، عن العقائد الاسلامية الاساسية التي لزمها بادىء الامر ، ليخطو خطوات اخرى في سبيل تكوين عقيدته الخاصة . وبينا لم يرغب اول الامر الا في ان يُعتبر الامام المهدي — الذي بشر محمد بظهوره ، كما بشر المسيح بظهور

محمد عينه في « البارَقْليط » – فاننا نجده يدعو نفسه ، بعد ذلك ، « المرآة » التي يستطيع المؤمنون ان يشاهدوا بها الله نفسه . وكما أُيدت نبوة محمد بالتنزيل فقد تجلت دعوة الباب بـ «البيان» . والواقع ان التفنن في اصطناع الاعداد الذي احتل مكاناً واسعاً في الصوفية الاسلامية القديمة ، ساعده على تفسير عقيدته وتأويلها حتى تصبح مقبولة . وكان العدد ١٩ ذا قدسية خاصة عنده ، لانه يمثل القيمة العددية لكل من مجموع احرف الكلمتين العربيتين «واحد» و « وجود » ، ومن هنا قسم السنة الى ١٩ شهراً ، وقسم كلا من هذه الى ١٩ يوماً ، وعيّن مجلساً يتألف من ١٩ زعيما من زعماء الطائفة . كذلك استند الى العقائد الوطنية القديمة الخاصة بالدين الزرادشتي ليطلب الى اتباعه دفن موتاهم في نواويس حجرية ، تلافياً لتدنسها بالتراب ، كما استند الى هذه العقائد ليجعل العيد الرئيسي عيد النوروز الذي كان يُحتفل به دائماً في ظل الاسلام ايضاً في أبهة بالغة ، وليستحدث استقبال الشمس بالسلام صباح الجمعة . وحرر النساء من الحجاب وأجاز لهن الاختلاط الاجتماعي بالرجال . وحظر دراسة الفقه والفلسفة وقد كانت دراستها شائعة آنذاك . والواقع ان دينه استهدف السيادة العالمية كالاسلام سواء بسواء . وقد انبثقت هذه السيادة من مقاطعات فارس الخمس المقدسة ، وقضت بان لا ترتضي الكفارَ حكاماً على اتباع الدين الجديد بعد اليوم .

الصراع بين « الباب » وحكومة الشاه

وفي سنة ١٨٤٥ وجه الباب رُسله من بوشير الى شيراز ؛

ولكنهم ما لبثوا ان استثاروا انتباه الحكومة وحذرها . وفي ٦ آب حظر عليهم حاكم مقاطعة فارس القيام بأي نشاط تبشيري جديد، وفي العشرين من الشهر نفسه بعث بفرسانه الى بوشير لألقاء القبض على الباب نفسه . حتى اذا نُقل الى شيراز حوكم والقي في غياهب السجن ؛ ولكنه وفق بعد ستة أشهر الى ان يفرّ ، لينزل بعد على الرحب والسعة في حمى منوچهر خان ، حاكم إصفهان . حتى اذا توفي نصيره هذا في شباط او آذار سنة ١٨٤٧ اقتيدَ الى ماكو في آذربيجان حيث سلخ ثلاث سنوات في السجن . وكان مريدوه ينشطون ، في اثنـــاء ذلك ، نشاطاً قوياً في سبيل نشر تعاليمه في طول البلاد الفارسية وعرضها ؛ وقد اقترن هذا النشاط بنجاح كبير . وكان لدخول قرّة العين ، شاعرة قزوين الجميـــلة الشابة ، صدى خاص . فقد حققت باديء الامر تعاليمه في ما يتصل بالمرأة ، بان نزعت الحجاب وطفقت تبشر في المجتمعات العامة . من أجل ذلك لعنَ خالها — وكان عالماً مجتهداً مشهوراً — الباب ؛ وسرعان ما تصدّى له بابيّ في احد المساجد فقتله . وفي صيف سنة ١٨٤٨ كان البابية قد أخذوا في إحداث القلاقل في مشهد ايضاً ، حتى اذا أخرجوا من بَارْفُرُوش (بَالْفُروش) تحصنوا بالقرب من ضريح الشيخ الطَبَرْسي على مسافة ١٢ أو ١٥ ميلاً جنوبي المدينة . وهنا بعث الشاه الجديد ، ناصر الدين ، جيشاً لقتالهم . ووفق الباب واتباعه الى صد الهجوم الاول بنجاح ؛ ولكنهم اضطروا في تموز — آب سنة ١٨٤٩ الى الاستسلام بعد ان نالوا وعداً بالعفو . وعلى الرغم من هذا الوعد فقد اعمل جنـــد الشاه

السيوف في رقابهم . اما في زَنجان فقد صمد اتباع الباب طوال سنة ١٨٥٠ كلها تقريباً في وجه قوات حكومية تفوقهم قوةً وعدداً . وفي ٨ تموز من السنة نفسها أُعدِم البابُ نفسُه مع أحد مريديه ، في تبريز .

ولكنّ ميتة الشهداء هذه التي ماتها زعيم البابيّة كانت اول حافزٍ أثارهم الى المقاومة حقّاً . والواقع أنّ الثورة انتظمت البلاد كلها ، وعجّلت في سقوط كبير الوزراء . وفي ١٥ آب حاول عددٌ من اتباع الباب ان يغتالوا الشاه بينا كان يغادر قصره الصيفي ، قاصداً الى الصّيد . فكان من نتائج ذلك أن شنّت الدولة حملةً من الاضطهاد جديـــدة ، على أتباع الباب . وكانت الحملة عنيفةً داميةً ، أُعدِمت خلالها ، في آخر آب ، قرةُ العين الشاعرة مع عددٍ من الشهداء .

بهاء الله

وفزعَ زعماء الطائفة إلى بغداد ،فراراً بأنفسهم من هـــذا الاضطهاد . وكان كبيرهم صبحِ أَزل (صبح الازل) ؛ ولكن أخاه الصغير ، بهاء الله ، كان حتى في ذلك الحين ابرز منه وأظهر . وفي سنة ١٨٦١ — ١٨٦٦ وضع كتابه « إيقان » الذي ذاع بين أفراد الطائفة باكثر مما ذاعت مؤلفات المؤسّس نفسه . وإذ كان مُقام البابيّة في بغداد ، غيرَ بعيد من حدود الدولة الفارسية ، لا يزال يشكّل ، في رأي حكومة الشاه ، خطراً ماثلاً ، فقد طلبت الحكومة الفارسية الى الباب العالي أن ينقلهم الى مكان أبعد ، في داخل الامبراطورية . وهكذا حُمِلوا في صيف سنة

١٨٦٤ الى استانبول ، ثم نُقلوا في كانون الاول الى أدرنة . وهناك ادّعى بهاء الله انه المظهر الأوّل للإرادة الالهية التي بشّر بها الباب. عندئذ نشب الخلاف بينهما ، بعد أن رفض حزب أخيه أن يُقرّ دعواه . حتى إذا ادّى النزاع الى اصطدامات دامية تعيّن على الباب العالي أن يفصل ما بين الفريقين المتخاصمين . فنُفي بهاء وأتباعه الى عكا ، ونفي صبح الأزل واتباعه الى قبرس حيث خصصت له الحكومة البريطانية راتبا معينا . وبعد وفاة البهاء في ٢٧ نوار سنة ١٨٩٢ انتهى ابنه عبد البهاء الى أن يكون زعيم الطائفة غيرَ منازَع . والواقع أنه ضحّى شيئاً فشيئاً بالعناصر الاسلامية والصوفية في مذهبه ابتغاءَ جعله ديناً انسانياً عامّاً . ولقد وُفّق الى ان يكسب لمذهبه سيدة انكليزية ، اسمها لورا كليفورْد بارناي * ، نشرت تعاليمَهُ في ترجمات انكليزية وفرنسية ، وأمدّت دينَهُ بالأتباع . وفي سنة ١٨٩٣ كانت البهائية قد ظهرت في أميركة ، وما هي إلا فترة يسيرة حتى نشأت في جميع المدن الاميركية الكبرى جاليات بهائية انتظمت ، بالأضافة الى الداخلين في الديانة الجديدة من مختلف الاديان والمذاهب ، جماعاتٍ كبيرة من الزنوج .

وكانت السنوات الأولى من حكم ناصر الدين شاه سنواتٍ مشؤومة جداً ، في صعيد السياسة الخارجية أيضاً . فقد تقلّد زمام السلطة في هراة ، سنة ١٨٥١ ، شابٌ عديم الكفاية اسمُهُ سعيد محمد ، فسعى إلى ان يرتبط مع فارس بمعاهدة تحالف . وعلى الرغم

* Laura Clifford Barnay

من ان الشاه كان قد تعهّد للحكومة البريطانية ، سنة ١٨٥٣ ، بأن لايوجّه أيّما قوة الى هراة، فقد احتلّ هذه المدينة سنة ١٨٥٦. وحاولت بريطانية ، بادىء الأمر ، أن تحمل دوست محمد على أن يتصدّى للفرس ؛ حتى اذا أبى تكليفَها هذا اضطرّت الى أن تُنزل قواتها في فارس نفسها. وبعد معارك ثانوية دارت في سبيل الاستيلاء على بوشير وخوزستان تعيّن على الشاه ، في معاهدة باريس سنة ١٨٥٧ ، أن يجلو عن افغانستان ويعترف باستقلالها . ولكنّ الفرس كانوا قد وفقوا سنة ١٨٥٦ ، الى ان يطردوا ممثّل أمير مسقط ، حاضرة عُمان ، من ثغر بَندَر عباس المواجه لبلاده والذي كان الأمراء قد استأجروه منذ سنة ١٧٩٨ ، كما وفقوا إلى فرض سلطة الشاه على مقاطعتي سجستان وبلوخستان اللتين كانتا حتى ذلك الحين مستقلتين استقلالاً نسبياً . بيد أن أفغانستان ما لبثت ان طالبت هي ايضاً بضمّ سجستان إليها بعد عهد أحمد شاه . واكّد شير عليّ ، ابن دوست محمد ، الذي خلفَ أباه سنة ١٨٦٣ ضرورةَ هذا الضمّ ؛ وفي سنة ١٨٧٢ قرّرت بعثة بريطانية لتخطيط الحدود تقسيمَ البلاد ، فلم تنل افغانستان غير المناطق المجدبة المحاذية لحدودها .

الزحف الروسي في آسية الوسطى

وعلى الحدود الشمالية وفّق الشاه ، بفضل حاكم خراسان ، الى ان ينتزع مرو ، سنة ١٨٥٧ ، من ايدي التركمان الذين كانوا قد اشاعوا في البلاد جواً من الذعر الدائم بسببٍ من غزواتهم الهادفة الى اقتناص الرقيق ؛ ولكنّ خليفته اضاع المدينة إثر

هزيمة شنعاء مُني بها بعد ثلاث سنوات . والواقـــع أن الروس ما لبثوا ان حرّروا الشاه ، شيئاً فشيئاً من كل قلقٍ كان يساوره على سلامة هذه الحدود. فمنذ إخضاع القيرغيز في القرن الثامن عشر وضمّ القبائل الصغرى في مقاطعة أورنبرج سنة ١٨٢٢ ، والروسيا على احتكاك عدائي متزايد بخانات الأوزبك في خوارزم وبخارى . ومنذ سنة ١٨٤٩ شرعَ الروس يتقدّمون في وادي نهر سيحون، حيث اصطدموا بخانيّة خوقند (خواقند). وفي سنة ١٨٦٨ هُزِم أمير بخارى وأُكره على التخلي عن سمرقند. وفي سنة ١٨٧٣ ضُمّت خوارزم الى امبراطورية القيصر ، كما ضمّت خوقند بدورها الى هذه الامبراطورية سنة ١٨٧٦ . وفي ما بين سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٨١ أُخضع تركمان التكنه في سهوب قرهْ قومْ ؛ وفي سنة ١٨٨٤ استوى مركز الروسيا في آسية الوسطى وتوطّدت دعائمه باستسلام مَرْو إليهـــا عن رضا وطيب نفس .

البريطانيون في أفغانستان

وطبيعي ان ترى بريطانية العظمى في هـذا الزحف الروسي خطراً يتهدّد الهند. والواقع أنه بعد أن رفضت بريطانية الاعتراف بمعاهدة سان ستيفانو التمهيدية التي عقبت الحرب الروسية التركية ، وبعد ان هدّدت الامبراطوريةَ القيصرية بأن تحرمها ثمرات نصرها عُهد الى الجنرال سكوبليف * الروسي في مهمةٍ تهدف إلى تحويل البريطانيين عن الامبراطورية العثمانية بواسطة هجوم يشنّه على

* Skobelev

افغانستان . ولكن مؤتمر برلين اختتم أعماله قبل أن يستطيع سكوبليف اتخاذ الاستعدادات الكافية للنهوض بمهمته العسيرة . والحق أن هجومه على تركمان التكه ، وكانوا لا يزالون آنذاك مستقلين ، قد اقترن بالأخفاق . ولكن الجنرال مستوليتوف * استطاع أن يتقدّم الى كابل فيدخلها مع بعثة عسكرية ، ومن ثم اقنع الأمير شير عليّ بعقد حلف ضدّ بريطانية التي كان شير عليّ يشعر بأنها غبنته عند تخطيط حدود سجستان . ولم يكن في ميسور بريطانية أن تمرّ بهذه المناورة مرّ الكرام ، فطلبت اليه أن يستقبل بعثة بريطانية مع حاشية عسكرية ، حتى إذا ردّ هذه البعثة على اعقابها عند الحدود ، اقتحم اللورد روبرتس ** افغانستان ، في كانون الأول سنة ١٨٧٨ ، واحتل بعد وقت قصير كلاّ من كابل وقندهار . عندئذ فزع شير عليّ الى تركستان ، فقضى نحبه في « مزار شريف » سنة ١٨٧٩ . فوليَ الأمر من بعده ابنهُ يعقوب ، الذي كان قد اعلن الثورة عليه في في وقت مضى بتأييد من حكومة الهند ، والذي كان ابوه قد ألقاه في غياهب السجن . والواقع أنه لم يكتف ، في معاهدة « غاندامك » في ٢٨ نوار سنة ١٨٧٩ ، باستقبال بعثة بريطانية في كابل ، بل تخلى ايضاً عن مجاز بولان ووادي قرم مما جعل من اليسير على القوات البريطانية اقتحام البلاد الافغانية ساعة تشاء . حتى إذا شنّ الروس على التركمان ، كرّة أخرى ،

* Stolietov

** Roberts

هجوماً لم يقترن بالتوفيق ، في صيف سنة ١٨٧٩ ، هبت الغوغاء في كابل فقتلت السفير البريطاني كافانياري * وحاشيته . وعلى الرغم من أن يعقوب اعتذر شخصياً من هذا الحادث لدى حكومة الهند فقد سُيّر روبرتس الى افغانستان ، للمرة الثانية ، فاحتل كابل ولكنه اضطرّ بعد ذلك الى بذل جهود جبارة حتى ينجو من نقمة الجيوش الشعبية التي كانت تحاصره . ثم خُلع يعقوب عن العرش ونفي الى الهند . وقام ابن أخيه عبدالرحمن – الذي كان قد فرّ الى تركستان – بمحاولة لارتقاء العرش بمساعدة الروسيا ، ولكنه ما لبث ان رأى ان من الحكمة السعي الى التفاهم مع بريطانية . صحيحٌ ان أيوب خان ، أحد ابناء شير عليّ ، اعلن الثورة عليه من هراة ، ولكن روبرتس هزمه قبل ان يصل الى قندهار . ومن ذلك الحين تمّت لعبدالرحمن السيادة على البلاد كلها . وفي هذه الأثناء كانت مقاليد الأمر في بريطانية قد انتهت الى غلادستون الذي اطّرح ، بوصفه من الأحرار ، سياسة دِزْرائيلي ** الاستعمارية السابقة ؛ وفي الحال اصدر امره الى القوات البريطانية بالانسحاب ، وذهب الى أبعد من ذلك فتعهّد للأمير بأن يكون السفير البريطاني في بلاطه رجلاً مسلماً ، دائماً . وهكذا تمّ لأفغانستان ، من جديد ، قسطٌ لا بأس به من الحرية ، في ميدان السياسة الخارجية .

---

* Cavagnari

** Disraeli

وبعد ان استتبّ السلام بهذه الصورة ، على حدود فارس كلها تمتعت هذه البلاد، في ظل الشاه ناصر الدين ، بنحو عشرين عاماً من التطور الهادىء الذي لم يؤتِ ، بادىء الأمر ، على كل حالٍ ، غير ثمرات قليلة بسبب من تأخر البلاد العام . وفي سنة ١٨٦٤ وافق الشاه – الذي كان مَعْنيّاً بثمرات الحضارة الغربية بقدْر ما كانت تساعده على توطيد سلطته وزيادة موارده – على مشروع بريطاني لخطّ تلغرافي يربط بغداد ببوشير ماراً بكرمان شاه وهَمَذان . وفي سنة ١٨٧٠ ربط الاخوان سِيمِنْس * هذا الخط بخطّ ممتدّ من لندن الى تَبريز من طريق الكسندروفسك وأودسّا وتفليس. ثم ان الاخصائيين البريطانيين ما لبثوا ان انشأوا خطوطاً فرعية امتدت الى سائر المقاطعات ، مما ساعد الحكومة المركزية على ضبط الأحوال فيها ضبطاً اكثر فعالية . وفي سنة ١٨٧٢ منح رئيس الوزراء مجموعة ضخمة من الاحتكارات الى البارون جوليوس دي رويتر ** ، البريطاني التبعة ، مقابل تعهده بمدّ الخطوط الحديدية ، وفتح المناجم ، وانشاء بنك وطني في البلاد . حتى اذا قام الشاه في السنة التالية برحلة الى اوروبة ابتغاءَ الاطلاع على ما بلغته من الحضارة لقيَ في بطرسبرج نفوراً شديداً من هذه المشاريع ، في حين لم يجد حماسة لها في لندن . وهكذا قرّر لدن عودته ، وكان على حقّ في ذلك،

* Siemens brothers

** Julius de Reuter

الغاء هذه الامتيازات .

وقام الشاه برحلتين أُخريين الى اوروبـــة سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٨٩ بمناسبة المعرض الدولي في باريس . ولكن نتائج هاتين الرحلتين العملية في بـــلاده لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى نفقاتهما . والواقع أنه قصّ عـــلى رعاياه ما شاهده واختبره في هاتين الرحلتـين وفي حجته الى كربلاء سنة ١٨٧٣ في كتاب وضعه في أسلوب يمتاز بالبساطة والجمال ، ويبتعد ابتعاداً مُرضياً عن زخرفة الاسلوب القديم في كتابة التاريخ . وقـــد كان لهذا الأسلوب أثر محمود في تكوين النثر الفارسي الحديث .

اختلاف الشاه وجمال الدين الأفغاني

وفي رحلته الأخيرة التقى الشاه ، في مونيخ سنة ١٨٨٩ ، جمالَ الدين الافغاني ، الداعي الى الوحدة الاسلامية ، واصطحبه الى طهران . وكان جمال الدين قد مكث فترة قصـيرة في بلاط الشاه ، سنة ١٨٨٦ ، بدعوة منه ، ولكنه اضطرّ بعد الى ان يغادر البلاد لأن مكانته بين الفرس ما لبثت ان استثارت مخاوف الشاه . وفي هذه المرة ايضاً تنكّر الشاه لجمال الدين ـ بعد أن أظهر بادىء الأمر اهتماماً كبيراً بآرائه في الأصلاح ـ تحت تأثير كبير الوزراء أتابك أعظم عـــليّ أصغر خان . والتمس جمال الدين مَفْزَعاً في مسجد الشاه عبد العظيم في طهران الذي كان يُعتبر ملجأ لاتُنتهك حُرمته البتة . ولكنه استطاع ان يواصل من هناك ، طوال سبعة أشهر أُخرى ، التأثيرَ في مريديه الذين أنشأوا بعـد ذلك بقليل حزباً إصلاحياً . ولكن الشاه ما لبث أن أمر بانتزاعه

من هناك وإخراجه عبر الحدود التركية إلى العراق . وقصد جمال الدين ، اول ما قصد ، الى لنـــدن . ومن هناك شرع يُثير الأوروبيين ضدّ الحكومة الفارسية واستبدادها ، وواصلَ توجيه أنصاره في البلاد من طريق رسائل مفتوحة كان يبعث بها إليهم . وما هي الا فترة حتى دعاه عبد الحميد الى استانبول رجاءَ ان يتخذ منه آلة تخدم مشاريعه الهادفة الى الوحدة الاسلامية . ولقد عاش هناك حتى وفاته ، في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ ، في نِشان طاش ، ولكنه كان موضعَ حذر السلطان ومراقبته وخاصةً بعد مصرع الشاه ، وإن يكن قد أبى تسليمه الى الحكومة الفارسية .

مصرع ناصر الدين شاه

وحاول الشاه الخروج من الازمة المالية التي تخبط فيها ، بسبب من رحلاته الاوروبية المتسمة بالاسراف البالغ ، من طريق اخضاع التبغ لاحتكار حكومي ، وهكذا حوّل الاشراف على زراعة التبغ وتجارته كلها الى نفر من الرأسماليين الاوروبيين لقاء مبلغ سنوي قدره خمسة عشر الف جنيه استرليني يضاف اليها ربع الارباح . ولكن هذا الاستغلال الوحشي لاحدى مسرات الشعب الاكثر انتشاراً ما لبث ان اثار عاصفة من الاستيـــاء بين افراد الرعية ، حمل لواءها رجـــال الدين انفسهم . والواقع ان اعظم مجتهدي البلاد دعا الناس الى الاقلاع عن التدخين ، فأطاعه خلق كثير في كل مكان . واخيراً اضطر الشاه ، بعـــد ان نشبت الاضطرابات في البلاد ، الى شراء الامتياز بنصف مليون جنيه ، واضعاً بذلك اساس الدَّين الفارسي العام للبنك الملكي البريطاني

الذي كان الشاه قد انشأه سنة ١٨٨٩ ارضاء لـ « دي رويتر » . ولكن هذا الاجراء لم يكن كافياً لاخماد نار الاستياء الشعبي. ففي سنه ١٨٩٦ ، بينما كان الشاه يستعد للاحتفال بالذكرى الخمسين لارتقائه العرش ، خر صريعاً برصاص احد مريدي جمال الدين، فيما كان يتلقى العرائض من رعاياه ، وفقاً للعادة القديمة .

تفاقم الازمة المالية عهد مظفر الدين

وانتقل ابنه مُظفّر الدين من تبريز، وكانت مقره كولي للعهد، الى العاصمة طهران . يصحبه السفيران البريطاني والروسي – حيث ارتقى العرش غير منازَع . وما هي الا فترة قصيرة حتى حذا حذو والده فقام برحلة الى اوروبة بحجة الاستشفاء بالمياه المعدنية . وحاول الشاه الجديد ان يسد حاجته الى المال من طريق قرض يعقده في بريطانية ، ولكن محاولته لم تؤتِ أُكلها . فعقد قرضاً قيمته ٤٢ مليون روبل – لم تلبث ان بُددت في الحال – مع البنك الذي انشأته في طهران سنة ١٩٠٠ وزارة المالية الروسية مقابل حصولها على امتياز بانشاء طريق عامة تمتد من جُلْفَه (جولاهه) الى طهران ، ومقابل حصولها على حقوق التنقيب عن الفحم الحجري والبترول . ولضمان أداء هذه الديون وُضعت ادارة الجمارك تحت اشراف موظف بلجيكي وشجعت التجارة الروسية تشجيعاً خاصاً . والحق ان الشعب القى تبعة هذه التدابير المالية الجديرة بأن تُنزل بالبلاد أذى كبيراً ، على عَين الدولة ، صِهْر السلطان وكبير وزرائه ، الذي لم يُبد ايما مقاومة لمطالب الشاه المالية غير المنقطعة . وهكذا نشأت ، شيئاً فشيئاً ، في نفوس

الطبقات المثقفة رغبة في ان يكون لها سلطان ما على الحكومة .

الثورة والحياة البرلمانية

ولم تكن في فارس ، حتى ذلك الحين ، صحافة تستطيع ان تعبر عما يعتلج في نفوس الجماهير . صحيح ان ناصر الدين شرع ينشر اراداته الملكية – ابتداء من ١٨٥١ وهي السنة الثالثة لحكمه – في صحيفة ما لبثت ان أُلحقت بعدُ بصحف اخرى . ولكن القاريء الفارسي لم يكن يستمد ثقافته الشعبية الا من مجلة اسبوعية كانت تصدر في استانبول ابتداء من سنة ١٨٧٥ باسم « أَخْتَرْ » (النجمة) ، وقد عطلها السلطان عبدالحميد سنة ١٨٩٦ بعد مصرع ناصر الدين . اما اولى الهجمات العنيفة التي شنت على الحكومة فقد ظهرت على صفحات جريدة « القانون » التي اسسها في لندن ، سنة ١٨٩٠ ، الامير « مَلكوم خان » – وكان أبوه ارمنياً - بالاشتراك مع جمال الدين الافغاني ؛ وقد طالب فيها ، لأول مرة بالتمثيل الشعبي . وكان قد اسس خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر (١٨٦٠ - ١٨٧٠) نادياً في طهران ما لبثت الحكومة أن حلّته . ثم إنه نُفي من البلاد ، ولكنه عُيّن سنة ١٨٧٢ سفيراً في لندن .

والواقع أن السبب المباشر للثورة إنما نشأ ، شأنهُ في كثير من الأحيان ، عن حادث غير مهمّ في ذاته ، أعني الجلد الذي امرَ بانزاله حاكم طهران بعدد من التجار (كانون الأول سنة ١٩٠٥) بسببٍ من ارباحهم الفاحشة في تجارة السكر . وكانت العادة قد جرت في فارس ، منذ القِدم ، على ان يعتصم الناس

في احد المساجد إذا آنسوا عنفاً من جانب السلطان (وقد اطلق على هذه العادة اسم « بَسْت » اي ملجأ) فعلَ جمال الدين الأفغاني من قبل . وفي مسجد الشاه عبد العظيم نفسه الذي تحدّى فيه الافغانيُّ ناصرَ الدين اخذ المستاءون من أحكام الجلد يجتمعون في عدد متزايد يومياً، ويلقون تأييداً كبيراً من رجال الدين فحسب، ولكن من ولي العهد، في ما يُظنّ، ومن الوزير الذي سبقَ ان تولى الأمر قبل الوزير غير الشعبيّ الحاكم آنذاك، ايضاً، حتى لقد اضطر الشاه الى ان يَعِدَ بأقالة هذا الاخير. ولكن الشاه لم يكن يعتزم الوفاء بوعده، بعد ان تفرّق شمل المجتمعين ؛ ومن هنا ثمّ « بَسْت » آخر في ربيع سنة ١٩٠٦ انتهى بهجرة كبار الزعماء الدينيين إلى مدينة قُمّ المقدّسة حيث يقوم ضريح فاطمة بنت الأمام السابع إلى جانب أضرحة عدد كبير من المتقين . ولقد هدّدت هذه الهجرة النظامَ القضائي الخاضع لسيطرتهم ، بالشلل. حتى إذا حاول عين الدولة أن يُكره التجار على فتح الأسواق بالقوة ، لجأوا إلى المقرّ الصيفي للسفارة البريطانية في « جولاهك » حيث احتشد في جنائنها ، آخر الأمر ، اثنا عشر ألف رجل . عندئذ اضطرّ الشاه إلى الرضوخ في النهاية ، فعزل عين الدولة ، واستدعى رجال الدين من قُمّ . ولكن الشعب لم يعد مستعداً لأن يكتفي من الأصلاح بهذا القَدْر . فاضطر الشاه ، إثر وساطة السفارة البريطانية ، الى ان يَعِدَ بدعوة مجلس تمثيلي عام يُنتخب من بين أمراء البيت المالك ، ورجال الدين، والنبلاء ، واصحاب الاراضي، والتجار ورجال الأعمال . وفي تشرين الأول ، توفي الشاه بعد

بضعة أيام من افتتاحه الجمعية الوطنية (المجلس) .

الصراع بين الشاه محمد علي والمجلس

ولم يكن لخلفه ، محمد عليّ ، رغبةٌ تعدو في شدّتها وإلحاحها رغبتَـهُ في ان يملأ خزائنه الفارغة من طريق القروض ، جريـاً على خطـــة ابيه من قبله ؛ ولكن المجلس أبى عليه تحقيق هذه الرغبة . فلم يكن منـــه إلا ان دَعا أتابك أعظم عليّ أصغر خان ، الذي قضى السنوات الثلاث السابقـــة في الخارج ، الى إنفاذ إرادته على الرغم من الجمعية الوطنية . ولكن احـــد المتعصّبين اغتـــال الوزير بعد ان قام بمفاوضات مخفقة مـع العناصر الاكثر اعتـدالاً . فخلَـفَـهُ في منصبه ناصر المُلْك ، وهو إداريّ حكيم نجح فترة قصيرة من الزمن في تنظيم مالية البلاد بما اتخذ من اجراءات جريئة ابتغاء التوفير على الخزانة العامـــة . ولكنه كان عاجزاً ايضاً عن تذليل الصعاب السياسية الضخمة . وكانت قد ظهرت ، بعد اعـــلان الدستور ، مجموعة كبيرة من الصحف لم يُعْنَ منها بتنوير الشعب ، عنايةً صحيحـة ، إلا قليل من مثل « المجلس » ، و « صُوْر إسْرافيل » ، في حين اقتصرت كثرتها الغالبة — ولم يعش معظمها غير فترة قصيرة — على إثارة النعرات السياسية وحسب [١٣] . وكانت الجمعية الوطنية تنتظم — بالأضافة الى السياسيين البعيدي النظر مثل تقي زاده [١٤] التبريزي

(١٣) انظر براون E. G. Browne, *The Press and Poetry of Modern Persia*, Oxford, 1914.

(١٤) تجد رسمه في براون E. G. Browne, *Brief Narrative of Recent Events in Persia*, London, 1909.

ومواطنيه ، والى مجتهدي طهران الفصحاء وعدد من النبلاء — نواباً عن الولايات الجنوبية التي كانت لا تزال متأخرة جداً . أما قوة الثورة الدافعة فكانت تتمثل في « الأنجمن » وكان بعضهم جماعات محلية ، في حين كان بعضهم الآخر أعضاء في أندية للمناظرات يُبَشِّرُ فيها بالافكار الفوضوية ويُدعى الى الأرهاب ؛ وكان رُسلهم ، من مثل قاتل أتابك أعظم ، يدعون انفسهم « فدائيين » على غرار « الحشاشين » من قبلهم .

وانشأ الشاه ، صيانة لنفسه من هذه القوى الجديدة ، كتائب خاصة مؤلفة من جنود قوزاق مدرّبين ، جارياً في ذلك على الطريقة الروسية . وفي كانون الأول سنة ١٩٠٧ خطر له ان يبطش بالجمعية الوطنية بمساعدتهم ، ولكنه أقلع عن تنفيذ هذه الفكرة بسبب من المقاومة العنيفة التي ابداها « الأنجمن » الذين تلقّوا إمدادات من قزوين .

الروسيا وبريطانية تقتسمان النفوذ في فارس

وفي هذه الأثناء انتهت كلٌ من الروسيا — التي شرعت توجه جهودها التوسّعية ، اكثر فأكثر ، نحو آسية الوسطى ، بعد هزيمتها في الحرب الروسية اليابانية — وبريطانية التي أرادت ان تشدّ الروسيا الى الغرب لكي تحوّلها عن الهند — نقول انتهت كلٌ من الروسيا وبريطانية الى اتفاق قسمَ فارس الى منطقتي نفوذ بينهما . وإذ كانت بريطانية لا تطمع بأكثر من قاعدة للدفاع عن الهند ، وإذ كانت من اجل ذلك لم تطالب بغير الأجزاء ، الأقلّ أهمية ، الواقعة في جنوبي فارس والممتدة من حدود الأفغان حتى

بَندر عباس ، فقد تركت للروسيا الجزء الشمالي الممتدّ من قصر شِيرين حتى الحـــدود الروسية الافغانية ، وهو يشمل – فيما يشمل – إصفهـــان ويَزْد وكاخ . وعلى الرغم من ان كلاً من الامبراطوريتين اعترفت باستقلال فارس ، فقـــد شعر الفرس ان بريطانية خانتهم ، وهي التي ساعدتهم حمايَتُها على ان يخطوا خطواتهم الأولى في طريق الحرية .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسور الشاه أن يرضخ لتقييد الجمعية الوطنية لسلطته ؛ ولقـــد اخفقت جميع المحاولات للوصول الى تسوية . وفي شباط سنة ١٩٠٨ أُلقيت قنبلة على سيارته فقتلت احد رجال حاشيته . وفي مطلع حزيران غادر الشاه العاصمة ثم سيّر كتيبته القوزاقية ، بقيادة الكولونيل لياكهوف * ، من مقرّه الصيفي الى طهران لكي تقصف بناء البرلمان بالمدافع وتفرض على العاصمة الأحكام العرفية .

اندلاع الثورة من جديد وخلع الشاه

وثار الوطنيون في تبريز على هذا العدوان ، يحدوهم نجاح الثورة التي كانت قد اندلعت قبل ذلك بقليل ضدّ عبد الحميد في تركية ، وطردوا أنصار الشاه من المدينة . وفي آب سيّر الشاه قواته الى المدينة فضربت عليها الحصار الى ان احتلّها الروس في نيسان سنة ١٩٠٩ .

ولكن القضية الوطنية كانت قد اكتسبت نصيراً جديداً في قبيلة « البختيارية » ، احدى قبائل الفرس الجنوبية البادية ؛ وكان

---

* Lyakhov

زعيم هذه القبيلة ، سِرْدَار أسد، غائباً عن البلاد في رحلة قام بها الى أوروبة ، ولم يكد يقفل من رحلته هذه حتى اندلعت نيران الثورة . ولقد وُفّق إلى أن يوجّه قبيلته لنصرة القضية الوطنية فقادها بادىء الأمر الى إصفهان ، وحرّر الاصفهانيين من عسف حاكمهم وظلمه . حتى اذا تألف في رَشْت جيشٌ محاربٌ ايضاً – قوامه جنودٌ قوقازيّون واتراك وارمن تحت قيادة محمد والي خان ، الجنرال السابق ، وصانع ارمني يُدعى افرايم - قرّر سردار أسد ان يُفيد من هذا الجيش في هجوم مشترك على طهران، رغم الانذار الذي وجهه اليه سفيرا الروسيا وبريطانية . وقبل ان يستطيع الروس إرسال قواتهم لنجدة الشاه - وكانت هذه القوات قد رابطت قبل ذلك بقليل عند أَنْزَلِي - وُفّق الوطنيون إلى الاستيلاء على العاصمة بعد قتال دارت رحاه في الشوارع ثلاثة ايام متوالية ، وإلى خلع الشاه الذي فزع الى السفارة الروسية في ١٦ تموز .

وتولى أَسد المُلْك ، احد زعماء القاجار البارزين ، الوصايةَ على احمد ، ابن الشاه السابق ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة ، في حين رحلَ الشاه السابق نفسه إلى أُودِسّا ، بعد أن مُنحَ مرتب تقاعد . وعلى الرغم من الجهود التي بذلها افرايم ، بوصفه مديراً للشرطة ، لأقرار النظام في المدينة ، فقد دب التحاسد ما بين زعيم البَخْتِيارِيَّة ، وكان يتولى وزارة الداخلية ، والجنرال والي خان ، وكان يتولى وزارة الحربية . والواقع ان أولهما كان مؤيّداً من قِبل المتطرفين في الجمعية الوطنية ، ويُعرفون

بـ « الأنقلابيين » ، الذين أخرجوا تقي زاده الحذِر من طهران ، فتمكن بمساعدة هذه العناصر المتطرفة من إقصاء وزير الحربية عن الحكم . وحاول الشاه السابق ان يُفيد من القلاقـــل لاسترداد عرشه السليب . والواقع أنه غادر استراباد على رأس جيش من المتطوّعة ، ابتغاءَ الاستيلاء على طهران ، في حين تقدّم أنصاره من كرمان شاه يريدون الالتحاق به . وأيّـدت الروسيا الشاه ، ولكن بريطانية عارضت بشدة في عودته الى العرش ، وهكذا اضطرّ إلى ان يرجع بخفي حنين .

شوستر الاميركي يحاول القيام باصلاح مالي

ويُعنى الحزب الثوري ، الذي تقلّد الآن زمام السلطـــة ، بتنظيم المالية الفارسية ، في المحلّ الاوّل ، وكانت قد أصيبت بفسادٍ كامل بسببٍ من سوء الأدارة في العهود السابقة . وإذْ لم يكن في ميسوره أن يُفيد كثيراً من المستشارين الأوروبيين الذين ابوا بطبيعة الحال ، إلاّ ان يخدموا مصالح الدائنين الاجانب ، فقـد اتجه شطرَ السفارة الاميركية طالباً المساعدة . وبناءً على اقتراح ناظر الخارجية الاميركية عُيّن أحد موظفي بنك « يونيون تراست »* في واشنطون ، مورغان شوستر** أميناً عاماً للخزانة الفارسية وألحقَ به أربعة مساعدين من مواطنيه الاميركيين . وليس مـــن شك في أنّ هـــذا الأميركي – الذي كان بالِغَ النشاط ولكنه جاهلٌ كلَّ الجهل أحوالَ البلاد وظروفها – كان شديد الرغبة

* Union Trust

** W.Morgan Shuster

في خدمة البلاد التي دعته إليها والتي وصف أحوالها التعيسة في اتهام صريح العبارة [١٥] ، ولكنه ما لبث أن اخطأ اختيارَ الأساليب والوسائل الى هذا الأصلاح. والواقع أن البرلمان وضع تحت تصرّفه قوة مسلحة خاصةً به لكي يستطيع ضبط جباية الضرائب ضبطاً صحيحاً . فرغب في إسناد قيادة هذه القوة الى الملحق العسكري في السفارة البريطانية ، وكان يتأهب لمغادرة وظيفته ، ولكن الروس حالوا دون تحقيق رغبته هذه . ومهما يكن من أمر فقد اخفق في أولى محاولاته إلى اتخاذ إجراءات حازمة بواسطة قواته الخاصة .

وكان البرلمان قد قرّر مصادرة ثروة شجاع السلطنة ، اخي الشاه المنفيّ ، بسببٍ من تأييده لهذا الأخير في محاولته استردادَ العرش . حتى اذا حاول شوستر إنفاذ هذا القرار بواسطة قواته المسلحة سيَّر القنصل الروسي العام قوةً من القوزاق لتمنع قوات شوستر من القيام بمهمتها ، بحجة أن شجاع السلطنة مدينٌ للبنك الروسي .عندئذٍ هاجم شوستر القوزاق بقوة اكبر ، فآلَ ذلك الى ادعاء الروس ان اثنين من قناصلهم قد هُدّدا . وفي ٥ تشرين الثاني طالبَ الروس ، لقاء ذلك، بأقالة شوستر ،حتى اذا رفضت الحكومة الفارسية إجابة الروسيا الى ما طلبت زحفت القوات الروسية – التي كانت قد حاربت الوطنيين في تبريز ورشت وأنزلي – إلى العاصمة طهران . فاضطر البرلمان ، إزاء هذا الضغط ، إلى الموافقة على إقالة شوستر في ٢٥ تشرين الثاني .

(١٥) *The Strangling of Persia*, London, 1912.

وما لبثت تلك البلاد البائسة ان استشعرت شدة الوطـــأة الروسية عليها . ففي ١١ آب سنة ١٩١١ ضرب شجـاع الدولة ، احد قواد الشاه المنفي المتقدين حماسة ، الحصار على تبريز ، معقـل الوطنيـين ، وكان يقود جيشاً من « الشاه سَوَن * » اي حرس الشاه السابق . وفي ٢ كانون الثاني ، سنة ١٩١٢ ، وفق الى دخول المدينة حيث أمر بانزال اشد العقوبات بالزعماء الوطنيين ١٦ . ثم ان الروس تذرعوا بذريعة واهيـــة ليقصفوا بمدافعهم في ٢٩ آذار ، ضريح الامام الرضا نفسه ، الذي يُعد من الاماكن المقدسة عند الشيعة ، زاعمين ان الرعايا الروس في مَشهد ــ مدينة خراسان المقدسة ــ أمسوا في خطر من جراء الاضطرابات التي اثارها عمالهم انفسهم . ومنذ ذلك الحين والقسم الشمالي من البـــلاد واقع في ايديهم ، بعد ان قنع البريطانيون بالعمل على اقرار النظـــام في منطقة نفوذهم ، في الجنوب ، بمساعدة قوات مسلحة يقودها ضباط سويديون . ولم تستأنف الجمعية الوطنية اجتماعاتها الا في تموز سنة ١٩١٤ ، بعـد تتويج الشاه ــ وكان قد بلغ سن الرشد ــ لكي تستمع الى خطاب العرش الذي اعلن فيه حياد فارس في الحرب العالمية المؤذنة بالانفجار .

---

* راجع الجزء الثالث ص ١٣١ .

(١٦) راجع براون : *The Reign of Terror at Tabriz, England's Responsibility (with Photographs and a Brief Narrative of the Events of December 1911 and January 1912), compiled for the use of the Persian Committee*, by E. G. Browne, London, October 1912 .

وفي الحرب العالمية الاولى قُدّرَ لفارس ان تكون ميداناً حربياً تقاتَلَ فيه الاتراك والروس — عند حدودها الغربية — فترةً قصيرة من الزمان . ففي كانون الثاني سنة ١٩١٥ هاجم الاكراد تبريز ، ولكن الروس استطاعوا اخراجهم منها في اليوم العشرين من الشهر نفسه . وفي بحيرة وَان وأُرْمِيَة نشبت ، في خريف سنة ١٩١٧ معارك دامية بين الأكراد واعدائهم القدماء ، النصارى النساطرة الذين كانوا مؤيَّدين من الروس ؛ وقد أصاب النصارى من جرّاء هذه المعارك آلامٌ لا حدّ لها . وبعد انتصار كُوت العمارة اجتازت الجيوش التركية الحدود ، مهدّدة طهران ؛ بيد انها ما لبثت أن انسحبت ، بأمر من حكومتها ، لحاجتها الملحّة إلى الأفادة منها في ميادين الحرب الاخرى . وفي فارس الجنوبية وفّق وَاسْمُوس * ، القنصل الألماني السابق في بوشير — وكان يتمتع باحترام كبير بين القبائل في الاقسام الداخلية من البلاد — إلى أن يُزعج البريطانيين إزعاجاً بالغاً ، وإن يكن قد عجز عن بلوغ الهدف الذي تمّ تحقيقه لندّه البريطاني ، لورنس ، في بلاد العرب ، أعني ان يقود اصدقاءه بنفسه إلى ساحة القتال [١٧] . كذلك لم يوفق فون نِيدَرْمَايَر ** واعوانه في محاولاتهم اثارةَ

---

* Wassmuss

(١٧) انظر سايكس Christopher Sykes, *Wassmuss, the German Lawrence*, Leipzig, 1937.

** von Niedermeyer

الفرس والافغان ضد مضطهديهم القدماء – الروس والبريطانيين – على الرغم من جميع الجهود الجبارة التي قاموا بها في سبيل ذلك[١٨] والواقع ان انهيار الجبهة الروسية مكّن الفرس ،في الشمال ، من التمتع بالحرية كرّةً أخرى ، بعـــد أن تخلى البلاشفة عن جميع الحقوق الموروثة عن العهد القيصري . وسنرى في الجزء التالي من هذا الكتاب كيف قُدّر لهذه البلاد المُتعَبة أن تزدهر من جديد بعد الحرب العالمية الأولى ، في ظل حاكم حازم ، [هو رضا خان بهلوي] .

(١٨) انظر فون نيدرماير Oskar von Niedermeyer, *Unter der Glutsonne Irans*, Dachau bei Mûnchen, 1925.

فهرست الاعلام

آذربيجان ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٣
آراس (نهر) ١٥١، ١٥٣
الآستانة ـ انظر استانبول
آسية خانم ١٥٦
آسية الصغرى ٣٨
آسية الوسطى ١٦٦، ١٦٧، ١٧٧
آغا محمد القاجاري ١٥٠، ١٥١
آمبواز ١١٤
أبا (جزيرة) ١٣٢، ١٣٣
الأبخاز ٤٥، ١٥٣
الأبدالي (قبيلة) ١٥٥
ابراهيم باشا ٨، ١٤ـ١٨، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٥ـ٣٩
ابو زناك (شركة) ١٠٧
ابو قير ١٠
الابيض المتوسط ، البحر ٣٦، ٤٠، ٥٣، ٧٤، ١٢٠، ١٢٥، ١٣٠
الأبيض (مدينة) ١٣٤، ١٣٦
أتابك اعظم ١٧١، ١٧٦، ١٧٧
الاتحاد والترقي (جمعية) ٨٠
الأتراك ١٦، ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٦، ٣٠ـ٣٢، ٤٤، ٤٨، ٦٢، ٧٠، ٧٦، ٧٧، ٨٢ـ٨٤، ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٧، ١٠٦، ١١٠، ١١٩
أثينا ٨٣
أجدر ١٢٧
أجياجين ١٥٤
الأحباش ٤٠، ٥٦، ١٣٩، ١٤٢
الأحساء ٢٠، ٢١
احمد الأول (المنصور) ١١٩
احمد السنوسي ١٤٥
احمد شاه ١٦٦
الاحمر ، البحر ١٠، ٥٣، ٧٤
« اختر » (مجلة) ١٧٤
ادرنه ٩، ٦٦، ٦٧، ٨٣، ١٦٥
أدماوه (امارة) ١٤٧
اديب ، خالدة ٨٤، ٨٥، ٩٨
ادورد السابع (الملك) ٧٨

الأرثوذكس ٤٠ـ٤٢
أردبيل ١٥٤، ١٥٨
أرضروم ٨٧
أركلي ٧٣
الأرمن ٤٠، ٧٤ـ٧٦
إرمينية ٤٤، ٦٧
ارمية ١٨٣
الأرناؤط ١١، ١٢، ٧٧
أريوان ـ انظر روان
ازميد ٧٢
ازمير ٧٩
الأزهر ١١
الاسبان ١٢٠، ١٢٧
اسبانية ١٠١، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦
استانبول ٤، ٧، ٨، ١٤، ٢٦، ٢٩، ٣٣، ٤١، ٤٣، ٤٥ـ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٧٢ـ٧٦، ٨٠، ٨٣، ٨٥، ٩٥، ٩٨، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٤
« استانبول دربير سنة » (كتاب) ٩٤
أستراباد ١٥٠، ١٨٠
استونية ٧٨
أسد الملك ١٧٩
الأسكندرية ١٣، ١٤، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٥٥، ٥٧، ٧٠، ٧١، ١١٤
اسماعيل (الخديوي) ٥٢، ٥٣، ٥٥ـ٥٨
اسماعيل الاول (الصفوي) ١٥٠
اسماعيل (اخو الرشيد الشريفي) ١٢٠
أسوان ١٣٩
الأسود ، البحر ٤٥، ٤٧، ٨٣
الأسود ، الجبل ٤٣، ٦٢، ٦٥، ٦٧
اشراده (جزيرة) ١٥٩
أشرف (زعيم الغلزائي) ١٥٥
إصفهان ١٥٨، ١٦٣، ١٧٨، ١٧٩
الأطلس ١١١، ١٢٠ـ١٢٣
الاطلس الصغير ١٠٨
الاطلسي ، المحيط ١٢٠
أطنه ١٦، ١٧
أغادير ١٢٦
أغادين (قبيلة) ١٤٢، ١٤٣
افرايم (الأرمني) ١٧٩
إفريقية ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨
إفريقية الشمالية ٦٩، ٩٩، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٩، ١٢٨، ١٤٥
الأفغان ١٥١، ١٥٨، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٤
أفغانستان ٨٨، ١٠٣، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٨، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩
الافغاني ، جمال الدين ١٠٢، ١٠٣، ١٧١ـ١٧٥
الأفلاق ٤٧، ٥٠
الافلاقيون ٧٧
افيون قره حصار ٧٣
الاقباط ٤٠، ١٠٠

« اقدام » (مجلة) ٩٦
إقريطش ١٥، ٥٤، ٧٦، ٧٧
الاكراد ٧٤ـ٧٦، ١٨٣
اكرم ، محمود ٩٥
الكسندروفسك ١٧٠
الكسندر الثاني ٦٣
الألبانيون ـ انظر الارنأوط
ألما (نهر) ٤٥
الألمان ١٤٧
ألمانية ٧١، ٨٨، ١١٦، ١٢٦، ١٤٩
الألياذة ١٠١
أم درمان ١٣٧، ١٣٨، ١٤١
الأمانوس ١٦
أمهره ١٣٨، ١٣٩
امير الدولة ١٥٨
اميركة ١٦٥
امين باشا (الدكتور شنتزلر) ١٣٩
امين ، قاسم ١٠٢
أمين ، محمد ٩٥
الاناضول ٦، ٧٢ـ٧٤
أنافورطه ٨٦
الأنجمن ١٧٧
الاندلس ١٢٠ (راجع اسبانية ايضا)
أنزلي ١٧٩، ١٨١
انقرة ٧٢، ٧٣، ١٤٦
الانكشارية ٤، ٦، ٧، ٢٨
انكلترة ٨، ٣٣، ١٢٠
الانكليز ٤٩، ٦٩، ١٠١، ١٢٠
انور باشا ٧٨، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٨
اوجيني (الامبراطورة) ٥٣
أوخري (أخريدا) ٨٠
أودسا ١٧٠، ١٧٩
أورنبرج (مقاطعة) ١٦٧
أوروبة ٣، ٥، ٩، ٣٣، ٤٨، ٦٢، ٨٤، ١٠٠، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣
الأوزبك ١٦٧
اوستند ٥١
أوشي ٨٢
« أولد سيدي شيخ » ١١٥
أومال ١١٧
ايجه ، بحر ٦٧، ٨٣
إيسلي ١١٣
إيطالية ٨٢، ١١٨
الايطاليون ٨٢، ١٠٦، ١١٨، ١٤١ـ١٤٣، ١٤٥
« إيقان » (كتاب) ١٦٤
ايمرتيا (مقاطعة) ٩، ١٥٣
ايمهوف ٦٩، ٨٠
اينوس ٨٣
أيوب افندي ٨٠
أيوب خان ١٦٩
« الباب » ١٦٠ـ١٦٥
باب الأبواب ـ انظر دربند

الباب العالي ٦، ٨ـ١١، ١٤، ١٥، ١٧، ٢٧، ٣٠، ٣٣، ٣٥ـ٤٥، ٤٧ـ٥١، ٥٤، ٥٨ـ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٧، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١٦٤، ١٦٥
البابية ١٦١، ١٦٣، ١٦٤
باجرمي ١٣١، ١٤٦، ١٤٨
بارفروش (بالفروش) ١٦٣
الباركزاي ١٥٦
البارودي ، محمود سامي ١٠١
باريس ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٩، ٦٦، ٦٨، ٩١، ٩٣، ١٠٣، ١٠٨، ١٦٦، ١٧١
باسكيفتش (الجنرال) ١٥٣
الباصمق ٨٨
باطوم ٦٧، ٨٧
باكو ٨٧، ١٥١، ١٥٣
بالش ، (النبيل) ٥٠
بالمرستون (اللورد) ٣٥
بتليس ٧٦
بثون (القائد) ١٥٨
بخارست ٥
بخارى ١٦٧
البختيارية (قبيلة) ١٧٨، ١٧٩
بدر ٢٣
البربر ٨٢، ١٠٦، ١٠٩، ١١١، ١١٤، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤
بربره ١٤٢
البرتغال ١٢٠
البرتغاليون ١١٩، ١٢٠
برج ، فون ٢٩
البركة ١٣٦
برلين ٦٥، ٦٧، ٧٦، ٨٨، ١٦٨
البروت (نهر) ٥، ٤٤
بروتونيه ١٤٨
بروسه ٧٣، ١١٤
بروسيا ٨، ٢٩، ٤٥، ٥٣
البروسيون ٢٩، ٣٠
بروكسل ٩٣
بريطانية ١٠، ١٢، ٣٦، ٥٠، ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٣، ٦٧، ٧١، ٧٣، ٧٨، ٨٥ـ٨٧، ١٠٥، ١٠٩، ١٢٥، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٦ـ١٦٩، ١٧٣، ١٧٧ـ١٧٩
البريطانيون ٢٧، ٨٦ـ٨٨، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٨٢ـ١٨٤
بزيكا (خليج) ٦٧
بسارابيا ٦٨
البستاني ، سليمان ١٠١
بسل ٢٥
بسمارك ٦٧
بشير الشهابي ١٥، ٣٨، ٣٩
بطرس الأكبر ٣٢
بطرس (ابن كاترينا) ١٥١
بطرس الثاني (الولاديكا) ٤٣
بطرسبرج ١٧٠

بطوطة ، ابن ١١٩
بعلبك ٣٧
بغداد ١٨، ٢١، ٦١، ٧١، ٧٣، ٨٦، ٨٨، ١٢٣، ١٦٤، ١٧٠
البغدان ٤٧، ٥٠
البكتاشية (الطريقة) ٧
بكري (شركة) ١٠٧
البلاح (بحيرة) ٥٣
البلاشفة ١٨٤
البلغار ٧٧، ٨٣
بلغارية ٦٠ـ٦٣، ٦٦
بلغراد ٦٢، ٧٢
البلقان ٩، ٦٣، ٦٥ـ٦٧، ٨٢، ٩٣
بلوخستان ١٦٦
بليدة ١١١
بلينير ، دي ٥٨
بندر عباس ١٦٦، ١٧٨
بنغازي ٨٢
بنوه (نهر) ١٤٩
بهاء الله ١٦٤، ١٦٥
البهائية ١٦٥
بو بريتر ١١٥
بوتنجر ١٥٨
بوجو (الجنرال) ١١٠، ١١٢ـ١١٤
بوجومن ١٤٦
بو حماره ١٢٤
بور توفيق ٥٣
بور سعيد ٥٣
بورمون ، دي ١٠٨
بورنو ١٣١، ١٤٦
البوسفور ٤، ٧، ١٦، ١٧
البوسنة ٦٨
بوشير (بو شهر) ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٣
بولان (مجاز) ١٦٨
البولشفيك ٨٨
بولغورلو ٧٣
بو مزراك ١١٧
بو معزة ١١٣
بونه ١٠٨
بويرة ١١١
بيت لحم ٤١، ٤٢
بيره جك ٣٠
بيروت ٣٦، ٧٩، ٩٩، ١٠٠، ١٠٤
بيقوز ٦
بيلان (مجاز) ١٦
تازه ١٢٥
تاكدمت ١١٢
تاكمادارت ١١٩
تافنا (نهر) ١١٠، ١١٢، ١١٣
تايدنج (ثورة) ١٣٦
تبريز ١٥٤، ١٥٨، ١٦٤، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣
التتار ٨٤، ٩٨
التجيني ، محمد ١١١
«تحرير المرأة» (كتاب) ١٠٢

تربة ٢٣
تركستان ٨٨، ١٦٨، ١٦٩
التركمان ١٥٥، ١٦٦، ١٦٨
تركمانجاي ١٥٤
تركي ٢٧
تركي ، فيصل بن ٢٧، ٢٨
تركية ٥، ٣٣، ٣٥، ٧٨، ٨٠، ٨٣ـ٨٥، ٨٧، ٩٨، ١٠٢، ١٤٦، ١٥٤، ١٧٨
تركية الفتاة ٣٢، ٦٨، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٩٢، ٩٥، ٩٦، ٩٨
تريزل (الجنرال) ١٠٩
التعايشة البقارة ١٣٣
تفليس ٨٨، ١٧٠
تقي خان ١٦٠
تقي زاده ١٧٦، ١٨٠
التكارنة ١٣٠
تكرور ١٣٠
التكه ، تركمان ١٦٧، ١٦٨
تكوش ٨٠
تل الجسر ٥٣
التل الكبير ٧١
تلست ١٥٢
تلش (الطيلسان) ١٥٣
تلمسان ١١٠، ١١٢، ١١٩
تنبكتو ١١٩، ١٣٠، ١٤٧
التمساح (بحيرة) ٥٣
تميم (قبيلة) ١٨
تنوخ ٣٨
تهامة ٢٥
تورك اوجاغي (جمعية) ٩٨
تورك درنكي (جمعية) ٩٨
تورك يوردي (جمعية) ٩٨
توفيق ، الخديوي ٥٨، ٦٩ـ٧١
توفيق باشا (الصدر الاعظم) ٧١
تونس ٦٩، ٧١، ٨٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٧، ١١٨، ١٢٨
تونشند ٨٦
تيارت ١١٥
التيجانية (الطريقة) ١٣١
تيغري (قبيلة) ١٣٩
تيمور شاه ١٥٦
التيموريون ٩٦
تيمية ، ابن ١٨
تيير ٣٥
الجامعة الأميركية ٩٩
جامعة القديس يوسف ٩٩
الجبل الاخضر ١٤٥
جتالجه ٨٣
جدة ٢١، ٢٢
جراغان ٦١
الجركس ٤٥، ٦٢
جرو ١٤٥
الجزائر ٣٥، ١٠٥ـ١٠٨، ١١١، ١١٢، ١١٤ـ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٥

الجزائري ، عبد القادر ٤٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٤
الجزار ، احمد باشا ٣
الجزيرة الخضراء ١٢٥
الجزيرة العربية – انظر بلاد العرب
جسي باشا ١٤٤
جغبوب ١٤٥
جلال ، عثمان ١٠٢
جلفه ١٧٣
جلول ، ابن ١٢٩
جمال باشا ٨٨
جنتيل ١٤٨
جنزة ١٥٠، ١٥٣
جنيف ٦٨
جودت ، أحمد ٩٦
جورج الثاني عشر ١٥٢
جورج اليوناني (الامير) ٧٦
جورجيا – انظر بلاد الكرج
جوركو ٦٦
جولاهك ١٧٥
جولاهه – انظر جلفه
جونيه ٣٦
جيلان ١٥٣
حافظ باشه ٣٠
حامد ، عبد الحق ٩٣
حايل ٢٨
حبرون ١٨
الحبشة ٥٦، ١٣٨
الحجاز ٢٢، ٧١، ٧٤
الحداد ، الشيخ ١١٧
الحريري ٩٩
حسن (سلطان مراكش) ١٢٤
حسن باشا (المصري) ٥٦
حسن باشا (والي طرابلس الغرب) ١٠٦
حسني باشا ، حسين ٨١
الحسين بن علي ٢١
حسين باشا (الانكشاري) ١٦
حسين (الشريف) ٨٧
الحشاشون ١٧٧
حكمت ، أحمد ٩٧
حمص ١٦
حلب ٢٢
حلفا ، وادي ١٣٩
الحنابلة ١٩
حنبل ، احمد بن ١٨
الحوز ١٣٠
حيدر باشا ٧٢، ٧٣
خارك (جزيرة) ١٥٨
خراسان ١٥٤–١٥٦، ١٦٠، ١٦٦، ١٨٢
الخرطوم ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦–١٣٨
الخزامى (خليج) ١٢٧
خسرو باشا ١١، ١٦، ٣٢
خوارزم ١٥٥، ١٦٧
خوزستان ١٦٦، ١٦٧
خونكار أسكله سي ١٧

خيوس ٩٣
الدار البيضاء ١٢٦
دارفور ١٢، ٥٦، ١٣٤، ١٣٦، ١٤٤
دارمانجة ١٤٤
دارة ١٣٦
داغستان ١٥٣
دامريمون ١١٠، ١١١
دان فوجو ، عثمان ١٣٠، ١٣١
دانيلو ٤٣
الدانوب ٩، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٦٦
دبرسينه ، سهيل ١٣٨
الدراني ١٥٦
دربند ١٥١، ١٥٣
الدردنيل ١٧، ٤٢، ٤٧، ٨٦
الدرعية ١٩، ٢٢، ٢٤، ٢٦
درغولتز باشا ، فون ٧٣، ٨٦
« الدرقاوا » ١١٣
الدروز ١٧، ٣٨، ٣٩، ٤٨، ٤٩، ١١٤
دزرائيلي ١٦٩
دكوه ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩
دلبهانته (قبيلة) ١٤٢
دليجراد ٦٢
دمشق ١٥، ٢١، ٢٢، ٣٧، ٣٩، ٤٨، ٧٤، ٧٩، ٨٧
دنقلة ١٢، ١٣٢
دوبريجة ٦٨
دوست محمد ١٠٣، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٦
دومال ، دوق ١١٢
دونمه ٨٠
ديفال (القنصل) ١٠٧
رابح ـ انظر رباح
راندوف ١١٥
رؤوف باشا ١٣٣
الرايخ ـ انظر المانية
رباح ١٤٤، ١٤٦ـ١٤٨
رباح ، فضل الله بن ١٤٩
رباط ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤
الرحمانية (الطريقة) ١١٧
رحمي ، حسين ٩٤
رسنه ٨٠
الرسول ـ انظر محمد
رشت ١٧٩، ١٨١
الرشتي ، سيد كاظم ١٦١
الرشيد (الشريفي الحسني) ١٢٠
رشيد ١٢
رشيد باشا (الجركسي) ١٦، ٣٣، ٣٤
رشيد ، عبدالله بن ٢٧
رشيد ، محمد بن ٢٨
الرشيدي ، ابراهيم ١٤٢
الرضا (الأمام) ١٨٢
رضا خان بهلوي ١٨٤
رفقي ، عثمان باشا ٧٠
الرهاء ٧٦

روان ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤
روبرتس (اللورد) ١٦٨، ١٦٩
الروس ٦، ١٦، ٣٠، ٣٢، ٤٥، ٦٧، ٨٧، ٩٣، ١٥٢ـ١٥٤، ١٥٩، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤
روسجق ٥
روسو ٩٢
الروسيا ٣، ٥، ٨، ٩، ١٦، ١٧، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤١ـ٤٤، ٦١، ٦٦، ٦٨، ٧٧، ٧٨، ٨٤، ٩٨، ١٥١ـ١٥٣، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٧، ١٨١
روكي ، عمر الزرهوني ١٢٤
رومانيا ٥٠، ٥١، ٦٦، ٦٨
الروم ايلي ٦، ٢٩، ٦٠، ٦٧، ٧٦، ٧٩
رومة ١١٨
رويتر ، جوليوس دي ١٧٠، ١٧٣
رويسات ١١٧
الرياض ٢٧، ٢٨
الريف ١٢٧
ريفال ٧٨
ريونيون (جزيرة) ١٢٧
الزبير باشا ١٤٤
زمان شاه ١٥٦
زنجان ١٦٤
زيبان ١١١
زيدان ، جرجي ١٠١
سادوزاي (قبيلة) ١٥٩
سالونيك ٢٣، ٦٠، ٧٧، ٧٩ـ٨١، ٨٣
سالم ، احمد بن ١١٢
ساموس ٥٠
سان ستيفانو ٦٧، ٨١، ١٦٧
سباستوبول ٤٥
سباستياني ٤
سبتة ١٢٠
سبدو ١١٢
ستانلي ١٣٩
سجستان ١٥٨، ١٦٦، ١٦٨
السرابيوم ٥٣
سرخس ١٥٥
سردار أسد ١٧٩
السريان ٤٠
سعد (الولي) ١٩
سعد، بنو ١١٨ـ١٢٠
سعود ، عبد العزيز بن محمد بن ٢٠
سعود ، عبدالله بن ٢٥ـ٢٧
سعود ، محمد بن ١٩، ٢٠
سعيد (الخديوي) ٥٧
سعيد محمد ١٦٥
سفلة ، وادي ١١٧
سكية ١١٩
سكوبليف (الجنرال) ١٦٧، ١٦٨
سلا ١٢٠

سلاتين باشا ١٣٦
سلسترة ٤، ٤٥
السلطانية (سهل) ١٥١
السلوم ١٤٦
سليم الاول ١٠
سليم الثالث ٤ـ٦، ١٠
سليمان (صاحب دارفور) ١٣١
سليمان (ابن الزبير باشا) ١٤٤
سليمان باشا ٣٦، ٦٦
السمانية (الطريقة) ١٣٢
سمرقند ١٦٧
سميث (القائد) ٣٦
سنار ١٢، ١٤٤
السنغال ١٢٩، ١٣٠
السنوسيون ١٤٥، ١٤٦
السنوسية (الطريقة) ١٤٥
سواكن ٥٥
السودان ٣٣، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣ـ ١٣٧، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩
سورية ٣، ١٠، ١٥، ١٨، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٥ـ٣٧، ٤٨، ٧٤، ٧٩، ٩٨ـ١٠٠، ١٠٥، ١٢٨، ١٥٢
السوريون ١٧
سوكوتو (مملكة) ١٣١، ١٤٧
السويس ٤٠، ٥١، ٥٥ـ٥٧، ٨٧
سي احمد بن محمد ١٢٤
سي سليمان ١١٥
سي لازرق ١١٥
سي لالا ١١٥
سيحون ، نهر ١٦٧
سيد أحمد ٢٨
سيراجيفو ٧٧
سيف (الكابتن) ١٢
سيلان ٧١، ١٠١
سيمنس (الاخوان) ١٧٠
سيمونتش (الكونت) ١٥٨
سيوه (واحة) ١٤٥
سينوب ٤٥
شاد (بحيرة) ١٣١، ١٤٦ـ١٤٩
شارل الثاني ١٢٠
« شاعر اولتمي » ٩٢
شامل ٤٥
شاه رخ ١٥٥
شاه شجاع ١٥٩
شجاع الدولة ١٨٢
شجاع السلطنة ١٨١
الشرق ٤٠ـ٤٢، ٥١، ٦٥، ٧٣، ٨٨
الشرق الأدنى ٨٦
شروان ١٥٣
شري (نهر) ١٤٨
شفه ١١٢
شكسبير ٩٣
شكي ١٥٣
الشلك (قبيلة) ١٤٠، ١٤٩

شمر ٢٧، ٢٨
شمسي باشا ٨٠
شملا ٩
شناسي ، ابراهيم ٩١، ٩٢
شنتزلر ـ انظر امين باشا
شوستر ١٨٠، ١٨١
شوقي ، احمد ١٠١
شوكت باشا ، محمود ٨١، ٨٣
شهاب (أسرة) ٣٨
شيبكا (ممر) ٦٦
الشيخية (مذهب) ١٦١
شيشة ١٥١
شيراز ١٥٠، ١٦١ـ١٦٣
شير علي ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩
شير علي ، يعقوب بن ١٦٨، ١٦٩
الشيعة ٢١، ١١٨، ١٦١
صادق خان ١٥١
صالح ، محمد بن ١٤٢
الصالحية (الطريقة) ١٤٢
صبح الازل ١٦٤، ١٦٥
الصحراء الكبرى ١٤٦ـ١٤٨
الصرب ٥، ٦٢، ٦٥، ٧٧
الصرب ، بلاد ٤٧، ٦٢، ٦٧
الصفوية (الدولة) ١٥٤
الصفويون ١٥٥
صقالبة الجنوب ٤٣
« صور اسرافيل » (جريدة) ١٧٦
الصومال ١٤٢، ١٤٣
الصوماليون ١٤٢، ١٤٣
الصويرة ١١٣
الصيادي ، ابو الهدى ٦٩، ١٠٠
الصين ١٣٦
ضهرة (قبيلة) ١١٣
ضيا باشا ٩٢
ضيا ، خالد ٩٧
الطائف ٢٣
طاووس خانم ١٥٧
الطبرسي (الشيخ) ١٦٣
طرابزون ٧٦
طرابلس ٤٩
طرابلس الغرب ٨٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٥ـ١٤٧
طرش ١٤٥
طلال ٢٨
طلعت باشا ٧٩، ٨٨
طنجة ١١٣، ١٢١، ١٢٥
طهران ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨ـ١٨٠، ١٨٣
الطوارق ١٤٧
« طوران » (رواية) ٩٨
طورس ٣٠
طوسون ٢٦
طوشكي ١٤٠
طوله باغجه ٦١
طولون ١١٤

الطونه ـ انظر الدانوب
ظل سلطان ١٥٧، ١٥٨
عائشة (بنت ابي بكر) ١٤٠
عائشة (زوجة المهدي) ١٤٠
العابد ، عزت باشا ٧٤
عالي باشا ٥٥، ٩٢
عامر (قبيلة) ١٠٩
عباس (الوهابي) ٢٧
عباس آباد ١٥٤
عباس باشا ٣٩، ٥١
عباس الاول (الشاه) ١٥٠
عباس ميرزا ، محمد بن ١٥٦
عبد البهاء ١٦٥
عبد الحفيظ (سلطان مراكش) ١٢٦، ١٢٨
عبد الحميد الثاني ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٨٠، ٨١، ٩٣، ٩٦، ١٠٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٨
عبد الرحمن (ملك الافغان) ١٦٩
عبد الرحمن النجومي ١٣٩
عبد العزيز (السلطان) ٤٩، ٥٠، ٥٩، ٦١، ٩٣
عبدالعزيز (سلطان مراكش) ١٢٤ـ ١٢٦
عبدالعزيز، سعود بن ٢٠، ٢٢، ٢٥
عبد العظيم (الشاه) ١٧١، ١٧٥
عبد الكريم (الامير) ١٣٨
عبد الكريم الخطابي ١٢٧
عبدالله باشا ١٥، ٢١
عبدالله التعايشي ١٣٢، ١٣٣، ١٣٧ـ ١٤١
عبدالله حسن ، محمد بن ١٤٢
عبد المجيد الأول ٣٣ـ٣٥، ٤٩
عبده ، محمد ١٠٣، ١٠٤
عبد الوهاب ، محمد بن ١٨، ١٩
عثمان باشا ٦٦، ٦٧
العثمانيون ٤، ٣١، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٩، ٨١، ٩٨، ١٠٥
العثمانية ، الامبراطورية ٣، ٥، ١٠، ١٧، ٢٩، ٣٢، ٣٦، ٣٨، ٤٢، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٤، ٥٩، ٦٦، ٦٩، ٧١، ٧٧، ٨٠ـ٨٣، ٨٩، ٩٠، ٩٩، ١٥٢، ١٦٧
عدار ، الرأس ١٣٨
عدن ٢٧
عدوه ١٤١
العرائش ١٢٦
عرابي باشا ٧٠، ٧١
العراق ٧٢، ١٧٢
العرب ، بلاد ١٠، ١٢، ١٨، ٢٠، ٢٣ـ٢٨، ٨٧، ١١٩
« العروة الوثقى » (مجلة) ١٠٣
عسير ٢٥، ٢٧
« عشق ممنوع » (كتاب) ٩٧
عضد الدولة (ابن فنيح علي) ١٥٦
العقبة ٧٩

عكا ١٥، ٣٦، ٣٧، ١١٤، ١٦٥
علال الفاسي ١٢٩
العلويون ٢٠
علي بن ابي طالب ١٤٠
علي بك الكبير ١٠
علي شاه ١٥٠
علي ، محمد بن (السنوسي) ١٤٥
عمان ١٦٦
عمر (ناشر الاسلام بالسودان) ١٣١
عمر باشا ٤٣، ٤٤
عنزة ١٩
عوني باشا ، حسين ٦١
عين الدولة ١٧٣، ١٧٥
عين ماضي (حصن) ١١١
عيينة ١٩، ٢٠
غابون ١٢٩
غاردان (الجنرال) ١٥٢
غالب (الشريف) ٢٠، ٢٣
غاندماك (معاهدة) ١٦٨
غانه ١٣٠
غراتزياني (الجنرال) ١٤٦
الغزال ، بحر ١٤٤
غلادستون ٦٢، ٧٠، ١٦٩
الغلزائي (قبيلة) ٥٥
غوردن (الجنرال) ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤
غوندار ـ انظر قندر
غيكا (النبيل) ٥٠
فارس ٧٣، ١٠٣، ١١٩، ١٥٠ـ ١٥٣، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٣
الفارسي ، الخليج ٧٢، ١٥٨
فارصوفيا ١٥٢
فاس ١١٩، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٧
فاشوده ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٩
فاطمة (بنت الامام السابع) ١٧٥
فالكنهاين ، فون ٨٨
فؤاد باشا ٤٨
فاليه ١١١، ١١٢
فتح خان ١٥٦
فتح علي شاه ١٥١، ١٥٦
فتح علي ، قاسم بن ١٥٧
الفتن (مقاطعة) ٢٨
الفرات (نهر) ٣٠
فراشري ، سامي ٩٥
فرانسكو ١٢٨
الفرس ١٥٣، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٦، ١٧١، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٤
فرمان فرما ١٥٧، ١٥٨
فرنسة ٨، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٨، ٤٩، ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٧٠، ٨٢، ٨٦، ١٠٧، ١١٠، ١١٢، ١١٦، ١١٨، ١٢٥ـ ١٢٧، ١٤٩

الفرنسيون ١٠، ١١، ١٦، ٦٩، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١١ـ١١٨، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٤٦، ١٤٧
فلسطين ١٥، ٣٥، ٣٦، ٤٢، ٨٧
فهمي، علي ٧٠
فوتاجلون ١٣٠
فوزي باشا ٣٢
فوكوريدس ٥٠
الفول (الفلاتة) ١٣٠، ١٤٧
فيليب الثاني ١٢٠
فيليب، مدينة ١١١
فينا ٤٣
القاجار ١٥٠، ١٥٦، ١٧٩
القادرية (الطريقة) ١٤٣
القاهرة ١١ـ١٣، ٢٦، ٥٥، ٧١، ٩٩، ١٠٣، ١٤٤
«القانون» (جريدة) ١٧٤
قبرس ٦٧، ٩٣، ١٦٥
القبق ـ انظر القوقاز
القدس ٤٠ـ٤٢، ٧٣، ٩٧
قدير، جبل ١٣٤
القرآن الكريم ٢٥، ١٣٥
قرص ٤٤، ٤٥
قرع ٥٦
قرم (وادي) ١٦٨
القرم، شبه جزيرة ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥٩، ٦٢
قرمان ١٦.
القرمانيون ١٠٦.
القرن الذهبي ٨
قره باغ ١٥٣
قره جورج (قره يوركي) ٥، ٦
قرة العين (الشاعرة) ١٦٣، ١٦٤
قره قوم ١٦٧
قريش ٢٣
قزوين (بحر) ٧٥، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٩، ١٧٧
قسنطينة ١٠٨، ١١٠
القصبة ١١١
القصر ١٢٦
قصر شيرين ١٧٨
القصيم ٢٦
القلابات ١٣٨
قم (مدينة) ١٧٥
القمر (جزيرة) ١٢٧
قندت ٥٦
قندر ١٣٨
قندهار ١٥٥، ١٥٩، ١٦٨، ١٦٩
قوالة ٩
قوز رجب ١٤١
القوقاز ٩، ٤٤، ٤٥، ٦٢، ٨٧، ١٥٣
قوميشاه ١٥٨
قونية ١٦، ٧٣
القيامة، كنيسة ٤١
القيرغيز ١٦٧

قيليقية ١٦، ١٧
كاغد خانه ٧، ٩٤
كابل ١٥٦، ١٥٩، ١٦٨، ١٦٩
كاترينا (البرتغالية) ١٢٠
كاترينا (الامبراطورة) ١٥١
كاخ (مدينة) ١٧٨
كارول فون هوهنزلرن ٥١
كافانياري ١٦٩
كامبل ١٥٨
كامران ١٥٦، ١٥٨
كانم ١٣١
كتشنر (السردار) ١٤١، ١٤٩
كربلاء ٢١، ١٦١، ١٧١
الكرج ، بلاد ٣، ٩، ١٥٠ـ١٥٣
كردوفان ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦
كرزن ٨٦
كرمان شاه ١٥٩، ١٧٠، ١٨٠
كرومر (اللورد) ٧١
كريت ـ انظر اقريطش
كريم خان ٥١
كسلا ١٣٨، ١٤١
كفرة ١٤٥
كلخانه ٣٣، ٤٦
كلستان (معاهدة) ١٥٣
كلوزيل (الجنرال) ١٠٨، ١١٠
كمال ، مصطفى ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩١
كمال ، نامق ٩٢
كوت العمارة ٨٦، ١٨٣
كوتاهية ١٦
كوتي ، دولة ١٤٤
كودوك ١٤٩
كوزا (الكولونيل) ٥٠، ٥١
كوك آلب ٩٨
الكونغو ١٤٨
كونو ١٤٨
الكويت ٢٠
كيت ، توماس ٢٣
اللاتين ٤١، ٤٢
اللاز ٤٥
لالا فاطمة ١١٤، ١١٥
لالاند ٣٢
لامي (القومندان) ١٤٨
لايبرخت ٥١
لبنان ١٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٨، ٤٩
« لطائف روايت » (كتاب) ٩٤
لغواط ١١١
لندن ٩، ٣٣، ٣٥، ٣٨، ٨٣، ٩٢، ٩٣، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤
لورا كليفورد بارناي ١٦٥
لورنس ٨٧، ١٨٣
لياكهوف ١٧٨
ليسابس ، فرديناند دي ٥١ـ٥٣
ليوتي (المارشال) ١٢٧
مارشان (القومندان) ١٤٩
مازندران ١٥٠

ماك لين ١٢٤
ماكو ١٦٣
مالطة ٣٨، ٩٨
مالك ١١٩
مالي ١٣٠
مانسمان (الاخوان) ١٢٥
المتمة ١٣٧
المتن ٣٩
المتنبي ٩٩
متيجة ١٠٨، ١١٢
مجانة ١١١، ١١٦
« المجلس » (جريدة) ١٧٦
محمد (الرسول) ١٩، ٢١ـ٢٣، ١٠٤، ١١٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٦١، ١٦٢
محمد (بن شريف تاكمادارت) ١١٩
محمد الاول (المراكشي) ١٢١
محمد باشا (بن خسرو) ١٦
محمد توفيق ٩٤
محمد الثالث (سلطان مراكش) ١٢٦
محمد الحبيب (الباي) ١٢٨
محمد حسن القاجاري ١٥٠
محمد رشاد (الخامس) ٨١
محمد رشدي باشا ٦١
محمد رؤوف باشا ١٠٦
محمد شاه ١٥٧ـ١٦٠
محمد علي باشا ٩ـ١٦، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٥ـ٢٧، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥ـ٣٩، ٥١، ٥٦، ٧٠، ٩٩، ١٠٠
محمد علي (الشاه) ١٧٦ـ١٨٠
محمد علي ، سعيد بن ٥١
محمد علي ، طوسون بن ٢٢، ٢٣
محمد العابد (الشيخ) ١٤٦
محمد المهدي (السنوسي) ١٤٥
محمد ، علي – انظر « الباب »
محمد والي خان ١٧٩
محمود الثاني (السلطان) ٥، ٦، ٩، ٢٨، ٣٠ـ٣٢، ٣٤، ٣٨
محمود (زعيم الغلزائي) ١٥٥
محمود باشا ٥٥
محمود شاه ١٥٦
محمود ، السلطان عبد المجيد بن ٣٢
مدحت باشا ٦١، ٦٣، ٦٥، ٧٨
مدحت ، احمد ٩٤
مدغسكر ١٢٧
المدينة (المنورة) ٢٢، ٢٣، ٢٦ـ٢٨، ٧٤
المدية ١١٢
المرابطون ١٣٠
مراد الخامس ٦١، ٦٣
مراكش ١٠٦، ١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢١ـ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧ـ١٢٩، ١٣١
المراكشيون ١١٣

« المرأة الجديدة » (كتاب) ١٠٢
مرسيليا ، ١٠٨، ١٢٧
مرعش ٣٠، ٣١
مرمرا ، بحر ٣٣، ٤٤
مرو ١٥٠، ١٦٦، ١٦٧
مريم خانم ١٥٧
مرين ، بنو ١١٩
« مزار شريف » ١٦٨
مزكلدة (قبيلة) ١٢٢
مستغانم ١١٢، ١٤٥
مستوليتوف ١٢٨
مسقط ١٦٦
المسيح ، السيد ٤٠، ٤١، ١٦١
مشهد ١٥٦، ١٦٣، ١٨٢
مصر ٣، ١٠ـ١٢، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٢، ٢٧، ٣٠، ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٥١ـ٥٣، ٥٦، ٥٨، ٦٩ ـ ٧١، ٩٠، ٩٨ ـ ١٠٥، ١٢٥، ١٢٨، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٦، ١٥٢
المصريون ١٦، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٥٦، ٧١، ١٣٥، ١٣٩، ١٤١
مصطفى ، الدكتور حاجي ٧٩
مصطفى الرابع (السلطان) ٥
مصطفى بيراقدار ٥
مصوع ٥٥، ٥٦، ١٠٤
مظفر الدين شاه ١٧٣
معسكر ١١٠، ١١٢
معن (أسرة) ٣٨
المغرب ١٣٠
المغول ١٥٥
مقدونية ٧٧، ٧٨، ٨٣
مقراني ١١٦، ١١٧
مقراني ، العزيز بن ١١٧
المقطع (نهر) ١٠٩
المكسيك ١١٥
مكة ٢٠ـ٢٣، ٢٦، ٢٧، ١٠٩، ١٣١، ١٣٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٦١
مكناسة ١٢٣
« اللا المفتون » ـ انظر عبدالله حسن، محمد بن
ملطية ٣٠، ٣١
ملكوم خان ١٧٤
ملوية ١٤٤
المماليك ٣، ١٠ـ١٢، ٢٢
المنزلة (بحيرة) ٥٣
منستير ٨٠
منشيكوف ٤٣، ٤٤
منليك (الامبراطور) ١٤١
منوجهر خان ١٦٣
المهد ، كنيسة ٤١، ٤٢
المهدي (محمد بن عبدالله) ١٣٢ـ ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩
الموارنة ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٨، ٩٩
مودروس ٨٨

المورة ٧
مولتكه ، فون ٢٩
موليير ٩٢، ١٠٢
مونيخ ١٧١
ميديا ٨٣
ميرزا ، عباس ١٥٣ـ١٥٥
ميسولونكي ٨
ميشال ، دي (الجنرال) ١٠٩
ميلوش ، اوبرنوويج ٦
ميلان (الامير) ٦٢
مينكرلي ١٥٣
نابلس ١٨
نابوليون الاول ٤، ٥، ١٠، ٣٧، ١٠٥، ١٠٧، ١٥١، ١٥٢
نابوليون الثالث ٥٢ـ٥٤، ١١٤، ١١٥
نابير ، شارلز ٣٧
نادر شاه ١٥٠، ١٥٥
نادي ، يونس ٧٩
ناصر الدين شاه ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٠ـ١٧٥
ناصر الملك ١٧٦
نامي بك ، الداماد احمد ٧٥
نامي بك ، الداماد عمر ٧٥
ناوارين ٨، ١٤
النبهاني ، يوسف ١٠٠
نجد ١٨، ٢١، ٢٤، ٢٦، ٢٧
نخشبان (نسف) ١٥٤
النساطرة ١٨٣
نشان طاش ١٧٢
النصارى ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤٦ـ٤٩، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٨٤، ٩٩، ١٠٦، ١٨٣
النصرانية ١٩، ٣٦
نصيبين ٣٠ـ٣٢، ٧٣
نفتالي ١٠٧
النقاش ، مارون ٩٩
نلسون ١٠
النمسا ٣، ٦، ٣٥، ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٦٨، ٧٧
نوائي ٩٦
نوبار باشا ٥٨
النوبة ١٢، ١٣١
النوبيون ١٣٠
نوجال (وادي) ١٤٣
نيازي بك ٧٨ـ٨٠
النيجر (نهر) ١٣٠
نيدرماير ، فون ١٨٣
نيقولا (القيصر) ٤٤، ٧٨
نيقوبوليس ٥
النيل (نهر) ١٣، ٥٥، ١٣٠، ١٣٧
النيل الأبيض ١٣٢
النيل الأعلى ، وادي ١٣٠
النيليون ١٣٠
هارون (سلطان دارفور) ١٤٤
هاشم (قبيلة) ١٠٩

هراة ٩٦، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩
هرر ٥٦
الهرسك ٦٠، ٦٨
هرقل (ملك جورجيا) ٣، ١٥١
هلمند (نهر) ١٥٥
الهلينية ٦
همذان ١٧٠
الهند ١٠، ٢٨، ٣٥، ٧١، ٧٤، ١٠٣، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٧ـ ١٦٩، ١٧٧
الهند الصينية ٧١، ١١٥
هياتو ١٤٧
هيرش (البارون) ٧٢
هيكس باشا ١٦٥
واسموس ١٨٣
وان (بحيرة) ٧٦، ١٨٣
وجدة ١١٩، ١٢٦
ودائي ١٣١، ١٤٦، ١٤٧
ودين ٦٦
« وطن ياخود سلسترة » ٩٣
ولسن ٥٨
ولهلم الثاني ٥٣، ٧٣، ١٢٥
وليم الثالث ، فريدريك ٢٩
الوهابية ، الحركة ١٨
الوهابيون ١٢، ٢٠ـ٢٣، ٢٦ـ٢٨
وهران ١٠٨ـ١١٠
وولزلي ٧١
ويمبفان (الجنرال) ١١٦
اليازجي ، ناصيف ٩٩
يافا ٧٩
يلدز (قصر) ٧١
ينبع ٢٣
يني (قبيلة) ١١٤
يني بازار ٦٨، ٧٧
اليهود ١٠٧، ١١٦
يوحنا (الامبراطور) ٥٦
يوسف (سلطان مراكش) ١٢٦
يوسف باشا ١٠٥
اليونان ٥، ٩، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ٨٣

محتويات الكتاب

●

١ ـ الامبراطورية العثمانية ومصر ٣ - ٨٩

عهد التنظيمات ٣ ـ الثورة في بلاد الصرب واليونان ٥ ـ محمود الثاني يقضي على الانكشارية ٦ ـ محمد علي والي مصر ٩ ـ ابراهيم يفتتح سورية ١٥ ـ الحركة الوهابية في بلاد العرب ١٨ ـ السلطان يعهد الى محمد علي في قتال الوهابيين ٢٢ ـ الادارة الوهابية في عهد سعود ٢٤ ـ ابراهيم يخضع الوهابيين ٢٦ ـ إعادة تنظيم الجيش العثماني ٢٨ ـ هزيمة الأتراك في نصيبين ٣٠ ـ عبد المجيد الأول يصدر خطاً شريفاً ٣٣ ـ التحالف الرباعي وخروج ابراهيم من سورية ٣٥ ـ اعادة تنظيم سورية : الموارنة والدروز ٣٨ ـ مسألة الأماكن المقدسة النصرانية ٤٠ ـ حرب القرم ٤٤ ـ محاولة جديدة في سبيل الاصلاح ٤٥ ـ معاهدة باريس ٤٧ ـ فتنة سنة ١٨٦٠ في لبنان وسورية ٤٨ ـ السلطان عبدالعزيز ٤٩ ـ نشوء دولة رومانيا ٥٠ ـ قناة السويس ٥١ ـ مصر في ظل الخديوي اسماعيل ٥٣ ـ النهضة المصرية عهد اسماعيل ٥٥ ـ اخفاق الحملة على الحبشة ٥٦ ـ نهاية الخديوي اسماعيل ٥٧ ـ الباب العالي يعلن افلاسه ايضاً ٥٨ ـ الثورات في الهرسك وبلغارية ٦٠ ـ مدحت يرفع مراداً الخامس الى العرش ٦١ ـ عبد الحميد الثاني والدستور العثماني الأول ٦٣ ـ الحرب الروسية التركية في البلقان : مؤتمر برلين ٦٥ ـ الاستبداد الحميدي ٦٨ ـ الثورة العرابية واحتلال الانكليز مصر ٦٩ ـ سكة حديد بغداد والحجاز ٧٢ ـ الأرمن والأكراد ٧٤ ـ الحرب مع اليونان ٧٦ ـ الثورة في مقدونية ٧٧ ـ تركية الفتاة ٧٨ ـ الزحف على استانبول واحياء الدستور ٨٠ ـ خلع عبد الحميد ٨٠ ـ ايطالية تستولي على طرابلس الغرب ٨٢ ـ دول البلقان تعلن الحرب على الامبراطورية

العثمانية ٨٢ ـ ظهور الفكرة القومية في تركية ٨٣ ـ النهضة النسائية التركية ٨٥ ـ تركية في الحرب العالمية الأولى ٨٥

٢ ـ الحياة العقلية في الامبراطورية العثمانية ومصر في القرن التاسع عشر ٩٠-١٠٤

النهضة الصحفية والتعليمية ٩٠ ـ ابراهيم شناسي ٩١ ـ نامق كمال ٩٢ ـ عبد الحق حامد ٩٣ ـ الادب التركي يتجه نحو الشعب ٩٤ ـ السعي الى تنقية اللغة التركية ٩٥ ـ خالد ضيا يضع اساس الرواية التركية الحديثة ٩٦ ـ القومية التركية الجديدة وأثرها في الادب ٩٧ ـ الحياة الادبية في سورية ومصر ٩٨ ـ حركة التجديد الديني : جمال الدين الافغاني ١٠٢ ـ محمد عبده ١٠٤

٣ ـ شمالي افريقية ١٠٥ - ١٢٩

طرابلس الغرب ١٠٥ ـ الفرنسيون يفتحون الجزائر ١٠٦ ـ الامير عبد القادر يعلن الجهاد ١٠٩ ـ مصير عبد القادر ١١٢ ـ لالا فاطمة تحارب الفرنسيين ١١٤ ـ سي سليمان يعلن الثورة على الفرنسيين ايضاً ١١٥ ـ آخر حركات التحرر في الجزائر ١١٦ ـ الفرنسيون يحتلون تونس ايضاً ١١٧ ـ أشراف مراكش العلويون ١١٨ ـ النظام الاداري في مراكش ١٢١ ـ الجيش ١٢٣ ـ السلطان حسن وابنه عبد العزيز ١٢٤ ـ مؤتمر الجزيرة الخضراء ١٢٥ ـ عبد الكريم بطل الحرية المراكشية ١٢٦ ـ الحياة العقلية في افريقية الشمالية ١٢٨

٤ ـ السودان ١٣٠ - ١٤٩

السودان يعتنق الاسلام ١٣٠ ـ المهدي محمد بن عبد الله ١٣٢ ـ الصراع بين المهدي والحكومة المصرية ١٣٣ ـ غوردن يسعى لتوطيد الحكم البريطاني المصري في السودان ١٣٦ ـ الخليفة عبد الله ١٣٧ ـ حروبه في الحبشة ١٣٨ الخليفة يحاول غزو مصر ١٣٩ ـ كتشنر يقضي على امبراطورية المهدي ١٤١ ـ محمد بن عبد الله حسن مهدي الصومال ١٤٢ ـ الحركة السنوسية ١٤٥ ـ رباح واتساع الامبراطورية الفرنسية في افريقية ١٤٦ .

٥ ـ فارس وافغانستان ١٥٠-١٨٤
آغا محمد القاجاري يبسط سلطانه على فارس ١٥٠ ـ فتح علي ونابوليون ١٥١ ـ الحرب ضد الروسيا ١٥٢ ـ اخضاع خراسان ١٥٤ ـ محاولة اخضاع أفغانستان ايضاً ١٥٥ ـ الحياة في بلاط فتح علي ١٥٦ ـ محمد شاه يصطدم بالبريطانيين في أفغانستان ١٥٨ ـ ناصر الدين شاه ووزيره تقي خان ١٦٠ ـ حركة « الباب » الدينية ١٦٠ ـ الصراع بين « الباب » وحكومة الشاه ١٦٢ ـ بهاء الله ١٦٤ ـ الزحف الروسي في آسية الوسطى ١٦٦ البريطانيون في افغانستان ١٦٧ ـ محاولات الاصلاح في فارس ١٧٠ ـ اختلاف الشاه وجمال الدين الافغاني ١٧١ ـ مصرع ناصر الدين شاه ١٧٢ ـ تفاقم الازمة المالية عهد مظفر الدين ١٧٣ ـ الثورة والحياة البرلمانية ١٧٤ ـ الصراع بين الشاه محمد علي والمجلس ١٧٦ ـ الروسيا وبريطانيا تقتسمان النفوذ في فارس ١٧٧ ـ اندلاع الثورة من جديد وخلع الشاه ١٧٨ ـ شوستر الاميركي يحاول القيام باصلاح مالي ١٨٠ ـ بلاد الفرس الشمالية في ايدي الروس ١٨٢ ـ فارس في الحرب العالمية الأولى ١٨٣ .
١٨٥ فهرست الأعلام

١٩٥٠—١—١١٣

DATE DUE

SAFET LAB
10 JAN 1983

31 AUG 1987

CA: [redacted]
البعلبكي، منير
تاريخ الشعوب الاسلامية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01051994